العملاق

رواية فلسفية في الفكر والتاريخ والتطور البشري



الأستاذ الدكتور مسعد بن عيد العطوي

عالم الكتب الحديث
٢٠١٥

العملاق

رواية فلسفية

في الفكر والتاريخ والتطور البشري

أ. د. مسعد بن عيد العطوي

العملاق

(١)

كنت فوق جبل في غرب استراحتي مطلاً عليها وعلى أودية وغابات وجبال وتلاع منحدرة، وقد أخذت أتأمل في تلك الآثار القديمة، وقد كنت أسير في الديار، وأقف عند المعالم القديمة، فاستحوذ عليّ التفكير، وإذا بصوتٍ كأنه صادر من مجموعة مشاة، وأخذت ألتفت يمنةً ويسرةً؛ فإذا عملاقا شاخصاً أمامي؛ فارتجفت وصرخت وفغرت فمي، وإذا به يقول أنا بشر والله لن أضرك والله لن أضرك؛ فإذا هامة رأسه أمامي وأقدامه في سفح الجبل وجثته متناسقة فواصل مقولته أنا إنسان مثلك، وكنت أظنك لا ترتجف ولا ترتعد لأنك تعرفني؛ فأنت كثيراً ما تحدثت عن عمالقة التاريخ بداية من آدم، وعاد، وثمود، أمّا أنا فأعرفك كثيراً فكم مرة مررت بجانبي وتأملت فيك وخشيت عليك؛ فلم أظهر لك؛ فأنا أحد المعمِرين من قوم عاد وثمود الذين كتب الله لهم البقاء عبرة لنا، ولمن أتى بعدنا ولعلنا نتحاور في الإنسان وتطور حياته، وجسمانه، ورغباته، ذلك مرهون بهدوئك وأمنك، وقد هدأ روعي بعض الشيء لما استعادت ذاكرتي قراءات تاريخ الأقوام الأقدمين، وما ذكره المفسرون لتاريخهم وربطه بالآيات.

فقلت: والله إنني أجهل كثيراً، و لم أستطع أن أفسر تلك الآثار، فأنظر إلي هذه الصخرة الكبرى في حوض هذه التلعة والشعيب وبجانبها حجارة أصغر منها متناثرة، فالصخرة محمولة والحجارة منقولة وكأنها بقايا لاستيطان قديم أو استخدام زراعي.

ثم قلت: فهل هي من عمل البشر من أوائل التاريخ؟

فقال: أو يخفي ذلك عن صاحب بصر وبصيرة.

فقلت: ليس عندكم رافعات كبرى تحرك الحجارة الضخمة وتنقلها.

فقال: هذه يحملها أحدنا، ولا يبالي ولعليِ أريك مكان مزارعي ودياري إن قدرت على صحبتي.

قلت: لا أستطيع السير، وقد تقدمت بى السنون وداهمني مرض القلب.

قال: الأمر يسير أستطيع أن أحملك وأطوف بك وكنت في السابق أرتحل من صنعاء إلي القاهرة في خمسة أيام، وأنا أحمل زادي، ومائي، ودثاري.

قلت: العمر يؤدي إلى تناقص القوي، وأنا أرفض أن تحملني لكن الله رزقنا بوسائل حديثة مريحة.

قال العملاق: لكني لا أستطيع أن أركب سيارتك الجيب هذه ولو ركبت في حوض سيارة لفزع مني السائرون في الطريق وعند أماكن تعبئة الوقود.

قلت: أنت تذهب على أقدامك وأنا أمتطي سيارة إلي المكان الذي نلتقي فيه – إن شاء الله ـــ،وسيرك على أقدامك، فيه صحة لك أمّا سيرنا على الوسائل الحديثة ففيه ضرر علينا.

قلت: إنك ضيفي؛ فماذا أعمل لك من ضيافة أو خدمة؟

قال العملاق: أنا لي طريقتي في التغذية؛ فلا أريد أن أخالفها بعد هذا العمر؛ فضيافتي هي الحوار معك ومحادثتك بعد أن طال بى الزمن؛ فلا أصحاب ولا محادثة.

قلت: لعلنا نغادر المكان.

قال العملاق: بل أنت أولاً لا أريد أن تطلع على اتجاهاتي، ولا مأواي، ولتكن هذه طريقتنا الدائمة.

قلت: لعلك تثبت على ملابسك هذه حتى لا أتوجس خيفة.

قال العملاق: ليس لي إلا هذه الملابس الخشنة ولا أفكر في تغييرها حتى تتداعى هلاكاً.

قلت: إن ملابسك هذه تدثرني في أيام الشتاء الغارسة.

قال: ولماذا لم تقل الأربعانية؟ تظن أني أجهلها وأنا بها خبير.

قلت: لعل أسمها يختلف وتوقيتها يتغير.

قال: الواقع أن القرون تكاد تلتقي عليها.

العملاق

(٢)

أيها العملاق: أنت أشرت إلى أنِي أتحدث عن التاريخ كثيراً، ولكني لم أرك إلا هذه اللحظة، أطارحك الأحاديث فيها.

قلت: فكيف تعرفني؟

فقال العملاق عجباً: أنسيت أن الإنسان القديم يتلبس بالجن ويتلبس الجن به، وقد أشار القرآن الكريم إلى **ذلك في قوله تعالي { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٢، ١١٣]**.

مع أن الأمر حجب عنكم أمة محمد صلي الله عليه وسلم؛ فالإنسان استعان بالجن على نوعيه المؤمن والكافر والإنسان، استعان بالجن في بناء المدن في عهد الفراعنة وما قبلهم.

وأردف العملاق قائلاً: فأنت قرأت ما دونه التاريخ عن المدن الجميلة التي وصفها المؤرخون، وقد حجبت عن الأنظار أو علا عليها التراب أو اختفت تحت الرمال في الربع الخالي أو الصحراء الكبرى في شمال أفريقيا وبمحاذاة النيل.

فقلت: كنت أظن ذلك من نسج الخيال مع أنني وقفت طويلا عند وصفها، وجمالها وقدرة الإتقان، وصناعة المكونات لها؛ فإن كثيراً من المؤرخين يعودون بذلك إلى الاستعانة بالجن، وقد شاع في الحديث عثور أحد الصحابة على مدينة أرم ذات العماد، ثم اختفت، وقد طافوا المعمورة سيراً على الأقدام من أجل جمع مواد القوة من الحجارة الصلدة ومكونات الجمال والغرابة فيها والله منحكم قوة في الأبدان ،وقدرة في العقول والاستعانة بالخوارق.

فقال العملاق: **بلى**، إن الملوك الجبابرة الذين ملكوا المعمورة ومن هم أقل منهم من السلاطين يجمعون في مجالسهم كبار علماء الدين، وكبار علماء الحكمة، وكبار علماء السحر، وكبار علماء الكهنة، وعلماء الشعبذة والشعوذة، وهم يستشيرونهم ،ولقد سخر الله لسليمان أفواجاً من الجن فبني الجفان والتماثيل كما ورد في القرآن الكريم بصراحة ووضوح وقال تعالي: **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٢، ١٣]**.

ثم واصل العملاق حديثة: فالاستعانة بالجن ما زالت معي منذ، ذلك الزمن، فهي عرفَتني عليك حين تبتعد عن الكهوف ولا قدرات لي على الاستماع في مجالسكم أو ميادين الدرس والمحاضرات، ولكنى لا أستفيد منها إلا عند الضرورة، فهي محجوبة عني ألا وقت الحاجة وأنا أستعيذ بالله من استحواذ الشياطين ومن تلبسهم كما أوصي الرسول محمد صلي الله عليه وسلم أبا ذر: **فقال: يا أبا ذر هل تعوذت من شياطين الأنس والجن؛ قال: قلت: لا؛ وهل للأنس من شياطين؛ قال: نعم، شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف القول غرورا.**

فقلت: فإنك لا تستطيع الدخول مع أبوابنا، ولا تحملك كراسينا، ومقاعدنا.

فقال: وكذلك القاعات والمحاضرات وفوق ذلك أنني أحْدث لكم رعباً تنسون معه الفكر والخطابة والجدل.

وقال: وكثيراً ما اختفيت عن لقاء الإنسان، وطلبت مساعدة الجن كيما تصلني المعلومات، وحتى لا أصيِّر كثيراً من البشر مجانين من الرعب والرهبة.

فقلت: نعم قد أشار القرآن إلى هذه قال تعالى: **{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} [الجن: ٨ – ١١]**.

وقال القرطبي: حول هذه الآية (أي من السماء ومقاعد موضع يقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء يعنى أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليستمعوا من الملائكة أخبار السماء حتى يلقوها إلى الكهنة، فحرسها الله تعالى حين بعث رسوله بالشهب المحرقة، وأشار إلى أن انقضاض الكواكب وراء الشياطين لم يحدث إلا بعد بعثة رسول الله محمد صلى الله عليه، ولم تكن هناك حراسة بين بعثة موسى وعيسى عليهما السلام) ١٠:١٢ تفسير القرطبي.

فأنت أيها المعمر: تقر بالتعاون مع الجن.

قال: نعم، وقد سخر الله ذلك ولكنه فيه مخاطر كثيرة.

ثم قال: وقد أنست بك حين تتلوى حول الكهوف أو تقف مطولا عند الآثار القديمة؛ فأنا أراك تارة وأنا أنطوى في الكهف كأنني من الحجر، وتارة أستخدم الجن كيما أعرف ما يدور في خلدك وكدت ذات مرة في آثار البدع في الحرة التي تعلو قمة الجبل فكدت أن أفزعك كثيراً باختطاف أبنك حين وليت مسرعاً لتناول مكونات السكر وتركته يصور فكدت أن أخطفه ساعات معدودات غير أنني خشيت من العاقبة عليك وعلى أبنك الذي أخلف الطريق وأنحدر مذهولاً نحو الوادي والطريق الإسفلتي العام فهو طفل صغير لم يتمرس على البراري.

فقلت: جزاك الله خيراً؛ فأنا قد فزعت حين ألتفت و لم أره فكيف لو حجبته عني لكانت القاضية أو القاصمة، فالحمد لله إن منعك من المزاح الثقيل.

فقال العملاق: الاستعانة بالجن هذه قضية شائكة في زمنك فيها اختلاف كثير؛ لكن أليس يتحدث الجن على لسان بعض المرضى، وفي جوف العجل ولسانه حتى أقنع به السامري اليهودي في غياب موسى عليه السلام وكذلك السحرة معه وهم صدّقوا بالصوت وأشركوا مع الله و لم يفكروا في مخلوقات الله الأخرى والقدرات الربانية العظيمة، فأغراهما صوت الخوار فقط.

وقال: لا بدّ أنك قرأت عن هاروت وماروت.

فقلت: نعم، وما خبرهما عندك.

فقال: هما ملكان اعترضا على خطأ الإنسان، وفساده في الأرض؛ فأراد الله أن يبتليهما وأن يلحقهما بالإنسان أشارة إلى قوله تعالى: { **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا** } **[الإنسان: ٣، ٤]**.

وكذلك اختبار حمل الأمانة وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولاً؛ فلم يستطيع هاروت وماروت مقاومة النفس الأمارة بالسوء وهواها فتعرضت لهما أمرآة جميلة فراوداها، بعد محاولة العفاف وقد طلبت منهما جرائم فعاودت لهما المرة تلوا الأخرى حتى تعلمت منهما كيف تصعد إلى السماء، فارتفعت وتركتهما فهي نجمة الزهرة الساطعة كل مغرب يوم.

فقال الحسن البصري: في تفسير هذه الآية: **نعم**، أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلى به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدا حتى يقول الله؛ **كما ورد في كتابه العزيز:** **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢]**

"٣٠٦" في تفسير ابن كثير وحديث المرأة من دومة الجندل التي أرادت أن تتوب أمام الرسول، وقد تعلمت السحر على يد الملكين بابل هاروت وماروت، فوجدت الرسول صلى الله عليه وسلم، قد توفاه الله وعرضت الأمر على عائشة رضي الله عنها؛ فلم تفدها بشيء.

فقال العملاق: استفدت منك مواقف الرسول وأمتكم من السحر، وقد أطلت الحوار وجزاك الله خيراً؛ فإنني فقدته منذ زمن طويل منذ مات الأصحاب وعشت وحيداً.

العملاق

(٣)

أقبل العملاق إليّ فوق الجبل فإذا به **يقول**: أيها الإنسان الصغير الخائف الذليل؛ أنك لضعيف أكاد أن أركلك بقدمي، فتتدحرج من القمة إلى أسفل الوادي، وقد أرتعت.

وقلت له بلسان مختلج: ألم تعطني الأمان.

فقال: كيف لا أغضب على أحفادي الأقزام وهم يرعبوني أكثر مما أرعبتك؟

فقلت: وهل مثلك يصاب بالرعب؟

قال: **نعم**، لقد فاجأني الإنسان المتأخر بما يهز الجنان، ويفقد التوازن، ثم اتكأ على جانب من صخرة ضخمة أستظل بظلالها وصمت قليلا؛ فلما أمنت أردت أن أستدرجه.

فقلت: فكيف للإنسان الذليل الحقير أن يفزع العملاق الضخم؟

فقال: أول فزع لي حين نظرت إلي السماء، ففيها جرم له أزيز ترتجف الأرض منه وفيه أنوار حمراء وبيضاء.

فقلت: ما هذا الأمر؟ فلم يجف الرعب إلا بعد مرور هذا الجرم مرات متعددة لكن الرعب عاد لما استقريت في جبال اللوز وإذا بأسراب هذه الأجرام تغد وتروح على فلسطين وجوانب من مصر و لم أمكث قليلا ألا وقد اهتزت الأرض بالارتطام وتناثرت مكونات الجرم، وبعضها أشتعل نارا فانزويت في رأس شعب وفيه كهف؛ فإذا الناس يتقاطرون إلي مكان الجرم، فانسربت وراءهم، أسمع أصواتهم وهم يكررون اسم الطائرة؛ فأدركت أنها من صناعة هذا الإنسان الذي احتقرته وعزمت أن اتجه إلي فلسطين موطن الخيرات، ومصر بجانب البحر كما كان موسي يسير بجانب البحر وإذا بالأجرام والنيران تتنزل على المدن والمياه وكنت أسمعهم يقولون هي الحرب الثلاثية من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على قناة السويس عام ١٩٥٢ ميلادياً مكثت زمناً حتى تعلمت اللغة والمفردات الجديدة والمآسي البشرية من أثر هذه الصناعة المدمرة.

قلت له: ألم تركب الطائرات خفية؟

قال: وكيف أركبها وأبوابها أصغر من عيون أغنامنا وإبلنا؛ فكيف الولوج لها؟

قلت: لو ركبتها أنت لزادت أثقالها وأوزانها وتحطمت بك.

ثم قال العملاق: إن الرعب من إنسانكم لم يقف عند هذا الأمر بل كنت في قمة جبل فأقبلت الراعية بأغنامها فتمددت كأني صخرة كبيرة، وقد سمعت أصواتاً كثيرة، فالتزمت بالسكينة، وقد أقبلت الأغنام ووطأتني بأظلافها، وأقبلت الراعية قريباً من هامة رأسي، وقد خشيت أن تجلس فوق جبهتي لكنها وقفت، ثم

أتبعت أغنامها والأصوات التي سمعتها مع هذه الراعية و لم يكن معها بشراً آخر، فتعجبت من هذه الأصوات وأخذت أرقب الراعية؛ فإذا بها جرم صغير وضعته بجانبها، فأخذتني الرغبة في معرفته، فتارة تأتي أغاني، وتارة أحاديث وتارة قرآن، ثم أخذت أرصد المجالس فأسمعها، وإذا بهم يتحدثون عنها ويسمونها الراديو.

فقلت: كيف أمتلك مثلها وأنا أحوج ما أكون إليها في وحدتي وغربتي؟

ومن الغرائب المخيفة التي أفزعتني مع ضخامة جسمي أنني كنت في كهف؛ فإذا الصوت القوي يتحرك في بطن الوادي، فأصابني الرعب منه وأدركت أن سهمي لا يؤثر فيه ويفتك به وحرصت أن لا يراني أحد، فتجاوز هذا مكاني ولكنى اشتقت إلي معرفة أسراره، فاقتربت منه ليلا؛ فإذا الناس من حوله يصنعون خبزا لهم.

فقلت: هذا لمن منهم؛ فإذا هو لهم جميعاً وشبعوا وهو لا يتجاوز ثلاث لقيمات لِي، ثم اقتربت منها في ظلام دامس؛ فإذا هم يتحدثون عنها ويسمونها السيارة؛ فلما نام القوم طفت بها ولمستها؛ فإذا هي من حديد.

فقلت: هؤلاء الأقزام ينامون بجانبها ويركبون عليها ولا يخافون؛ فلماذا أخف لكنى أردت أن أعرف فائدتها وسرعتها، فمكثت غير بعيد عنها فنهض القوم صباحاً وحملوا أمتعتهم وسارت بهم وكنت أسير بجانبهم ولكنى أسرع من هذه السيارة ، فكدت أن أحملها بما فيها من القوم وأوصلهم إلى نزل بيوت الشعر، فأعجبتني هذا التي عوضت عن الإبل، والخيل، والحمير لكنى رأيت معاناتهم منها فهي ترتطم بالحجارة ويقفون عندها يوماً كاملاً وهم تارة ينزلون عنها في الكثبان الرملية ويتعاونون على دفعها ولا قدرة لهم، فأتدخل بأن أدفعها لهم ليلاً بحيث لا يشعرون وتارة أمدّ أَصَبعي لها وأحركها، وهم لا يشعرون لا سيما السيارات البيضاء صغيرة الحجم التي يسمونها الدتسن أو الونيت.

قلت له: فماذا ترى هذا التحول من الإبل والقوافل التي تحملها سيارة صغيرة؟

قال العملاق: الله قادر على تطور حياة الإنسان وهادى البشرية إلى آلات التطور، فإنني كنت أرى القوافل تحمل أثقالها والناس يسيرون بجانبها ويمكثون شهوراً في سفرهم وهم ينزلون ويرتحلون ويسيرون نهاراً وليلاً، وقد أدركت الامتزاج، فرأيت القوافل، وهذه السيارات النادرة تتجاوزهم، وتفزع الإبل، والناس يندهشون منها، ثم تحول الجميع إليها وتركوا الإبل في أقل من عشر سنوات.

العملاق

(٤)

مكث العملاق أياما لم يزرني في مرقاب رأس الجبل.

قلت: هل هاجر إلى بلاد أخرى أم هجرني إلى صحب آخرين، وبينما أجيل التفكير؛ فإذا هو شاخص أمامي، فاحتضنني كالطفل الرضيع.

وقال: أنا وحيد في هذا الكون لا صحاب ولا صاحبة وفضل من الله أن تعرفت عليك، فأنست بـك وأنت كذلك وكنت حاولت من قبل، فمنهم من قضي نحبه ومنهم من ينتظر ومنهم من ذهب عقله.

فقلت له: وأنا أنفض من حولي الأصحاب، فمنهم من تولى مع أهله ومنهم من أحرقته النفس ومنهم من استدرجته الغيبة والنميمة ومنهم من جفوته ولست أعلم ومنهم المنافس الحاقد الحاسد.

فقال: هكذا البشر من الأزل يجتمعون، فيفترقون، وتارة يتباغضون، وتارة يتقاتلون، فالبشر هم البشر قديماً وحديثاً، وقد بدأها قابيل، فقتل هابيل.

فقلت: إذن كلانا غريب الفكر، والنفس، وتارة غريب الديار، فالتقينا، وتعارفنا وسنمضي مع سـيرة الحياة، فأمّا موت يفرقنا أو خصام يباعدنا أو مجاعات تشغلنا.

وأردفت قائلاً: كم من مكائد أحدقت بك، وكم من مصائب ألمت بك، وكم نـوازل اجتماعيـة بأقوامك والأقوام التي شاهدتها من طرف خفي.

فقال: لو أحكى لك لبكيت أنت، ولبكيت أنا أكثر، فأخذ الدمع يتدفق من عينه.

فقلت: صبراً صبراً، إنك رجل عركتك الليالي والأيام، وأخذت منك الأهل والبنون ودمرت المنـازل، ونفقت الإبل، والبقر، والأغنام مما جعل المصائب تهون عليك بعدها.

قال: **صدقت**، ولكني أسرد عليك: ما تستدعيه الذاكرة أثناء الحوار.

فقال العملاق: سأسرد عليك حكايات ذات غرابة تمس معاناتي من الحياة: كنت تزوجت وأنا شاب يافع وعمري لا يتجاوز مائة وخمسين عاما بفتاة شارفت على البلوغ وعمرها تجاوز مائة عام، وعشنا حيـاة طيبة هانئة، فكنت أسعي وراء الصيد وأجلب لنا اللحوم، وتكاثر الأولاد، فتارة تؤمان وتارة أربعـة، حـتى استوطنا عدداً من الجبال والتلاع والأودية وأضحيت أبا لقبائل متعددة يلجئون إليّ وقت الخصام والمشـورات ويطيعون أمري، وأنا سعيد بذلك، وفي يوم من الأيام اكفهر وجه السماء وأصفر الفضـاء، وإذا العواصـف تتصاعد كأنها سحب وبداخلها حمم من النيران؛ فإذا بها براكين من الجبال الحمراء الـتي لا سـواد فيهـا، فأخذت وتُقذف الحمم من داخلها وأنت ترى الحرات والحجارة السوداء، فهي دمرت المنازل، وقتلت الأحياء

من الناس والحيوان بل عفت على المباني، وكأنها لم توجد، وقد كنت وكانت منازلنا بين جبال حمر، وأودية سحيقة، وغابات كثيفة، وبالقرب منا جبل وتر هذا الشامخ الذي تراه منذ ذهبت لقمته عام ١٤٢٨ هجرياً، وقد رأيتك وأنت مع صحبك وأنت تسير قليلا وتقف، ثم تجلس كثير، فداهمتنا تلك الأحوال الجوية المخيفة وانطويت في كهف بين صخور قمته أياماً وأياماً، فلما عدت لم أجد من يعطي الخبر لا بشر ولا شجر، فهلك كل ذي حياة وأضحت الجبال الحمراء سوداء من الحجارة البركانية.

أمّا أنا: بعد أن مكثت أياما لا يستطيع كل حي أن يتحرك حتى للأكل والشرب خرجت من الكهف وكان همي الأول كيف أجد ماء أو طعاما، قد أنهكني الإعياء، فأخذت أستعيد الحياة شيئاً، فشيئاً وحال أسرتي يداهمني، فكان الإعياء سبيلاً لهوان الصدمة الكبرى في الذرية والذراري، ومشهد كنت أرقبه، فحماني الله لأكون شهيدا أو لأبتلي به، فذهب الأهل كلهم والماء والتجأت إلي بقايا قوم صالح، فهم أقرب أجساماً وأحلاماً.

فقلت: كفي كفي؛ أن مصائبكم لعظيمة على قدر أجسادكم، وربما عقولكم ذلك مما جعلكم جبابرة تصارعون الأنبياء، والرسل، فلم تؤمنوا وربما أن هذا عقاب لكم، وقد ورثتم البشرية الإقتداء بالآباء في عاداتهم وتقاليدهم التي حرفت البشرية عن الأيمان والفطرة والتصديق بالأنبياء.

فقال: إن حكايات المعابد كثيرة في دياركم تكاد تراها في كل ربع وروض وسفح جبل وقمته أنها حكايات وحكايات تغضب الرب.

فقلت أيها العملاق: إنك شاهد على هذا الإنسان وتقلباته الفكرية وعدم خضوعه للحوار والعقلانية.

قال: نعم.

قلت: هل الناس مؤمنون من أعماقهم بعباداتهم؟

قال: إنها التبعية مفقودة التفكير، والإقناع وأن الولاء للبشر المسيطرين كان أكثر من التفكير وأكبر.

العملاق

(٥)

أيها العملاق: وأنا أنظر إليه وأقول بصدق إنه عملاق في جسمه وعقله وحياته.

قلت: إن ذريتك تجاورت في أودية وجبال.

فقال العملاق: حتى تكونوا بطوناً وعشائراً تكاد تتنافس، وتتصارع وتكاثرت الأموال من الإبل والخيل والأغنام حتى أصابني التعالي والعجب، فأنا عشت سلطاناً لهم، حاربنا قبائل أخرى للتنازع حول الأراضي والغابات وبين عشية وضحاها، فقدت الجميع ،فأنا ظللت مائة عام وحيداً وحزيناً أجوب الديار ولكن داهمهم الدمار.

كذلك أسأل فأقول: هل لك أن تحدثني عن طبيعة الحياة الاجتماعية كالمنازل؛ وكيفية الارتحال والنزول؟

قال: أيها البدوي سؤالك هذا يدل على عصر التصحر والجفاء، والضعف وقلة القدرة، نحن في عالم آخر غير الذي تعيشون فيه، فنحن لم نستخدم بيوت الشعر وخيامه، فهذه ربما تكون للدجاج وصغير الحيوانات، نحن نستخدم ظلال الجبال ونلجأ إلي الكهوف وتارة إلي الغابات الكثيفة السامقة في عنان السماء؛ **آه ما أجمل تلك الطبيعة**، كانت الينابيع والجداول لها خرير من الجبال، وتتدفق من العيون، كانت الأرض جميلة بأزهارها وظلالها وثمارها.

ألم تر أيها الباحث العاجز عن الحقيقة إلي أثار المزارع في الجبال ومحاضن التلاع.

قلت: **بلى**؛ فأني كلما سرت وقفت على أثر من أثار الإنسان القديمة لكن تداخل الأزمان جعلني في حيرة، فأرى وظائف متعددة لكل موقع أثري، فتارة أقول لماذا بني في بدايته وتارة أجد فيه آثار مقبرة ومرة أخري أجد معالم الرقابة فيه وتارة يُخيل لي أنها مخازن للأغذية، وتارة أقول أنها مساكن الأطفال، وكثير ما أجد مأوى للسباع، والضباع، والذئاب، وقد أستعملها أجدادنا لمبارك الإبل شتاء.

ثم أردفت قائلا: فهل أنت أدركت بناءها وما وظيفتها عندكم سيما وأنها لا تتسع لكم ولا لنسائكم؛ وقد كنت قبل رؤيتك أظنها غرف تستوطنها، ودعم هذا التأويل تقارب الأبناء من أبيهم؛ فكل ما بلغ الأبناء وتزوجوا بنوا لهم بنياناً في روض أو شعيب ليس بالبعيد عن الأب.

قال العملاق: أنا عايشت مراحل هذه التطورات من قبل، فنحن نقوم بتشذيب الحجارة ونبني منها بناءً، وقد اهتدينا إلى أن تقوم السقوف من صميم الحجارة ذاتها لها نظام بناء خاص تتواصل حتى تقترب وتكونُ سقفا، ونحن نمتلك قدرة جذب الحجارة من أماكن بعيدة وتارة نشذب الحجارة الصلدة.

ألم تري الحجارة السوداء التي تكونت منها المدن وهى مصنعة.

قلت: بلى.

وقلت: ما هي الآلات لتلك الصناعة؟

قال: هي الحديد ألم ترى إلى بعض الجبال وتحتها أنفاق كبيرة، ومعالم الآثار والحفر بل الحجارة المستخرجة من الباطن.

قلت: رأيت ذلك.

ثم قلت: لعلنا نتعرف على أسباب وجود هذه المباني في أعالي الجبال والمطلة على الأودية.

قال العملاق: أنت لا تنظر إلى التكوين الأرضي كما تراه، ففي أيامنا لا وجود للأودية العميقة هذه؛ إنها تكونت نتيجة جرى السيول، أماَ في العصور السابقة ، فالمباني مطلة على مجارى المياه وأكثر المزارع أو أشجارها مثمرة بطبيعتها، ألم تسمع بالتين البري وشجرته الحماط، وقد تضاءل حجم الشجرة، والثمرة.

قلت: **بل**؛ وقد شاهدته وأكلت من ثمرة، ومثل الزيتون، والأشجار الحمضية، وأشجار لا آثر لها تنبت الثمار والخضار والحبوب، فحبة القمح تعادل حبة الحبحب، وحبة العنب تعادل التفاح، وقد ذكر المؤرخون العنب التبوكى الضخم.

فقال العملاق: أنا أدركت ذلك وأكلت من تلك الثمار.

فقلت: معناها أنها تماثل أرض اليمن السعيد قبل انفجار سدَ مأرب.

فقال: كنا نسافر من صنعاء إلي بيت المقدس لا نحمل زاد ولا ماء، ولا نارا، فالنار تأخذها في شهاب والأكل في كل ناحية والقرى متواجدة.

قلت له: تشعر بالمأساة، والألم بفقد تلك الخيرات، وتصحر الأرض، ونضوب الينابيع، وفقدان المزارع.

فقال: أنها سنن الحياة والذي جعل الأمر أهون هو التدرج في هذه المراحل، وقديماً عايشت التطور من الاستقرار إلى الارتحال، ومن التحضر إلي البداوة تماماً؛ مثل أجدادنا الذين قصرت أموالهم وأعمارهم ومات الكثير منهم جوعاً ومرضاً، وفتكاً وحرباً حتى أنهم يفتقدون الإنسانية، فيقتل بعضهم بعضا لأجل بئر ماء أو حائط أو لقمة عيش أو ناقة ضالة.

قلت أيها العملاق: إنك مخزون فكرى لعلى أحاورك كثيراً، فقد داهمني الإرهاق، فالنفوس والعقول ضعفت مثلنا مثل أجسامنا.

العملاق

(٦)

خشي صاحبي المعمر العملاق أن يراه أحد، فطلب مني أن أصل إليه في شعب منحدر من الجبل قلّ من يرتاده، فالتقيت به الساعة الخامسة عصراً، فأنا أخشى أن أقابله ليلاً واختلج في نفسي جهلنا بعاد ومساكنهم.

فقلت: لعلى أجد في الرواية الشفهية ما يزيد معلوماتي ما ويثري المعلومات التاريخية.

فقلت له: هل من أساطير عندك عند قوم عاد والأحقاف؟

قال: تلك عجائب الدنيا، فتباهى أنه من أحفادهم.

وقال: كان جدي معمراً صحبته في صغري وتقدم سنه وما يفتأ يترنم بالحكايات حول أحوال الأرض زمن العماليق.

فقال: كانت الصحارى التي تخشونها لقلة الماء، كانت مروجاً خضراء، وغابات متكاثفة، ومدائن متناثرة، ومزارع شاسعة.

وأردف قائلا: إن أجدادي من العماليق، وكانوا أقوى الرجال، وأطول البشر، وكانوا الأقوى تحملاً، وكانوا الأطول خطوة، وكانوا يجوبون المعمورة على أقدامهم، وكانوا يختارون صيدهم، فيلحقونها سواء بقر وحشي أو الحمر الوحشية، أمّا المها والغزلان يرونها كما نرى الطيور من الحمام والحجل صغيرة وسهلة الاصطياد وهم بنوا الدول؛ فقد كانوا أشد الناس حرباً، وأكثرهم أموالاً، وأكثرهم أولاداً، كل منهم يمتلك آلاف الإبل والبقر ولا يحصى من الأغنام.

قلت له: **مهلا مهلا**؛ هل كانوا يجرفون الرمال في حسمي وبسيطاء (صحراء النفود) ويزرعون ويبنون في أحضان الجبال وأطراف المزارع؟

قال: **بل**؛ لم تكن هناك رمال، أنما هناك تلال ليست من الرمال و لم تعرف بهذه الرمال التي تعرفون، بل أرضهم قابلة للزراعة وتجرى فيها الأنهار وتنبع بالعيون وكان الرجل يزرع حولها فسرعان ما تنبت، وكثيراً من فاكهتكم تنبت بلا زراعة وهناك أنواع الأشجار ذات الثمر اللذيذ التي اندثرت، فلم أر لها وجود على موائدكم التي أنظر إليها في خفية.

قلت: الغابات كثيرة عندكم؛ فكيف تعيشون في وسطها؟

فقال: أنتم أقزام نحن نرى الأشجار السامقة الممتدة طولاً كما ترون أشجار العنب والحمضيات.

وقال: إن قومي يرون ما وراء الأشجار، فأطول الشجر لا يبلغ أكتاف الرجل أو المرأة.

قلت له: كيف تأكلون وتلبسون؟

فقال: أحدنا يأكل الحاشي، وبقرة الوحش لوحده، وقد أكثر الله منها.

قلت له: هل تستطيع الإبل حملكم وهل تركبوها؟

قال: لا شك؛ أن قوة القوم على السير أمر لا ريب فيه ولكن أبلنا غير أبلكم القزمة الصغيرة، ألم تـــر للرسوم والنقوش على الصخور إنها صورة مصغرة لأبل أقوامي السالفين، وكل شيء أخذ يتصـــاغر عنـــدكم ولست أدرى؛ هل هذا تعذيب لي أن أرى تلك المراحل أم هو عبرة وابتلاء لي؟ فالنـــاس قصـــرت أطـــوالهم وأعمارهم، والمياه نضبت أنهارها وجداولها وعيونها، وقد كنت أقف على تلك الأنهار والجداول وازرع حولها وابني دياراً ودياراً حتى الجبال ظهر عليها التصدع ومعالم القدم، فهي باهتة وأمور أخرى حين أتأملها أقف أمام إرادة الله كثيراً استدلالاً **بقوله: {وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْـــهِ تُرْجَعُونَ } [القصص: ٨٧، ٨٨]**.

هذا التناقض في كل شيء لا يدركه إلا من شهد مراحله، وأظن أني أكثر البشر شهيداً علـــى هـــذه المراحل.

وقال العملاق: فأنا أنكرت رسالة الرسل، ثم آمنت بعدد منها في مراحل حياتي الأخيرة، وكان أكثر ما عايشت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقلت: لماذا؟

فقال: لطول عمري وامتداده وكوني شاهدت مراحل الرسالة أمر مهم جداً أني تعلمت قراءة القرآن، فالقرآن هو الرسول الدائم معي ومع كل من يدرك ذلك.

قلت له: **بربك**، كيف تبنون دوركم ومنازلكم؟

قال: إن الرجل يبنى أكثر من عشرة دور، فالبيوت تبنى من الطين أو الحجارة ولا تلبث خمسين عامـــاً حتى تندثر ولا تصلح للسكن، فيبنى كل منا داراً أخرى وهكذا في عمره الذي يقارب ألفي عام.

قلت: إني أطوف على ضفاف الأودية، فأجد معالم الحجارة وإن كانت متفرقة لكنها مصنعة وكذلك سفوح الجبال، والجداول في الأرض المنبسطة.

قال: ذلك استقراء للتاريخ جيدً ولكنى قمت بالعمل والبناء وسكنت، فأنا أكثـــر منـــك مصـــداقية وواقعية.

فقلت له: ما هذه الدوائر في سفوح الجبال الممتدة في جبال الحرة بل في كل جبال الســـروات مـــن الجنوب إلى الشمال؟

قلت: هذه مزارع ومباني؛ ولماذا هي مملوءة بالحجارة من جنس الجبل؟

قال: إنها أمتلئت بفعل طمي وحمم البراكين، فالجبال الآن غير الجبال، والأرض غير الأرض.

ثم أردف قائلا: كم غيرتم من معالم الأرض حين تعمرون وحين تستخرجون من بواطن الأرض؛ وماذا عملت مطاحن الحجارة في بطون الأودية أنكم غيرتم واجهة الأرض؟

قلت: إن حياتكم عجباً وكم أذهلتني تلك المعالم حين أتأمل وظائفها واستخداماتها والآن قرب المساء فإلى لقاء، فلا أستطيع أن أمكث معك ليلاً فأنت رهيب رهيب...

العملاق

(٧)

التقيت بالعملاق في اليوم التالي **٣ ذي الحجة عام ١٤٣٥** هجرياً وكنت مشحوناً بسؤال العملاق عن مصير العماليق، وقد طرأ على حين، **قال**: في محادثة سالفة إن الربع الخالي كان مروجا خضراء، وأرضاً منبسطة لا عوج فيها ولا أمتاً ما عدا بعض الهضاب الصغيرة، والجبيلات الممتد بعضها، وتلال ذات حجارة ورمال.

فقلت له: كيف تحولت إلى جبال من الرمال وتلال طويلة ممتدة وأحواض رملية يهلك فيها كل من حاول الاكتشاف أو تاه في أطرافها فاعتدل جالساً، وقد اعتراه النافض كالجبل الذي اعتراه الزلزال.

فقال: أدركت جدي المعمر وكل جد كنز من المعرفة والتجارب والحكايات اللطيفة: وكنت وصحبي نتحلق حوله في ديوانه الليلي نستمتع لقصصه الممتع المليء بالتجارب، وقصص الحروب والغزوات، والمواقف الإنسانية والعدوانية وحكايات الجن والأنس والحكايات المأسوية إننا نعكف عليه منصتين.

ثم أردف قائلاً: كان مما حكي لنا عن أحوال قوم عاد وأهوال أعمالهم وحروبهم وخوارقهم وقدراهم وكونهم جابوا المعمورة واستعمروها وملكهم هو أحد الأربعة الملوك الذين ملكوا سائر الأرض، وكان جدي إذا ذكر أقوام عاد: **يبكي ويبكي**، وتخضل ذقنه، فتارة يبكي على أمجادهم وعظمائهم وتارة يبكي من الروع والفزع من حكايات النهايات والهلاك.

فقال: إنهم قوة بشرية وعقول جبارة وأجسام عملاقة، وكانت الأنهار تجرى من تحتهم والسماء ترسل عليهم مدرارا، فهم ينعمون في خيرات ويملكون الأموال الأكثر من أموال قارون حتى بلغوا من الترف ما لم يبلغه غيرهم، فطغوا وبغوا وكفروا بأنعم الله، فلم يحفظوا حرمات الدماء والأنفس، وشاعت الفاحشة بينهم وعصوا التوجيه الرباني وتمردوا على عقلائهم وحكمائهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر بعد أن أنذرهم الأنبياء والرسل، فداهمتهما العواصف، والقواصف وتوالى عليهم يوماً كاملا، وكانوا رجال عماليق كالجبال الراسيات، فلما أشتدَ الهواء نادي منادي الملك أن تحدو هذا الهواء وقفوا حواجز بين الرياح وبين المدائن والمزارع كل قوم يحمون قراهم، واصطفوا حول القرى واستدبروا الرياح واتجهوا إلي مدائنهم، واستمرت الرياح الهوج تهز الأرجاء، واكتست السماء بصفرة التراب وأضحى صرير الرياح يصم الأذان، ويعمي الأبصار، ونزلت الأتربة كأنها الأمطار، فاختفت النباتات القصيرة، ثم أختف نصف الأشجار وثقلت السقوف والسطوح بالأتربة ففقد الأمهات الأولاد وأخذن يجرين ويبكين كل واحدة باحثة عن أولادها وأسرعت الأم تدور في الأفنية، فيسقط وليدها فتحاول أن تساعده على الوقوف فيسقط معها وكل فتاة ترى أمها كذلك فتسقط بجانبها فترى النساء متمددات فلا تلبث يومها حتى تكون تحت التراب لا ترى لها معالما.

والصريخ والعويل يملأ المكان وتأثرت خياشيم القوم وعميت أبصارهم، وتساقط الكثير منهم غماً وحزناً وألماً وأغمائاً، ثم تساقطت أجسامهم، فلم يلبث أحدهم أن يهلك وهم ينظرون، وأخذت الإبل تحن حنينا جماعياً وتخور الأبقار، وتصهل الخيول، ويتثاغى الماعز، وتنبح الكلاب جماعياً، وتنهق الحمير جماعيا وتعوي الذئاب بصوت شجي، وتساقطت الطيور من السماء وارتجفت الدنيا كلها والأتربة تصب صباً، والصواعق تقصف قصفا والظلام يتراكم بعضه فوق بعض.

وملكهم شداد، قد ألتحق بهم خشية أن ينفض القوم، ويدعوهم للثبات ولكن تتابع سقوط القوم بعد ثلاثة أيام لم يكن عبرة للبقية الباقية، فصمدوا متحدين و لم يتضرعوا لله خاشعين، فتزايد الصرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، واختفت معالم الحياة ومعالم الدور ومعالم الأشجار.

والملك ينظر المشهد العظيم، وتساقط كل من حوله، فظل يصارع الريح مدة عبرة وعظة وعقاباً له حتى سقط صريعاً، فيروي صاحبي عن جده إن هذا الكثبان والرمال تكونت في سبعة أيام، واندثرت الأمة الغالبة، فكانت مشاهد يرويها المجاورون لهم ويتناقلونها عبر الأجيال، بل كان يفد إليها كل من رأى المدن والعمران والملك قبل الدمار ليرى الأرض، وقد طوتهم تحت أكناف ترابها.

وقلت له: ما هذه التلال المرتفعة؟ ولماذا تلك الأرض منخفضة؟

قال: ذلك لأن تحت التلال مدناً ومباني وأما المنخفضة، فهي مزارع وغابات.

قلت له: إننا في زمننا اكتشفنا النفط في باطن أرض الأحقاف ويقول العلماء إنها نتيجة تراكم الأحياء والأشجار.

فقال: إن ما كان تحت تلك الرمال من البشر والشجر والحيوان وتراكم تلك الأنواع عبر حقب التاريخ لحري بذلك.

قلت: إنها تمثل قدرة الجبار، وعقاب الكافرين الأشرار وتكون مواعظ للأمم بعدهم، فإن لكل أمة ميقات، وهى مرحلة من مراحل التحول إلى التصحر.

قال العملاق: هي كذلك، والحمد لله على معرفتي لذلك مما جعلني دائم التدبر في ملكوته.

قلت: نعم العبادة تلك.

العملاق

(٨)

قلت لصاحبي العملاق: نريد أن يكون حوارنا في هذه الجلسة حول فلسفة الفكر عند الأقـــدمين أو لنقلُ عند الإنسان الأول عبر قرونها، وكل منهم عاش قرنا والإنسان، وكل إنسان اقتبسه من آبائه ومن تركيبة مجتمعه له مبادئ يؤمن بها، وله من منهج يسير في إطاره.

قال العملاق: أنت تدرك أن هناك مكونات جسمية، وغريزية، وروحيه، وسلوكيات حتمية، وظواهر حركية تتماثل في كل البشر.

قلت: وهذه معالمها ظاهر بيني وبينك مع تباعد العهد واختلاف البيئة والمكونات الفكرية، فأنت تأكل وتشرب، وتحب وتكره، وترضى وتغضب، وتمشى وتجلس، وتستيقظ وتنام، وتحب الأهل والولـــد، والمـــال والجاه، وأنا كذلك ومن يعاصرني من البشر.

قال: **هكذا خلقنا الله**، وخلق فينا الغرائز البشرية الخفية التي تتلاحم مع المظاهر الجســـدية والـــروح وتتولد النفس البشرية، ثم تولد الحركات والسكنات.

فقلت: كيف الاختلاف والصراع والتحاسد؟

قال العملاق: ذلك من حكمة الله لنا نحن البشر، **أنسيت أننا مكلفون ومبتلون ،ومختبرون وعائشون في الدنيا، وعائدون إلى الآخرة.**

قلت: وهل تتشابه الأحوال منذ القدم حتى الأزل؟

قال: **نعم**، ما دام المكونات وجذورها في كل جنين ومولود، فإنها تتماثل في مكوناتها الأساسية **مثـــل** المشي على الأقدام ولكن تختلف هيئة المشي من إنسان إلى إنسان، لاختلاف المقتدى بهم، وكـــذلك تختلـــف المثيرات الغرائزية، فتختلف الرغبات وتتفاوت وإن تقاربت مع بعضها؛ وقال رب العزة: **{ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُـــوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَـــدِيرٌ } [البقـــرة: ١٤٨].**

قال العملاق: ولكن الانحراف والطغيان والجحود ملازمة للبشرية مع أن الحكمـــاء يـــدعون للخـــير ويصلحون، والرسائل تترى لهداية البشر، والأنبياء والصالحون يصحبون الأمم في غابر الأزمـــان، والأبحـــاث تتنوع في عالمنا المعاصر والعلماء يقذفون بنظرياتهم.

إنها عالم الفكر وعالم القيم وعالم السلوك التي لا مناص منها، ولا ريب في حدوثها.

وأردف العملاق قائلاً: ولم اتفق مع الغابرين الذين عايشتهم في كل أفكارهم ومعتقداهم كما أنك لن تتفق مع المعاصرين في كل آرائهم ونظرياهم ولن نتقارب أنا وأنت مع امتداد الزمن حتى ولو تقاربنا في مرحلة الشيخوخة وإن اختلفت الأعمار، والحمد لله الذي بارك لي في قواي عبر القرون.

قلت: وما البدء الآخر الذي يؤطر حياتكم وفكركم؟

قال العملاق: العملاق الفكري الذي يعترى كل البشر **هو** الدين والتدين، فكل واحد من البشر يحمل ديناً؛ فالدين في نظري غريزة.

قلت: وكيف كان غريزة.

قال العملاق: أليس الله هو خالق البشر والشجر والمطر وكل خلية من الخلايا أو شعيرة دموية أو كرات حمراء وبيضاء أو قوة روحية أو عقلية أو جسمية أو نفسية ذات وشائج من خالقها، فهي جنوده وأمره ينفذ إلى كل منها ولا قدرة للإنسان أو الحيوان أو الشجر على إصلاح ما لم يرده الله؛ فإن هذه التي ذكرنا والتي لم نذكر بل الخافي أعظم كلها موحدة للرب، فالفطرة تغلب ولكن الإنسان تعتريه مكونات تجعله يكفر أو يتردد أو لم تأته المعلومات أو تكون الديانات يوظفها الطغاة لصالحهم.

فقلت: وهل الملحد متدين؟

قال العملاق: **نعم**، أهم متدينون ألم يستحوذ عليه الشيطان ويعبدون القبور والتماثيل ويصنعون الأصنام، وبعضهم يعبد الفكرة ذاها كمثل أنصار الشيوعية في أزمانكم الحديثة والهداية من الله **فقال عز وجل**: **{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ١٧٨]**.

قلت: هذه تنافي الإرادة.

قال العملاق: مازلت تأخذنا إلى الفلسفة العليا.

قلت: أريد أن أكتشف فكرك وأنال العلم منك.

قال العملاق: أريد أن أبسط لك الأمر، فأنتم تصنعون الآلات وتدركون نتائجها وأعمالها وأعمارها وحدودها المكانية وحدودها الزمنية، ألستم بصواريخكم وغواصاتكم وطائراتكم الحربية تعرفون دقة الهدف ودقة المكان ودقة الزمان.

قلت: **بلى**، فالأمر من صنع الإنسان ولكنها بهداية الرحمن.

قال العملاق: فالله يعلم مكان وحدود ما في السموات وما في الأرض ويعلم مسيرة حياة الإنسان ومسيرة فكرةْ فهل الإنسان شاكر أم كافور والله ألهم النفس البشرية؛ فقال الله: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} [الشمس: ٧، ٨]**.

فالله عنده علم البداية وعلم المسيرة والإحاطة بها وعنده علم النهاية.

قلت: وهل أقوامك يستشعرون هذه القيم؟

قال العملاق: كل منهم يعمل على شاكلته وربهم أعلم بمن هو أهدى سبيلا.

قلت: أنت تتميز بنظرتك الشمولية لحراك المجتمعات فما آثر تلك الأفكار المتفرعة من التدين على المجتمعات من ناحية الفجور وغلبة الشهوات والرغبات والعفاف والمرؤات، والتمرد على القيم.

قال العملاق: إن التمرد على القيم، يطغى في الأزمان الغابرة لما ينعمون به من الخيرات التي تولد الرفاه وتولد النزوات الفكرية والدينية، ثم تولد الفجور والانفجار على القيم، وهم يقتلون المصلحين والأنبياء والرسل، فكم من رسول قتلوه وأحياه الله ، ثم قتلوه وأحياه الله مرة أخرى وهم لم يتعظوا و لم يعودوا لرشدهم.

قلت: هل عندكم شيوع التعري كما في الغرب والشرق والتمرد على الأسرة؟

قال: أمّا التعري الذي أراها عندكم الآن فهو من مبتكرات عصركم، فلما يكن تعري جماعي في المصايف والمتنزهات وفي أجهزتكم التي أراها عندكم في تلاعكم.

وأردف العملاق قائلاً: هناك الملابس التي لا تخفي الشعور والصدور، وهناك الانفلات والسلوكيات المخلة بالشرف وربما يغض الطرف عنها المجتمع والأفراد.

قلت: أنكم تذكرون المروج الخضراء والترف وعالمنا يمتلك أكثر منها والأديان تحض على التكافل الاجتماعي والدول الأوربية والأمريكية تعمل على التكافل الاجتماعي بأنظمة صارمة وتبيح الحرية؛ **قال الأمر هنا**: يرجع إلى أباحة الحرية غير المسئولة لذاتية الفرد، فهي التي كانت محظورة في المجتمعات القديمة وكم من حروب طاحنة اشتعلت نيرالها بين القبائل من أجل مغامرات رجل وتارة من غواية النساء، فالإنسان تارة تجرفه الرغبة وتارة تمنعه الرهبة.

قلت للعملاق: هل هذه الحروب دفعت إلى بناء صناعة آلة الحروب؟

قال: **نعم**، بل تجاوز الصناعة إلى توالد أفكار الطيران.

قلت: أذن محاولة الطيران قديمة عند الإنسان.

قال العملاق: سمعت أن النمروذ بن كنعان، حاول الطيران ليقاتل الله في السماء.

قلت: هذه حادثة غريبة.

قال: أتى النمروذ بأربعة من الباز الشديد الطيران، وصنع تابوتاً يحمل اثنين، وجعل له فتحات إلى أعلى وإلى أسفل، وحبس الباز عن الأكل أياما، ثم أتى بالباز وربطه كل واحد منها في زاوية التابوت، ثم وضع فوق كل باز لحوم فوقه لحوما بعيدة عنه إلى أعلى، ثم دخل النمروذ وصاحبه الوزير في التابوت وأغلق بإحكام وطار كل باز ليتناول اللحم، فارتفع التابوت.

وقال النمروذ لوزيرة: هل ترى السماء؟

قال الوزير: أراها كما كنت أراها من قبل بعيدة كل البعد.

قال: أنظر إلى الأرض.

قال: إنها بعيدة عنا يحول السراب بيننا وبينها، فمكث زمننا والباز متابع لطيرانه.

فقال: لوزيره أنظر إلى السماء فنظر كما كان ينظر إليها من قبل بعيدة كل البعد.

ثم قال: أنظر إلى الأرض، فنظر فإذا هو لا يرى الأرض ففزع الوزير وأغشى عليه، ثم نظر الوزير مرة ثالثة، فلم ير الأرض ففزع فمات، ورمى نمروذ بسهمه إلى السماء، فاغراه الشيطان بنقطة دما، فواصل الطيور الارتفاع حتى فقدت وعيها ، فأخذ التابوت يهوى إلى الأرض فسقط في بحر ونجا الله النمروذ فخرج من التابوت، وقد تغير لونه وشاب رأسه وابيضت لحيته فعاد، فلم يعرفه قومه وكادوا يحيلوا بينه وبين ملكه لأنهم لم يتأكدوا من كونه نمروذ أو غيره.

فقلت: إنها محاولة جريئة تدل على خيال واسع وإن كانت تحمل كفراً وطغياناً لكن فكرة الطيران هي فكرة مبتدعة.

العملاق

(٩)

تأخر العملاق للحضور في تمام الخامسة عصراً.

فقلت: ليست من عادتك.

فقال: إنني أطلت التفكير في موضوعنا بالأمس استعداداً للقائك، فأخذتني غفوة الذئب لساعتين.

فقلت مداعباً: ما شاء الله–، ساعتان غفوة ذئب.

فقال: إن للنوم سلطان، والنوم راحة للأنام وتجديد للزمان، وامتزج للأفكار بما مضى من أثر الحوادث والخواطر والمشاهد.

فقلت: إنك فيلسوف متأمل، ولعلك اهتديت إلى المؤثر الثاني الكبير في حياة الأقدمين من البشر.

فقال العملاق: لعلى أستنبط كما يستنبط علماء الفقه أو الفلسفة، فقد رأيت أن العامل المؤثر في تلك الأمم البدائية السالفة إنما هو الانبهار و الذهول والإعجاب، فالبشر جل البشر يعيشون على الفطرة وينشغلون بالعمل والمعاناة فعملهم يدوى، وتفكيرهم فيما يحتاجون من ضروريات الحياة وكمالياتها الميسورة، فهم مكتشفو البدايات الضرورية للحياة التي ما زالت مستخدمة في حضارتكم المعاصرة.

قلت: وما علاقة ذلك بالانبهار الذي جعلته يحتل المرحلة الثانية، فالغرائز أولا والانبهار يحتل المنزلة الثانية.

قال: أن خلو الفكر الفردي والجماعي من المبادئ يفسح المجال للإعجاب بالخوارق غير المألوفة، وبالكرامات على الأنبياء والصالحين وما أكثرها بل تأتي الأحلام لكثير من البشر وهناك الانبهار للقوة البشرية للأمراء والسلاطين، وهناك الانبهار بالكهنة والسحرة، وهناك الانبهار بالأموال والثراء والترف وهذه كلها تستحوذ على الأحاسيس العامة من الشعوب وسائرهم كذلك، فكل منهم يتكاثرون في أودية وجبال وجداول وواحة جديدة متباعدة عن الآخرين، فهم يبنون بكل ريع وشُعب وهم في عزلة عن الآخرين، فالتواصل قليل ووسيلتهم المشافهة، فهم غرباء بسطاء عائشون في البدائية، مما جعلهم يقتنعون بكل فكرة، ويخضعون لها وتؤثر في مسيرة حياتهم.

قلت أيها العقلاني العبقري: إن قولك هذا يذهلني لكنه لا يقنعني؛ فهو يؤدي إلى معالم نظرية و لم يبلغ التجارب، والأمر يحتاج إلى إحصاء واستبيان وبحث ورصد وتمحيص.

فقال: كل إناء بما فيه ينضح أنت تريد أن تعامل التاريخ البدائي بعلم التاريخ المعاصر لكم؛ الذي يقوم على ما تقوم به التجارب العلمية.

قلت: صدقت، فمن أين اقتبست علم الفلسفة وعلم التاريخ؟

قال: من كثرة الجلوس خلف العلماء في ظلمات الليل، وتارة في أسفارهم وهم على أبلهم وخيلهم، وتارة اختفي بوسائل متعددة منحها الله لي والآن استرق السمع لعلماء التاريخ في ندواتهم ومحاضراتهم ومكتباتهم وهم لا يشعرون، فأنا مغرم بالتاريخ.

قلت للعبقري: هذا حظك في هذه الحياة وهى ليست بالسرقة إنما نتيجة التكوين الجسماني وامتداد العمر.

وقلت: الواقع أنك موسوعة لعلنا نحصد القليل الأقل من تجاربك ومشاهداتك، فأنت شاهد القرون الممتدة، ولعلنا نعود إلى الانبهار، فأنا في شك من أمري.

قال: إن حكايات الانبهار كثيرة في الأزمان الغابرة، وأحكي وأسرد منها: الانبهار بالناقة التي تشرب الماء أجمع، وتروي بألبانها العماليق قوم صالح أجمع أليس من الانبهار معجزات موسى، ومعجزات عيسى عليهما السلام.

أليس من الانبهار افتراق أليم ذلك البحر اِلذي أنفلق بقدرة الله وأمره بضربة من عصى موسى، هذا الانبهار الكبير الذي يحق للعقل أن يصدقه لكن الانبهار بعجل السامري الذي صنعة من الذهب بمجرد أن خار فيه الشيطان أو الهواء ذلك دليل على بدائية القوم.

وقال المعمر العملاق: نعم، هناك انبهار غوغائي يغري الشعوب العامية ومن الانبهار الفردي حكاية.

وقال: مرثد بن عاد الرجل العقيم وكان يتمنى أن ينجب، فلما سمع بهود وصلاحه اختلج في نفسه هاجس الإنجاب، فلما واقع زوجته إحدى الليالي حلم ببشارة من هود، فلما أصبح آتى هود.

وقال: أخبرني بما في نفسي ووقع لي البارحة.

فقال هود: أنت ضاجعت أهلك، وحلمت أنها حامل، وقد رأتني في الحلم.

فقال مرثد: أخبرني هل حملت؟

قال هود: نعم، حملت بولدين ذكرين يكونان من أمتي، وسيخرجان من بطنها سليمين مؤمنين، وستلد لك عشرة أبطن في كل بطن ذكران، ويكونان من أمتي، فوثب مرثد وقبل رأس هود، وآمن به وكان من أصحابة المقربين.

وقال العملاق الانبهار: هو وسيلة التصديق بالسحر والأصنام وقيام المعابد الشركية المنتشرة في المعمورة، حتى نحتها أضحى لمن بعدهم يولد الانبهار.

قلت: هذه أمسية فكرية قديمة.

فقال العملاق: أليس الانبهار ما زال يعمل عمله في عصوركم المتأخرة وإن خفت وطأته: أليس في قوة أمريكا انبهار، أليس في دقة عملهم وأبحاثهم انبهار إنه يبهر بطرق عقلية وهذه نتيجة التراكم.

لكن الانبهار الضار هو ما يفعله الأعلام لديكم وهو من يفعله لاعبوا الكرة وغيره وغيره.

قلت: والانبهار هو الجذوة الأولى التي ولدت الحضارة الحديثة في مصر والدول العربية، فـإن الحملـة الفرنسية على مصر ولدت الانبهار بالمختبرات وعامل النظام والنظافة، ثم انبهر بها رفاعة الطهطاوي في رحلته إلى فرنسا وتتابع الانبهار وله الأثر الإيجابي والسلبي، وهكذا يسير المتضادان والمفارقتان جنبا إلى جنب.

قال العملاق: إن كثيرا من أعمال أجدادي العماليق ما زال الانبهار الذي ترتحلون لـه في رحـلات علمية وسياحية ويتكاثر العدد المتنقل من البشر في مراحل الأمن والرفاه ويتجاوز عددهم الملايين كل عام وهم يقفون منبهرين ويتصورون مع آثارنا القديمة.

وقال: عليكم الاعتراف بأفضالنا.

قلت: يا صاحبي والله إنها لمذهلة مبهرة نمكث سنين ونحن عاكفون على أحدها في شعيب أوتل.

العملاق

(١٠)

قال صاحبي العملاق: سألتني عن المحركات البشرية للحياة الأولى وتحاورنا حول بعضها واليوم لعلنا نتحاور حول ركن أساسي من أركان التعامل البشرى تلك هي التقليد والاقتداء.

قلت: كيف يكون التقليد والاقتداء من المؤثرات الكبرى في المسيرة الإنسانية؟

قال الخبير المعمر العملاق: أولاً لعلنا نُفرق بين التقليد والاقتداء؛ فالتقليد في الأمور المحسوسة المشاهدة الظاهر للعيان؛ وأمّا الاقتداء فهو في الأمور المعنوية في القيم وفي السلوكيات تارة تكون في الخير وتارة تكون في الشر.

قلت: وهل التقليد له ضرورة حتمية؟

فقال: **ثكلتك أمك**؛ هل استطعت أن تسير على أقدامك لولا أن ترى من حولك؟

قلت: هل سمعت أو رأيت بشراً يمشى على أربع أو رأيت أنسانا يأكل يدع يده ويأكل مباشره بفمه؟

قال العملاق: **رأيت**، ورأيت الكثير من هؤلاء البشر تراهم حيوانات يسيرون مع الأنعام ومع الوحوش لأنهم لم يروا الإنسان السوي ويقلدوه، فلو لم تر أقاربك يحلقون رؤوسهم ووجوههم لما فعلت، ولو لم تراهم أمامك وقوفاً لما وقفت، وكذلك الأكل والشرب ،وكل ما أشترك البشر فيها من مكونات الأجسام ووظائفها.

وقال العملاق: ويلحق بذلك إشعال النار، وبناء الدار وبناء الخيام، فالتقليد ضرورة حتمية لمن أراد العيش، قد ألهم الله آدم كثيراً من الضروريات حين روضه الله على المعايشة في الأرض، فألهمه بناء الدار، وعلمه إشعال النار، والحرث، والحلب، وصناعة الخبز، وكان الله يأمر ملائكته بعمل الكثير أمام آدم وزوجته حواء وأولاده.

وقد قص علينا الأوائل كثير من حكايات التقليد ومنها أن قابيل بن آدم لما قتل أخاه هابيل تركه على الأرض، فبعث الله غرابين يقتتلان، فقتل أحدهما الآخر، فأخذ يحفر الأرض واسقط أخاه الميت فيها، ثم دفنه فقلده قابيل وحفر قبراً فوارى أخاه فيه.

فقال تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: ٣٠- ٣٢]

إن التقليد وهو التعامل الحسي يوفر على البشرية كثيرا فهو علم يتناقلونه وهو مصدر كثير من المعارف المعاصرة، وهو يفتح باب التطوير والاكتشاف والتغيير ويكون قاعدة للتراكم العلمي.

قلت: عساك لم تسمع بالمعاصرين وهم يشتمون فكر التقليد بأنواعه ويرون أنه الفكر الميت.

قال العملاق: إنهم لم يمحصوا بين أنواع التقليد.

وقال العملاق: أمّا الاقتداء فهو مصاحب للتقليد يسيرا جنباً إلى جنب، فالإنسان يقتدي بمن حوله في قيمه الدينية وقيمه السلوكية وفي كلامه وفي تجاربه ومن هنا ظهر الاقتداء بالأنبياء والرسل وهذا هو الاهتداء والهداية أو الاقتداء بالآباء والأقدمين له أو المعايشين له تارة بالحكم وتارة يقتدون بهم بالطغيان والكفر، فتغلب عليهم عاداتهم وتقاليدهم وترسخ في نفوسهم؛ فيصعب اقتلاعها منهم أو اقتلاعهم من مجتمعه.

والاقتداء والاهتداء صحب الإنسان في مراحله الأولى منذ آدم عليه السلام، فبعثه الله رسولاً نبياً بعد أن تكاثر أولاده وافترقوا في الأقاليم وافترقوا في الإيمان والكفر والحسد والتباغض واعتزل قابيل أبيه، فعصاه وعصى ربه الذي أنعم عليه بالأولاد وفضل الجمال وبركة الزرع لكنه بخل حين أمرهما الله بالقربات، فأختار هابيل أفضل أغنامه، فذبحها لله وأحرقتها النار البيضاء التي يرسلها الله علامة على رضاه ولم تحرق ما قدمه قابيل لأنه أختار الأردي من ماله، فهذه النار البيضاء علامة الرضا من الله وهى حسية لهم.

قلت: سبحان الله القدير المقدر، قد تكرم الله على الأجداد بهذه العبرة اليومية من حيث قبول العمل ورفضه أمّا نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، نتوجس خيفة دائما، هل يقبل عملنا أو يرفضه الله، نحن نتوجس ذلك في صلاتنا وذكرنا لربنا، ودعائنا وصدقاتنا، نعمل ونخشى ولا ندرى ما العاقبة، فنحن نؤمن بأمر الله ويخفى علينا الحكمة من ذلك ونحن نغبطكم على تكريم الله لكم بعملية القبول والرفض قي هذه الحياة لتصحيح المسار.

قال العملاق: وربما نغبطكم أو نحسدكم على هذا المجهول لأعمالك لأنه يدفعكم للمزيد من العمل والحذر.

فقلت: أليس كل إنسان يحمل الخير والشر، والكرم والبخل، والحب والبغض، والعقل والجهل.

قال العملاق: بلى، ومن هنا تتجلى مسؤولية حمل الأمانة ومن هنا يرسل الله الرسل معلمين ومنذرين، فمن أتخذ الوسطية بنية صالحة فهو الأقرب للرضا من الرب ذلك في الأمور الحياتية، أمّا في العبادات فلا بدّ من الإيمان أو الكفر ولكن الله جعل الإيمان يزداد ويتجدد بالاهتداء والاقتداء.

وقد بدأ الصراع بين المبادئ والعقائد قديماً، فهؤلاء أبناء آدم يتقاتلون في حروب متوارثة فشيث (وهو نبي رسول وهو أول نبي بعد آدم)عليهما السلام وحمل السلاح على المنحرف قابيل وأولاده وهذه بذرة الحروب الدينية.

قلت: وما زالت عندنا إلى يومنا هذا.

قال العملاق: كانت الحروب العقائدية من أجل الإيمان والكفر، أما أنتم في عهودكم بعد موت أنبيائكم، فقد داخلتها الأهواء واتخذوا الدين ذريعة فهذا قيصر الروم جمع رجال الدين المسيحيين، وقد اتفقوا على عقيدة، فاعتنقها القيصر وأصبح حامى الدين المسيحي إلى يومنا هذا وهدفه كان إيجاد عقيدة لملكه وانظر إلى المذاهب الإسلامية كم فيها من تلبس بها لأجل سلطان أو زعامة إنسان.

قلت: هل شاهدت من التقليد الضار في مواطنك الأكثر مكوثاً بها.

قال: **نعم**، رأيتكم يا أبناء القبائل تحملون التقاليد البالية معكم رغم تعلمكم وتحضركم.

قلت: **مهلاً**، ادعوهم الآن عليك فهم أكثر منك.

قال: والله لا يخيفوني أبداً، فإنهم إذا رأوني تصلبت أيديهم على أسلحتهم.

قلت: إنه سلاح الرعب.

قال العملاق: لم تحملوا تقليد الثأر وتصروا عليه وهو عادة جاهلية.

قلت: **بلى**، وأنه فتاك، ولكن المصلحين يعملون على تخفيفه، فالملك عبدالله تزعم دعوة طالبي الثأر للتنازل عن القصاص وحاول أقناعهم وتشجيعهم وكم من رقبة تم عتقها خلال سنوات، ولكنه ما زال يشعل صدور أهل الجهالة فضلاً عن الجاهلين.

قال العملاق: ومن التقاليد الجميلة الكرم في الأيام الخالية فهو للضيوف أبناء السبيل ويأكله الفقراء والمحتاجين، ويقذف منه شيئاً، أمّا أنتم اليوم فلم تفكروا في إصلاح العادة الجميلة بل صيرتموها تقليداً ضاراً، فأين عقول المنظمين والمبدعين إلى ترشيد الأمر قبل نزول العقاب.

العملاق

(١١)

أتى العملاق في الساعة الخامسة في طوق الجبل وكنت متعمدا ذاك ليكون الوصف بالمشاهدة.

فقلت له: أنتم بكل ريع تبنون، وفي قمم الجبال تبنون، وفي أحضان القمم نعثر على آثاركم من الحجارة.

قال: **نعم**، وأنا اعتمرت الأرض وقومي عمروها وعاشوا في قمم الجبال وعلى سفوحها وفي أحضان تلاعها.

قلت له: لكن مبانيكم لا تنبئ عن أجسامكم، فهل أحد هذه المباني يتسع لك، فكيف بالأقدمين وهذا يحيرني وحير العلماء قبلي وبعدي فحل لنا ذلك اللغز المحير.

قال العملاق: نظرتك ونظرة المؤرخين قزمة مثل أجسامكم، فهي لا تعي أن الأحوال متحركة بحسب الزمان ، والمكان والقدم والتأخير.

إننا نبني بكل ريع وعمرناها أكثر مما عمرها الأقوام من بعدنا.

فقلت: ففسر لي هذه المباني الصغيرة.

قال العملاق: **تمهل عليّ**، فالأمر يحتاج إلى تفصيل، ألا ترى أثر البناء من الحجارة العملاقة، وترى المباني المتهدمة ولكنها تنبئ عن عمرانَ دقيق يحمى من الحرارة، ومن الأمطار والرياح وسهلة البناء، وإن كان محكما.

قلت: **بلى**.

قال: ألا ترى حافة الجبل العليا وفيها متسع وأرضها سهلة لا حجارة كأنها مصفاة.

فقلت: **بلى**.

فقال: ألا ترى الكهف حولها؟

قلت: **بلى**.

قال العملاق: كل هذه كان يستخدمها قومي، فالكهوف نستظل بظلالها ونستكن بكنها ، ونـدلف لتحمينا من هوج الرياح، أمّا المسطحات التي تراها ولا حاجز بينها وبين الجبال، فهي التي نجلس فيها ونسمر فيها وننام فيها، ومجالسها مطلة على الغابات والجبال.

قلت: أشترك معكم في ذلك؛ ولكن كيف تنامون مع زوجاتكم وكيف تستترون؟

فقال العملاق: أتظن أننا لا نستطيع أن نبنى البناء من الطين وله طوله الذي يناسبنا وقوته أو من العرائش الخشبية، ونحن أمامنا أشجار كبرى ذات جذوع ضخمة، فأنتم لم تتصوروا ضخامة البناء وقوته ونحن ننسج الخيام أو تكون من الأدم ألم نعلمكم ذلك وتوارثتموه عنا.

فنحن على مرّ العصور نبنى الظلال والمنازل من الشجر على شاكلة أقوي من العرائش المتواجدة قبل فترتك هذه، فنحن نقسم الجذع الكبير من أعلاه إلى أسفلة، ثم نوقف الأخشاب بجانب بعضها، فيكون بناء أو عريشةٍ وكذلك بيوت الشعر الطويلة كثيرة الأعمدة.

قلت: وقد رأيتها في أقاصي أحياء القاهرة في عام ١٩٧٤م.

وقال: وتارة نبنى اللبن ونسقفه بالأشجار وأعمدة النخيل والجريد أو ما يشبه ذلك وهى الأكثر في أحضان الجبال والشعاب ومتون الأودية.

قلت له: لكن ما هذه المباني فوق التلال وهى غير متلاصقة تبعد عن بعضها ما يقارب الكيلو متر وأقل من ذلك وأكثر في شعاب متقاربة.

قال العملاق: هذه المباني هي المرتكز الأول للاستقرار، فهي مخازن للعيش وهى تحفظ المكونات الضرورية، ويأوي إليها الأطفال والنساء، وهى قادرة على حفظ الحبوب، والخضار المجففة، والفواكه المجففة.

وأردف يقول: ألا ترى ما حولها أرض ميسرة وكأنها مصفاة وتارة مصنعة المجالس كأنها مرصوفة ومصقولة بالبلاط.

قلت: **نعم**.

قال: هذه مكان المباني المندثرة من الطين أو الحجارة الصغيرة أو الخيام أو العرائش.

قال العملاق: وأنتم ماثلتمونا في المباني الحديثة في التلاع والأرياف وهى ستندثر بعد مائة عام أو أقل، فلا ترى لها أثر الآن مع كثرتها الآن وتعدد أماكنها في السهول والجبال والأودية والتلاع.

قلت: الآن فهمت طرائق البناء، والسكن وحفظ الأدوات للبناء والزراعة.

قلت أيها العملاق: كنت أسير في الأرض أيام الشباب وأرى أحجار بعضها كالحوض الصغير **وبعضها أقول:** إنه صالح للطرق وتدقيق الحبوب وبعضها كأنه سكين؛ فهل لنا أن تشعرنا باستخدامكم للأدوات؟

قال: نعم، أن أكثرها مصنع لأدوات الأكل، وأدوات التجميل من الحجارة الصلدة، إننا نستخدم الحجارة ونحفر الشجر، فنعمل منها الركاب، والأحواض، والصحون، والأقداح، والمكاييل وأواني الأكل والشرب.

وواصل العملاق القول: لولا أن البشر يدمرون لوجدتم تلك الآثار، ولكن تلك الآثار أستخدمها المتأخرون لوظائف أخرى وحطموا بعضها لتصلح لحاجتهم.

أمّا أولئك الذين يظنون أن هذه مقابر أو للحراسة فقط، فهؤلاء لم يتفكروا في طرائق البناء، ولم يتأملوا الاستخدام البشرى؛ وكيف تطور إلى البناء، وإلى اكتشاف الحديد، وإلى وجود المصانع.

ألم ترى إلى مخازن الحبوب في البلدان، وإلى مخازن التمور في نجد والإحساء، وكم كانت الكميات الكثيرة الكبيرة ذات القيمة التجارية في فلسطين، والأردن وسوريا، ولبنان، فإن مخازن التجفيف للطماطم والعنب تزدهر بها البيوت الشامية والتركية، والمخازن على مستوى التجار.

ألم تتفكر في المخازن البدوية، وكيف تحمى الحبوب، وتحمى أوعية السمن والأقط ألم يطورها الفراعنة وحولوها إلى أهرامات التي ظاهرها ورؤيتها مصادر رزق لكم، إن أقوامي أكثر معرفة من الأجيال المتأخرة وربما يعود فقدان المعلومات والمعرفة بها واستعمالها للعوز والفقر الشامل والحروب والارتحال في البوادي التي طرأت عبر التحول الزمني والمكاني.

قلت: ولكنك لم تخبرني عن الذين يستوطنون قمم الجبال العالية التي لا تحتمل أكثر من أسرة وبعضها مكان لشخص واحد.

فقال العملاق: إن تلك المنازل للمعتزلين من البشر وعن البشر، وما أكثرهم عندكم، وإن كانوا متواجدين في أحيائكم، أو تكون تلك المباني الجبلية لرجال متنكسين آثروا العزلة للعبادة وزهدوا في الدنيا ومثلهم الرهبان الذين ينعزلون في قمم الجبال، فلا يصعدون إليها إلا بسلالم من الحبال.

قلت: وهل كان التعبد الانفرادي موجود قبل اليهودية والنصرانية؟

قال العملاق: إنه كثير قبلهما.

قلت له: فهل أنتم على شاكلة واحدة، فأنتم الزارعون المقيمون في قراكم أي الأمم المتحضرة؟

أمّا أن فيكم القبائل المتحركة المتبدية التي تعتمد على الرعي؟!

قال العملاق: بل نحن خليط من هؤلاء وهؤلاء، فمن أهل الأرض الواحدة الجماعات المتحضرة التي تعتمد على الأبنية الثابتة من الطين ويسمى المدر، وبجانبه أبنيه حجرية قوية عند الذين يستوطنون الجبال وكأنها الغرف المساعدة، ونحن نستخدم زيادة على ذلك نستخدم قبة الأدم ومظلات من بيوت الشعر، والمظلات

المبنية من الطين المسقوفة من الشجر، وكذلك عرائش الشجر حتى أهل الرعي منا لا يرتحلون كما فعلت الأعراب من بعد ولأهل الرعي مزارع، وقطعان الماشية، وأنتم على شاكلة أبائكم نحن؛ فانظر إلى المجاورين لك عندهم المباني، وعندهم الخيام، وبيوت الشعر، وهكذا تفرض الضروريات والكماليات تشابها بين القديم والحديث.

ثم أردف قائلا: ولكني شهدت التحول من الاستقرار والثبات في المكان إلى التحول إلى الرعي والارتحال وذلك لقلة المياه، ونضوب العيون والآبار وانعدام الجداول المائية، وهؤلاء هم الأعراب أو البادية، وقد تكاثرت في الجزيرة، وأضحوا يقيمون في بيوت من الشعر، والخيام، وقبة الأدم للأعيان، وكلها سهلة الحمل لمتابعة المراعي وأعرضوا عن البناء بالحجارة والطين بل جعلوا المباني القديمة لحماية مواشيهم، فهم يعقلون إبلهم في أحضانها ليلاً لتحميها من الرياح الباردة لا سيما في أوقات القحط والجدب.

قلت يا عزيزي: أنك سطرت صفحات واقعية من التاريخ القديم، وتأثير المناخ والتحولات.

فقال العملاق: فلما يختلف التاريخ عندكم أليس هنا بحث داخل تلك الديار، ويكون التنقيب والبحث عن المعالم والأدوات التي ترشد إلى واقعية الحياة الأولى.

قلت: ذلك قليل يعتمد على الجامعات والبعثات الأوربية في أماكن مخصوصة وربما يعثرون على معالم لقرن من القرون أو قرون متباعدة.

وأردفت أقول: إن بعض المؤرخين المعاصرين والمستنبطين للتاريخ يعتمدون على المؤرخين الأجانب، وبعض المترجمات من التاريخ، وبعضهم يكتب التاريخ، وهو في المدن الكبرى بل في القصور الضخمة بل في المدن الأوربية مثل باريس، ولندن و لم يسر في تلك الأماكن و لم يبت فيها ليلة واحدة؛ فكيف يصير مفسراً للاكتشاف وقارئاً للواقع؟

قال العملاق: كنت أتتبع أولئك الرحالة في خفية وأرى منهم عجباً فهم يصبرون على معاناة الحر والقر وفقدان الأمن والجوع، ويكتشفون ولكن لا يسبرون الحقيقة كاملة ولو استقروا لكان ذلك مساعداً لهم ولكنهم في عجلة من أمرهم.

قلت: فأصدروا أحكاماً خاطئة وأخرى منحازة مما أوجد ثغرات على التاريخ، بل أن قراءهم تتأثر بفكرهم الذي يحملونه وبيئتهم التي انطبعوا عليها وهذه ليست خاصة بهم بل بجميع البشر.

العملاق

(١٢)

قلت أيها العملاق: إن المباني مختلفة متنوعة، فمنها الجميل بالأحجار المنقوشة المشذبة؛ فهل يقوم بالعمل رجال مهرة؟

قال: الأمر ليست مهنة مخصوصة ولكنها شائعة كل يتعلمها لأنها ضرورة لسائر الأسر، والتعليم يكون عند السلاطين والذوات، ثم ينتشر بين المجتمع ألا تراه منتشر في عمان وسائر الأردن.

قلت: فكيف بالأدوات؟

قال: إنها ميسورة متوارثة منذ آدم عليه السلام، فالله لم يترك الإنسان هملاً بل علمّه الأسماء وعلمه الاستعمال وألهمه الممارسة وألهم غيره من البشر، واقتفوا طرائقه.

وتواصل قول العملاق: هو ذلك، فالاختلاف في المباني تبعاً لاختلاف المجتمعات، فهناك أهل الرعي الذين لا يعنون بالتشذيب والتهذيب للحجارة وهم في عجلة من أمرهم، فهم يأتون بالحجار ويصلحونها إصلاحاً يستقيم مع المبنى حتى تتواصل بالسقف بطريقة لا تحتاج إلى مكونات سقف خارجية.

قلت: فقد رأيت معالم تلك الأبنية وسقوفها في آثار رجوم شوهر، وقصير التمرة، ومباني بدع الحرة وكلها جنوب تبوك.

وقال العملاق: وهناك من هم في عزلة من المجتمع ولا قدرة لهم، فهم يبنون الضروري من المباني الحجرية وربما أتوا بحجارة بجانب صخرة كبيرة لا يحملها منكم أربعمائة رجل وأكملوا البناء بالمتيسر من الحجارة.

قلت: وكيف يقوم الفرد بهذا العمل وكم من الزمن حتى يكتمل البناء؟

قال العملاق: كأنك لم تعرف أساليب البناء الأولى: إنها تقوم على التعاون والتعاضد ، فيجتمع القوم بدعوة من صاحب البناء ويعملون نهارهم كاملاً، والنساء يقمن بعمل الأكل وإعداده، فجّل الأبنية التي تراه تقوم على ذلك ولا تستغرق زمناً طويلاً ما عدا حفر الجبال، فإنه يطول زمنه والتعاون اليومي يقتصر على جزء من الدار، ثم تكون الدعوة لجزء آخر ويستمر البناء من الأسرة في الحوائط وجمع الحجر.

فقلت: هل شاهدت أبنية اندثرت؟

قال العملاق: وقد جذب نفساً طويلاً إن الإنسان مدمر، وإن تحول وظائف البناء أمر حتمي، فتندثر البيوت بالهجران بعد الموت، والحروب أو الكوارث الطبيعية، فيأتي أقوام يستخدمونها استخداماً أخر للمواشي وتخزين الأعلاف، وتارة تكون مأوى للبهائم وحضائر لها وقت الشتاء، ثم آتي زمن لجأت إليها الوحوش.

وتارة تنقل الحجارة لتستخدم للاستعمال داخل بيوت الشعر أو البناء لصغار الأغنام (البهم) تحميه من الذئاب ليلاً، وهى الآن تكون مأوى للذئاب والضباع والكلاب والثعالب.

قلت: وقد أشتكى المؤرخ القدير الدكتور جواد على في كتابه الموسوعي المفصل في تاريخ العرب من الاستخدام الجائر للآثار وتدميرها، واختفاء معالمها بأخذهم الحجارة للأبنية الحديثة البدائية في أطراف المدن قبل وجود البلك الأسمنتي وأشار إلى قرية الخريبة قرب العلا.

فقال العملاق: أين أنتم الآن عن حماية الباقي القليل حتى لا تختفي الآثار قاطبة؟

إن قرية الخريبة كانت من أهم مدن الثموديين، وكانت جميلة المباني، معمورة بالسكان لها قوة أمنية تفد إليها الوفود التجارية ولما تداعت وأنطمرت سميت الخريبة.

قلت: إننا نرفع النداء تلو النداء وتارة الصراخ والعويل، ولكن لا سماع وإجابة والأمر يعود إلى قلة الموارد المالية بأيدي المنفذين، فهم يزعمون ذلك و لم يجهدوا أنفسهم للمطالبة، وتارة يعود إلى إرادة المدير المباشر المنفذ، فتكون رغبته لما يثبت أقدامه وتارة لموطنه، وتارة لضغوط اجتماعية، فإن حفظ المباني الطينية طغى على حفظ الآثار القديمة، وقد منحونا المواعيد تلو المواعيد ولا من مجيب.

قال العملاق: إنها ثروة لكم وتاريخ عريق لدياركم ولجزيرتكم، ولأنكم تحتاجونها بعد أن ينضب بترولكم، بل هي محور لتاريخ البداية البشرية.

قلت: ذلك ما يدركه الجميع لكن ليس هناك عمل وخطط لحفظ هذه الثروة.

قال العملاق: إن النقوش التي تصور حياة أدركتها تملأ الجبال مثل حالة الحروب فوق الإبل، والخيل، والرماح، والسيوف، وقطعان الحيوانات المفترسة والشوارد من الصيد كالنعام وبقر الوحش، والحمر الأهلية، والكتابات الأخرى حول الطرقات للقوافل، فالمنطقة مكتبة أثرية كلها تحتاج مجهودات ولو بتكوين جمعيات من أهالي المنطقة أو المستوطنين حول الآثار، فأنتم قادرون مادياً لكنكم ضعفاء عملياً.

قلت له: إن هذه المباني من الحجارة لم نتعرف من خلالها على مساكن الطبقات الاجتماعية.

قال العملاق: والله إني لا أعرف وكنت أظن أن الكل يعرفها، وأنها من المعارف الشمولية.

واستطرد يقول: ولكني أصفها لك إذا رأيت البناء مشرفاً مرتفعاً وحوله أرض منبسطة واسعة، فأدرك أنها دار لأمير أو وجيه أو حاكم أو كبير الأسرة أقاموا لهم دور حوله، والمجالس العامة تكون من الأبنية **مثل** اللبن من الطين أو من الحجارة المسقوفة بالأشجار ويتأنقون في بنائها الحجري والطيني، وهي تكون منتداهم وفيها سمرهم وجدلهم والقضاء بينهم فيما فيه يختلفون وسائر قضاياهم ويلتقون عند أميرهم أو يكون أبوهم أو جدهم ويأتي إليهم الأضياف فيها، ويحلون قضاياهم ومشاكلهم، فهم مستقرون ولهم نظامهم الأمني الذي يقوم على القبيلة أو القرية ولا يعتمد على كيان دولة كبرى.

قلت: أتعرف بعض هذه الأماكن وجلست فيها؟

فأخذ يبكي وينتحب.

وقال: أي والله أني جالست قومي وآبائي وأبنائي وأمهاتي وأخواتي وزوجاتي وكان لي سرادق يتحلقون حولي، فانفض الجمع وكنت وحيداً مشرداً كأني من الصيد الشوارد.

فقلت: خفف عليك إن هذا لك ابتلاء فيه أجر ومثوبة، وفيه امتداد العمر بالعمل الصالح والـذكر لله سبحانه وتعالى.

قال العملاق: قد أحسنت مواساتي، وأسأل الله أن يجمعني وإياهم في جناته.

قلت: وهل كل أهاليك موحدون؟

قال: أكثرهم وإن أجدادي هم الذين آمنوا مع الرسول النبي صالح صلى الله عليه وسلم.

قلت: **أعذرني**؛ فإني أمطر عليك الأسئلة تلو الأسئلة وهى تستدعى ذاكرتك القديمة.

قال العملاق: إن هذا الحوار هو الذي جعلني أخاطر بالتعرف عليك وأنا أحمد الله أنك تجاوزت الرهبة والخشية من صحبتي لك.

قلت: ذلك من فضل الله الذي ألهمني قراءة التاريخ لأتعرف على أوصافك من قبل أن أعرفك وأحمد الله أن تجاوز بى الأزمة، فأنا اشتاق شوقاً شديداً لسمرك وحكايتك.

قال العملاق: قل ما عندك ولا تبالي؟

قلت: نحن لنا عاداتنا لاستقبال الضيوف ولكنى أجهل عاداتكم وتقاليدكم.

قال العملاق: نحن أكثر منكم خيرات، وأقدر منكم على جلب المسرات لأنها تكون من موجوداتنا من فواكهنا، وخضارنا، وأنعامنا، وألبان الإبل، والأغنام وعصير الفواكه، والتمور، **أمّا أنتم**، فأكثرها مستورد حتى الأواني نصنعها بأيدينا من الفخار، والأحجار، والأشجار، وفيها من الجمال والدقة ما لا يخطر علـيكم ونقدم فيها ما لذ وطاب من الأطعمة التي تعتمد على اللحوم المشوية، والعسل المصفي، واللبن الطازج وشراب التمر، وشراب العنب، وأنواع أرى انقرضت، فإن القوم كانوا يعيشون في رفاه ونعيم، أما أسلافك الباديـة، فإنهم يعتمدون على اللحم، ويخلطونه بالماء في حالة الجدب وتارة يكون كرمهم بالماء الملوث بالأتربة فهم فقراء حتى سلاطينهم فقراء إذا تمت المقارنة معنا.

وقال العملاق: لولا وجود الكرم والضيافة لما سجل التاريخ أن المسافر من صنعاء إلى بيت المقدس لا يحمل زاداً، ولا ماءً، ولا ناراً، ولا غطاءً وأنه يقيل في قرية ويبيت في قرية حتى يصل إلى بيت المقدس.

قلت: ولذلك يدعوا الفساق من أولئك الأقوام بأن يباعد الله بين أسفارهم، فعذبهم الله بالتصحر وقال عز وجل في "سورة سبأ" { **فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**} **[سبأ: ١٩، ٢٠]**.

قال: وأنا أقف عند هذه الآية الكريمة التي تصف أحوال الأقوام المترفين الذين تمنوا ابتعاد الأسفار، فلما قرأتها أول مرة وجل قلبي ودمعت عيني وما زلت أعاود ذلك عند قراءة القرآن.

قلت: فقد أصابت دعواهم الأجيال الأخيرة التي عاشت في مراحل الجفاف والتصحر.

العملاق

(١٣)

التقيت بصاحبي العملاق في القرية المشهورة في البدع الجنوبي قريباً من قرية البديعة علـــى طريـــق الحرة من تبوك إلى العلا.

وكانت نموذجاً فريداً، فهي على حافة الجبل من الجهة الغربية، ومطلة على دروب القوافل المتجهة إلى الشام والعائدة منه وهذه الغرف مشذبة الحجارة كبيرة البناء، متجاورة منها خمس حجرات وهى تتسع للبشر المتأخرين أمثالي لا أمثال العملاق صاحبي وإلى الجهة الشرقية مباني متباعدة متهدمة تكاد أن تختفي ومثلـــها في سفح الجبل من الجهة الجنوبية قريبة من الآبار القديمة، ومنتشرة تلك المباني في الجهة الشرقية في سفوح الجبـــل الشرقي، وهى مطلة على أماكن صالحة لبناء البيوت الطينية أو من خيام الشعر وأماكن صالحة للزراعة.

فقلت للعملاق: ما رأيك في هذا؟

قال: إنه لا رأى بل حقيقة هذه قرية كانت لرجل من قوم ثمود الذين ابتعدوا عن بلادهم، فأنجب هنا وبني هذه القرى وابتنى أولاده بجواره، فكوّنوا قبيلة قوية لها شأن، وعمروا هذه الأرض في الجنوب من طريقكم المهد والمعبد وهذه مزارعهم وهذه مبانٍ لهم، وقد أندثر منها الكثير ألا ترى إلى الحوائط التي حول المـــزارع الهزيلة، فإن حجارتها كلها من تلك الآثار، أمّا البيوت المطلة في أعلى الجبل، فهي قصر الضيافة للأب الأكـــبر الذي أصبح أميراً على قومه يتوافد إليها عابر الطرق العابرة إلى الشام أو العائدين منه وهى منتـــداهم ومكـــان اجتماعهم، وهى مخازن التغذية، ربما تقول أيها القزم إنها مرتفعة على الأضياف وأقول إنك نسيت أن العـــرب تفاخر بإشعال النار ليلاً ليستدل بها الأضياف، فهي كذلك وأمر آخر، فإن الارتفاع الحالي نتيجة حفر السيول للأودية مع امتداد الزمن وتتابع الجرف مع السيول.

قلت له: **لو تدرى**..... ما هي وظيفتها الآن في نظر أحد القاطنين هنا؟

قال العملاق: دائماً نظركم قاصر.

فقلي بربك؛ ماذا قالوا: عنها؟

قال: وقد احتجزني بوقوفه على الطريق إليها: لماذا تصعد ولا تخبرني وكررها المرة تلو الأخرى؟

قال: دعني من التصرفات، فهي من صغائر الأمر؛ فإذا: كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام لكن؛ **ماذا قالوا عنها؟**

قلت: **نعم**، إنها من الصغائر تلك.

قال محتقرا لها: إنها مأوى للكلاب، والثعالب و لم يذكر شيئاً من تاريخها وأهميتها.

وقال: قاتل الله الجهل.

قلت: كيف كانت أسفاركم، وأنتم في غنى عن جلب الحبوب، والمئون والخيرات عندكم؟

قال العملاق: إن أسفارنا كانت في أغلبها لزيارة بيت المقدس وللاستفادة من الحضارات العربية القديمة **مثل** آثار الفينيقيين والكلدانيين، فنحن أبناء عمومتهم أدركنا رحلاتهم، وهم بنوا الشام كما بنينا الحجر، وهم رواد الحضارة العالمية، ثم جاء بعدهم بكثير الأنباط: وكذلك هجرة أقاربي، فالعماليق من قوم عاد وثمود هاجر كثير منهم إلى بلاد الشام، والهجرة في زمننا ليست بالصعبة وليست بذات كلفة ولا مخاطرة كهجره الأفريقيين إلي أوربا، فأغلبهم يموتوا غرقاً، فنحن نصل الشام في خمسة أيام، والقرى متناثرة أمامنا.

قلت: هل تُسير القوافل الكثيرة إلى بلاد الشام؟

قال العملاق: إن القوافل خاصة بالتجارة التي ينقلون عليها غرائب الأشياء عندنا وغرائب الأشياء من الهند، واليمن وكذلك تنقل الغرائب من الشام إلى بلادنا وبلاد اليمن والهند.

قلت: هل الطرق والقوافل عليها آمنه؟

قال: **نعم**، أن هناك دول وهنا قبائل تحرس بلادها.

قلت أيها العملاق: أنتم عمالقة وتأكلون الكثير، فالأغنام لا تكفى ثلاثة منكم مع الحياء؛ فكيف يستطيع أمير البدع في حجراته وديوانيته التي انَقرضت أن يوفر الغذاء للأضياف صباحاً ومساءً؟

قال العملاق: إنكم لا تدركون ماهية الأموال، فالإبل تبلغ الآلف للرجل الواحد والأغنام لا تحصى من كثرتها: والمزارع للحبوب والفواكه كثيرة وله طرائق في الضيافة لا إسراف فيها وليست مقصورة على النحر، والذبح، بل يكتفي بمكونات الحبوب من القمح، والشعير، والذرة، وبجانبها الفواكه، وعمل الأدم من الخضار، وتكاثر الألبان، وأنت تدرك أن الأب يملك أموال أولاده، فهم يتعاونون معه، وكذلك، فإن أمير القبيلة يوزع الأضياف عليهم.

قلت: ولو أتى المضيف بلحوم الصيد؛ هل يكتفي به الأضياف؟

قال: **نعم**، أنهم يرون ذلك تكريماً أكثر وما كثر الصيد وما أيسر صيده وما أعظم حجمه، فهو من بقر الوحش ومن الحمر الوحشية والزرافة والإبل.

قلت له: ما دور النساء عندكم؟

قال: النساء يقمن بالاحتطاب وإحضار الماء، وتقوم الفتيات بالرعي، ويخالطن الرجل، ويحادثن عابري الطريق وتارة لهن صولات وجولات ولهن إغراء وفتنة إن المرأة عندنا هي القوة الخفية، أمّا الظاهر، فإن الرجال يزعمون ويزعمون والمرأة تستقبل الأضياف، وتطبخ وتقدم الأكل والماء واللبن في جلاء ووضوح.

قلت أيها العملاق: الاحتطاب عندنا مشكلة كبرى فكيف بزمنكم؟

قال العملاق: الحطب كثير وكثير، فالغابات والأشجار تغطي الأودية والجبال وتملأ التلاع، فالنساء يجلبن لبيوتهم أمّا الرجال، فإنهم يجلبونه لمنتدياتهم ويخزنونه للشتاء ويصنعون منه الفحم للشوي وإعداد الأطعمة.

العملاق

(١٤)

قلت: إن الذي يجوب الديار يذهل من آثار الأقدمين ومعالمهم، فأنا أرى معالم الزراعة فوق الجبال في أرض طينية، وقد علمت من الأسلاف أنهم يزرعونها عند تساقط الأمطار، وأرى المعالم الزراعية في سفوح الجبال، وقد رأيت جداول في أرض منبسطة بجانب الأودية؛ فكيف توصل أسلافك **أيها العملاق**: إلى علم الزراعة؟

قال العملاق: إني أعرف أشياء قليلة، وغابت عني أخبار كثيرة، وعُيِبَ على أقوامنا أنهم لم يدونوا المعلومات و لم يجمعوها بل تباعدوا عنها ونسوها.

قلت: معنى هذا أن علم الأوائل في الزراعة أفضل من علمنا المعاصر؟

قال العبقري العملاق: **نعم**، أنهم أفضل لأن آدم وأبناءه وأحفاده تلقوه بوحي وإلهام من الله، فالله علم آدم كل مهنة تساعده على الحياة، وعلمته الملائكة آلات الزراعة، فالعلم من الله أعلى علم وأكمله، فآدم صنع تلك الآلات، وحرث بها وجاءته البذور من الجنة، وهي تامة كبيرة، فبذور القمح أكبر من التفاح وتعلم أبناؤهم من بعد وأحفاده، ولكن العلم بها يتناقص، وتارة يلهم الله الأجيال بالأفضل ولكن عموم المعرفة بتفاوتها سارت مع الناس حلت في عقولهم أينما حلوا وهناك ظاهرة طرأت منذ آدم، وأحفاده، وهي أن الله يمنح العاملين والجادين الإبداع والإنجاز، وتواصل العلم يؤدى إلى تراكم المعرفة، فإن الله عز وجلّ لم يترك آدم عليه السلام في تيه وضياع.

قلت: هذا طريق العلم المعاصر ويزداد بالأبحاث ويزداد بالممارسة والتطبيق ومن، ثم تتوالد المعرفة وتتراكم.

قال العملاق: وهذا ما طرأ على البناء، فإن البناء توالى العمل به وتطويره، فأنت ترى أعمال الأوائل في البناء وفي نحت الجبال وفي نحت الهياكل كما كانت في أفغانستان وهي في أعلى الجبال ودمرتها القاعدة مع أن الصحابة والتابعين فتحوا البلاد ونشروا الإسلام وأقاموا دولاً و لم يتعرضوا لها.

قلت: إني أرها في بلاد العرب، وفى الشرق كثيرا، ومعالم مصر خير دليل ومعالم تونس، وقد وجدوا معالم في أمريكا الجنوبية في المكسيك والبرازيل ومنها معالم مواطن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

قال العملاق: أنت رأيت الأقل، وأماّ الأكثر فهو ما زال لم يُكتشف والأكثر منه دمُرت معلمه أو غمرته الأرض، فأضحى تحت باطنها بفعل الحراك الترابي والزلازل وطمي البراكين.

قلت: نحن انتقلنا من الزراعة إلى البناء.

قال العملاق: الحوار والحديث متشعب يستدعى بعضه بعضاً، ألست ترى المساحات الشاسعة في السهول فإنها كانت المزارع الكبرى؛ وكيف تكون المياه لهذه المزارع ما دام أنكم لم تكتشفوا آلات حفر الآبار الارتوازية كما سخرها الله لنا.

قال: إن الله سخر لنا البحيرات والأنهار، ونحن نجرف المياه من البحيرات في جداول مائية وحتى الجبال زرعناها بالأشجار المثمرة ألا ترى الدوائر في سفوحها حول الخنبرة بين حسمي والحرة وفي نعمى في جبل الشاطئ، فإن هذه كانت مزارع لكن طمرتها البراكين التي أدركتها ودمرت مزارعي، فإن الأرض لم تستقر إلا قبل ألفي سنة أو أقل.

قلت: أخبرني عن المرأة، والزراعة، والأبناء وسائر الأولاد ما دورهم في الحراك الاجتماعي؟

قال العملاق: لو رأيتهم لوليت منهم هارباً لضخامتهم وضخامة زرعهم، فأنت لو دخلت مزارع الحبوب لا يراك أحد، أمّا العمل فهو ضرورة حتمية منذ الطفولة، فحاجة الإنسان في تلك الأزمان، تجعل كلُ يعمل، وكل يدرك وظيفته، فالأولاد الصغار يسعون في الخدمة، والنساء يعددن وسائل الحرث من الحبال، وتجهيز الثيران للحرث، والرجال يحرثون، ويوجهون المياه وتارة يصنعون الجداول، ويصنعون ما يحتاجون إليه مما تطرأ الضرورة له.

وقال العملاق: إنهم في أرضهم مجتمعون كمثل اجتماعهم حول أمهم في دورهم.

قلت أيها العملاق: أن التاريخ جعل المرأة في طي النسيان؟

قال العملاق: لكن الواقع أنها حاضرة دائمة الحضور أكثر من الرجل، فالحياة قامت عليها، والعمل بيديها، والانجاز نتيجة تعاونها، بل الحياة بها.

وأردف العملاق يقول: إني رأيتها في بداية الزراعة، ووقت الحصد، والتصفية، والتذربة، والطحن، وإعداد الأكل فهي حاضرة صباحاً ومساءً، وهى أول من يقوم صباحاً وآخر من ينام ليلاً.

قلت: كيف تعامل الرجال مع المرأة، وما مكانتها في الأسرة، والمجتمع؟

قال العملاق: إنها زهرة الحياة في طفولتها، وأنها نجمة الجمال في فتوتها، وأنها جاذبة العقول، وجاعلة الشباب والرجال يدورون في فلكها، وأنها مناط آمالهم، ومصدر سعادتهم، وتارة المحرضة على التنافس، وتارة تولد الصراع، فتفرق بين الأصحاب، أنها مرحلة الأحاسيس ونمو الغرائز واكتمال الخلقة، فهي تحلق في الآمال والأماني وأحلام اليقظة حتى تعود إلى التعقل والعمل، فتتزوج وتبدأ مرحلة البناء تماماً كما تتكون السحب في السماء تتجول في الأفاق وتتكاثر ويعود بعضها إلى بعض، فتحمل مطر الخير، ثم ترمى بخيراتها على الأرض، فتنبت الأرض ويحيى الحيوان وتدر الضروع وتزهر الوجوه، ويتكاثر الخير.

قلت للعملاق: معنى ذلك أنكم ونساءكم في مودة دائمة، ورضي مستديم؟

قال العملاق صاحب التجارب: في عصورنا وعصوركم ظاهرة معالمها واضحة، وآثارها مدمرة عند بعض النساء، وتتمثل في عنفوان المرأة وتسلطها على زوجها في مراحل عمرها الأخيرة، فمُتعتها الهمز واللمز،

ونكران الجميل، والتحلل من الماضي السعيد، و لم تبال بليالي الإنس، فهي طاردة غير جاذبة، فتحرم نفسها الأنس، وتحرم قرينها من قطف زهورها الذابلة.

قلت: إن التشكي ظاهرة عالمية عبر القرون وفي كل الأمم أمثال متداولة، وحكايات عجيبة مدونة عن المرأة تارة ظالمة وتارة منصفة وأخرى واقعية.

قال العملاق: تلك ظاهرة رصدتها في المجتمعات التي عاصرتها حتى رأيت أنها غريزة إنسانية وضعها الله لحكمة لم تتضح لي، وقد جلت أفكاري فيها كثيرا.

فقلت: إنها تعود إلى أخذ الثأر الكامن في نفسية المرأة، فهي تقبل على الزواج في مراحله الأولى طائعة منفذة لأوامره تعمل كل ما يسعد الرجل متناسية رغباتها، فإذا تمكنت من الرجل، فإن العوامل الكامنة تستيقظ لتحصد الصبر، وتأخذ بالثأر، وتارة أقول إن الحياة الأولى حياة تكاملية ضرورية للمرأة والرجل، فدواعي الرغبة والشهوة والإنجاب تغفر صغائر الأمور، وتطغى عليها سريعاً، ورغبة المرأة أيضا في ضروريات الحياة وكمالياتها، وتربية أولادها وبناء دارها، كل ذلك يدفعها إلى التحاب، والتعاون، والشكر الداخلي القريب الأجل للرجل، فإذا بلغت المرأة الأربعين، فإن العواطف والأحاسيس تضعف وينمو عندها العقل والتفكر الصادر من واقع حياتها، فتلهب زوجها بكثرة السؤال ومتابعة الأقوال، وجذب الأموال للأولاد، وترى أنها أحق بالسلطة والتسلط لأن قوتها تفوقت بأولادها ولأنها اكتشفت أعمالها البانية المربية، ويضعف الرجل ولأن عقلية الرجل نضجت وأخذت تعامل الحياة، كأنها صغائر الأمور والمرأة تجعلها من عظائم الأمور.

قلت للعملاق: هل رأيت في القرون التي عاصرتها شذوذ عن ذلك؟

قال العملاق: لم أر شذوذاً جماعياً، ولكن هناك حالات فردية كثيرة يتواصل فيها التحاب والود.

قلت: إنني أطلعت على دراسات غربية تلتقي معك كثيراً، وخلصت الدراسة إلى أن الطلاق يحدث كثيراً في مرحلة ما بعد الأربعين، فيكون خراب البيوت، وأشارت الدراسة إلى أن استسلام الزوج للزوجة هو الأسلم وإن الشقاء في دوام الشقاق.

قال العملاق: الحمد لله أن صير الأولاد يرعون الآباء فتلك سنة ربانية من عليم حكيم.

العملاق

(١٥)

طلب مني العملاق الانتقال إلى مكان آخر.

فقلت: بحيث تبلغ السيارة، فلا قدرة لي على صعود الجبال؟

فقال: أعماركم قصيرة، وتحملكم ضئيل، وشيبكم مبكر، وقدراتكم ترحل مع رحيل كهولتكم.

قلت: الأمر كما ذكرت، فإنك شاهد مراقب ترقب، فتتأمل فعساك من الشاكرين؟

قال العملاق: الحمد لله الذي منحنى فسحة من الزمن، و لم يشغلني بحطام الدنيا، و لم يجعل الدنيا أكبر همي.

قلت: كيف صلاتك وسجودك؟

قال: لما تعلمت الصلاة الإسلامية أمكث فيها ما يقارب الساعة، أمّا سجود التعبد، فإني تارة أسجد ليلة كاملة.

قلت: لو جمعت سجودي الدهر أظنه لم يأت ليلة واحدة فبارك الله لك في عبادتك وأعاننا على عبادتنا وسلك بنا معاً سبل الهداية والرشاد والسلام.

قلت أيها العملاق: أن كر الأيام عليك والليالي جعلك من العلماء النادرين من علماء الواقع، وفلسفتك فلسفة واقعية.

فقال العملاق: **نعم**، أنا لا أحمل أقوال سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وهيغل، وكانت، وديكارت، وسارتر صاحب الفلسفة الواقعية ولكنى تعلمت من الواقع، وتأثرت بالتعاليم الربانية، فقطفت من شرائع هود، وصالح، ومحمد عليهم السلام.

أمّا التوحيد، فهم فيه سواء يدعون إلي توحيد الباري جلّ وعلا.

قلت: كلنا موحدي الباري سبحانه وتعالى، ولكل من رسلنا شرعة ومنهاجاً.

فقال: أتظن أن الفلاسفة الإغريق، كانوا يبتعدون عن الواقع، وأنهم لهم خبالات خاصة بهم...... ...

قلت: أرى هذا وأرى ذلك؟

قال العملاق: إنهم وقفوا حياتهم على التأمل، ونموّ مواهبهم وغرائزهم التي ركبها الله لهم في عقولهم وزودها بالمعارف ومزجوا بين المعارف وقارنوها، واتخذوا من الديانات السماوية كثيراً من معارفهم وهداية إلى تحليلهم، وتعليلهم، واستنباطهم، وزادوا معارفهم بالحوار والجدل حتى توصلوا إلي نظريات فلسفية.

قلت: هذه مكونات العقلانية وهؤلاء أعطوا غرائز العقل حقها واستفادوا منهما، فكانت جذور الفكر البشري.

قال العملاق: أدركت أساليبهم حين أنفض المجتمع من حولي، فهلكوا جميعاً، فكنت وحيداً فريداً، فأجلس أتأمل في الكون كثيراً أتدبر ملكوت الله، وتمازجه أتدبر السماء، وأجرامها، ومكونتها أتدبر الهواء، ووظائفه الربانية، أتدبر مسيرة التاريخ، أتدبر الأشجار، والأحجار.

قلت: لعلك أمتلئت إيماناً؟

قال العملاق: وهل يمتلئ الإنسان بالإيمان والثبات على الامتلاء، **إنما** الإيمان يزداد ويزداد، ويجدده الفكر والتفكير ويجدد المرة تلو الأخرى، فما زاد أيمانا في يوم من الأيام إلا ويأتي أمر آخر في أيام أخرى ليزيدك إيماناً.

فقال العملاق: إن العلماء المتأملون في سائر الكون إنما هم سعداء.

فقلت: إذن أنت في سعادة دائمة؟

فقال: **نعم**، والحمد لله، فالإيمان، والتأمل، والتدبر في ملكوت الله والعبادة هي سعادتي الوحيدة.

قلت: إنك اشتركت مع الفلاسفة في خاصية التأمل والإبحار في عالم الكون؟

قال العملاق: عيبي أنني لا استطيع التدوين، وليس لي طلبة نابهون.

قلت: لعلنا ندون ما نستطيع.

ثم قلت: إنك فليسوف واقعي في الأصل، وكذلك أسلافك وأسلافي القريبين من الأميين، فأنا سمعت منهم وقرأت للفلاسفة وأتذكر أن تجارب أولئك الأميين تلتقي مع تجارب الفلاسفة الإغريق.

قال العملاق: فاذكر لي إحدى التجارب لعلها تستدعى ذاكرتي.

قلت: إن أحد الفلاسفة كان مسافراً من قرية إلى قرية، فوثبت عليه حية تسعى، فأثقلته بسمها وجلس في ظلال شجرة، ففكر في الأمر فكتب وصيته، وعلقها على الشجرة، وهم يقولون إن الملدوغ يشعر بالظمأ، فشعر بالظمأ وازداد وإذا بحفرة ماء بجانبه، فأمتنع عنها حتى غمره الألم والظمأ وفقد الأمل.

فقال: أموت لأن المسموم ممنوع من شرب الماء عند البادية وعند الفلاسفة، فلم يصبر الفيلسوف، فأندفع إلى الماء وشرب، وتمدد منتظراً الموت، وإذا به يشعر بالحياة والراحة، ونقصان الألم، فلم يلبث فترة حتى تعافا، ففكر في السبب؛ وفتش في الماء، فوجد حيتين قد ماتتا في الماء.

فقال الفيلسوف: إن السم يعالج السم، وهكذا يهتدون.

قال العملاق: إنني أظن اكتشاف البدوي قبل اكتشاف الفيلسوف لأنني منذ أن عقلت وأنا أسمع الأسلاف يتعالجون بالحيات.

ثم قال: تداعت عليّ أفكار الطب ولعلنا نأتي بها في حوارنا كثيراً والأقرب إلي ذاكرتي هي أنى تطعمت عن سم العقارب، وعن الحيات منذ ألفى سنة، وهى الآن تعضَني ولا أبالى بها.

فقلت: وإنا كذلك فقد أرضعتني والدتي على سم العقرب، وقد لدغتني عقرب، فلم تضرني.

فقال العملاق: لقد برع قومي وأسلافهم في طب العظام، فإنهم يجبرون الكسور بدقة عالية وعلاج الأمراض الجسدية وتألق عدد من النساء في طب النساء والولادة، وعلاج الأمراض الصدرية وعلاج الأمراض الباطنية ما عدا القلبية، فإنهم لم يتعرفوا عليها، واكتشفوا فاعلية كثير من الأشجار مثل شجر ألبان، والرتم، والصمغ، والعرعر، والبطم، والبعيثران، والشيح، والقيصوم، والعرن وغيرها من الأشجار المندثرة.

قلت: لقد عرف الأقوام الأقدمون الأطباء المختصون، فهم يحفون الملوك والأمراء برعايتهم، وتطور الطب على أيديهم، بل أنهم أضحوا أساتذة في ذلك يدرسون في المورستنات.

وقال العملاق: وأنا أصنع علاجي منذ ألف سنة مما سمعت وشاهدت ومما جربت ومارست.

قلت: كم مرة فقدت الوعي ولا رفيق، وكم عجزت عن النهوض ولا من معاون؟

فقال العملاق: إنها لا تعد، ولا تحصى، ولو سجلتها لسجلت حكايات مأساوية تصلح للمسارح المعاصرة.

قلت: إن البادية يحذرون من الجنابة على الملدوغ.

قال: إن الملدوغ وعليه جنابة لا سلامة له إلا من رحم ربي ولذلك هم يبادرون الملدوغ بالسؤال عن الجنابة، فيغسلونه مباشرة ويمنعون عنه الماء شرباً.

فقلت: يعود ذلك لضعف الإنسان بعد الممارسة الجنسية.

فقال العملاق: رأيت بقر الوحش يأكل الحيات، ثم يلتهب عطشاً فيرد إلي المياه، ويقف عنده ولا يطعمها إلا بعد أربعة أيام من أكل الحية.

العملاق

(١٦)

تقابلت مع العملاق في تلاع منحدرة من الجبال الشاهقة وهي الأماكن المفضلة للرعي وبعيدة عن النزل.

قلت: هل أنتم تملئون الأرض بمواشيكم وترعون في هذه الأماكن وفوق رؤوس الجبال؟

قال العملاق: بل تُرعي إبلنا وأغنامنا، وأبقارنا هنا، وكانت الأشجار العملاقة والقصيرة تغطي الجبال وتملأ الوديان والتلاع ولكثرة المراعي، فإن المواشي لا تعود إلا مع الرعاة.

قلت: إذاً ما أنتم لم تعرفوا الحضائر ولا أعلاف التي تعود إليها المواشي.

قال: **نعم**، فلا عودة لها إلا مع الرعاة.

قلت: ومن هم الرعاة؟

قال: الأكثر من الفتيات.

قلت: وهل لهن طاقة على ذلك؟

قال العملاق: لهن طاقة ولكنهن يتعرضن للذئاب، والنمور، والأسود، فتفتك تلك الوحوش بالراعي والرعية، فكم فتاة أعرفها تعرضت للقتل وهي تدافع عن أغنامها ، وتارة لعضة ذئب، وتارة لقطع إحدى يديها، وتارة لفزع دائم جعلها في حالة مرضية شديدة دائمة، وأذكر إحدى قريباتي ضلت الطريق، فمكثت أياما تدور في الغابات حتى هلكت.

قلت: ألا تتعرض للفتيان الطائشين؟

قال: **أبداً**، فهم يتحرشون ولكن إذا رأوا حزما ومقاومة من المرأة، فإنهم لا يقربونها.

قلت: وهل تبيت المرأة منفردة وحيدة؟

قال: لا ضير في ذلك إذا اضطرت لذلك في ليالي معدودة في عمرها، ولو وجدت رعاة فإنها تقترب منهم ويحمونها ولا تخشي منهم أبدا، إنها أعراف وقيم صارمة في غرف المجتمعات.

قلت: وورثناها فكانت قوانين الأعراف أكثر صرامة حول النساء.

قال العملاق: إنني شاهدت مواقف تعرضت لها النساء تبكي كثيراً، ولكن بعضها ماتت، وبعضها عالق بالذاكرة، فتتعرض المرأة للمآسي حين الحروب، وحين فتك الصعاليك، وحين المجاعات، وحين توالى القحط، والجدب، وحين فتك الأمراض.

قلت: إنها مآسي وحروب تناقلتها الحكايات والأساطير.

قال العملاق: إن المنتصر القاتل الفاتك يستولى على الأموال، والآهلين، فيقتل الأزواج والأبنـــاء، ثم يستولى على المرأة، وتكون خادمة ذليلة دائماً أمام قاتل أسرها وناهب أموالها.

قلت: إن الشعراء سجلوا مآسي الأندلس؛ **فقد قال أبو البقاء الرندي**:

يــا مـــن لذِلـــة قَـــومٍ بعـــد عِـــزهِمُ

أحـــالَ حـــالهم كُفـــر وطُغيَـــانٌ

بـــالأمسِ كـــانوا مُلوكـــاً في منـــازِلِهم

واليـــوم هُـــم في بـــلاد الكُفـــر عبُـــدانُ

فلـــو تـــراهم حَيَـــارى لا دليـــلَ لهـــم

علـــيهمُ مـــن ثيـــاب الـــذل ألـــوان

ولـــو رأيـــتَ بُكـــاهم عنـــد بـــيعهِم

لَهَالَـــكَ الأمـــر واســـتَهوتَك أحـــزانُ

يـــارُبّ أمٍّ وطفـــلٍ حيـــل بينَهُمـــا

كمـــا تفـــرق أرواح وأبـــدانُ

وطفلة مثـلِ حسـنِ الشـمس إذ طلعـت

كأنمـا هـــي يـــاقوت ومَرجـــانُ

يَقودُهـــا العِلـــجُ للمكـــروه مُكرَهَـــةً

والعـــينُ باكيـــةٌ والقلـــبُ حـــيرانُ

لمثـــلِ هـــذا يـــذوبُ القلـــب مـــن كَمَـــد

إّن كـــان في القلـــبِ إســـلامٌ وإيمـــانٌ[١]

قلت له: وهل فعلت أنت ذلك؟

قال: **وما أكثره**، وقد قتلت أب لأطفال أربعة، وخشيت الذكور منهم حين يكـــبرون، فيقتلـــوني، فقتلتهم أمام أمهم، وأخواهم، واستوليت على الأموال والزوجة، والبنات، وأخوات لها، واستخدمت الجميع، وعرضت بعض البنات للبيع.

فقلت: وهل يذعن لك ويطعنك ويحفظن أموالك؟

فقال: كل ذلك على أحسن وجه خوفاً، وخشية، ورغبة في الحياة.

فقلت: ألم تتعلم المرأة الدفاع عن النفس، وتحمل السلاح نتيجة لهذه المآسي، وتجارب الأيام؟

قال العملاق: الحمد لله الذي لم تتعلم الحرب وجعلها تستكين، وتستلم.

قلت: إذن أنت ترضى هذا الهوان للمرآة؟

قال العملاق: **لا والله**، إني نادم كل الندم على تلك الفعلة، ومشفقاً على أمثالها، ولكن قتال المـــرأة، ووقفها للحرب: يهلك الحرث والنسل، فيكثر قتل النساء وتصاب بالمآسي من الجروح، والعاهات الدائمـــة، فمصائبها الدائمة، وصبرها، وذلها يترك لها أمل في الحياة وكم تحولت الأحوال لها فأضحت أمّا وربت بيـــت وعوضها الله.

قلت: إن أم المؤمنين أم سلمه أشارت إلى حرمان المرأة من فضيلة الجهاد، فنزلت الآية الكريمة في سورة **"النساء"** { فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: ٧٤-٧٥]

قلت: فكيف بنساء السلاطين المغلوبين؟

(١) د مصطفي الشكعة الأدب الأندلسي ٥٥٤

قال العبقري: تلك مآسي طويلة، فإنهن يعذبن عذاباً أليماً، ويستخدمونهن، ويذلوهن بالرق، فيكن جواري بعد إن كنا أميرات، ومن هنا قال الله تعالي على لسان بلقيس في سورة "النمل" **{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) } [النمل: ٣٤، ٣٥]**.

قلت: ومن الحكايات المأسوية الخالدة حكاية ابن المعتمد أحد ملوك الأندلس الذي سجنُ، وحيل بينه وبين زوجته وبناته وأخذن يعملن خادمات وهن جائعات وحافيات، وقد كساهن الذل والهوان بعد أن كانوا الأعز والأكرم وفي النعيم والرفاه فقد زاره بناته في العيد وهو مكبل بالحديد فكان الأمر عليه شديد **فقال**:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

وكان عيدك باللذات معمورا

وكنت تحسب أن العيد مسعدةٌ

فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً

في لبسهنّ رأيت الفقر مسطورا

معاشهنّ بُعيد العزّ ممتهنٌ

يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً

عيونهنّ فعاد القلب موتورا

قد أُغمضت بعد أن كانت مفتّرة

أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافيةً

تشكو فراق حذاءٍ كان موفورا

قد لوّثت بيد الأقذاء اتسخت

كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهره

وقبل كان بماء الورد مغمورا

لكنه بسيول الحزن مُخترقٌ

وليس إلا مع الأنفاس ممطورا

وأين نساء السلاطين المعاصرين في تونس، وليبيا، ومصر، واليمن، والعراق، وسوريا؛ إنهن تعرضن للهوان بعد الرفاه والجاه فهو اعتباراً معاصرً لنا.

العملاق

(١٧)

قلت يا صاحبي العملاق: أنني في حيرة من أمري حول أشياء أبصرها بعيني، وأتعجب كيف ينالها الذين صنعوها أو نقشوها، فإني أرى نحوتاً في الجبال الشاقة لا يصل إليها الإنسان، وعندنا في منطقتنا نقوش كتابية، ورسوم للإبل، والمعارك بالرماح في أماكن عالية تتجاوز ستة أمتار، والعجب حول قمم الجبال بيوتاً وفيها أنفاق على شاكلة غرف تحت كهوف الجبال وهي كبيرة كأنها تماثل المخابئ المعاصرة تحت العمائر، ومواقف السيارات أو البدروم.

قال العملاق: أنك أثقلتني بالسؤال عن جميع هذه الأشياء وأنا أريد أن أحادثك عن الواحدة تلو الأخرى.

قال: لعلى أبدأ بالمغاور التي في الجبال وهم لم يعثروا على أكثرها، فقد بدأت في عهد عاد، وفي زمن ملكهم شداد، فقد كان يحكي الأسلاف عن مغارته المجهولة تحت الأرض ولا يعرفها إلا القليل وهى تحت جبل، وفيها غرف متعددة، ومجالس، وشرفات، ومطابخ.

ثم قال العملاق: هذه وجدها رجل من حضر موت توارثنا روايته جيلاً بعد جيل؛ **فقال الذي غامر لدخولها واكتشافها** (فهيأنا شمعة وحملنا معنا إداوةً عظيمة مملوءة ماء وطعاماً مقدار ما قدرنا على حمله؛ ثم مضينا نحو ذلك الجبل الذي فيه المغارة وكان مشرفا على المكان، الذي يركب أهْل حضرموت منه البحر، فلما انتهينا إلى باب المغارة حزمنا علينا ثياباً وأشعلنا الشمعة؛ ثم ذكرنا الله تعالى، ودخلنا ومعنا تلك الإداوةُ وذلك الطعام، فإذا بمغارة عظيمة عرضها عشرون ذراعاً؛ وطولها علواً نحو خمسين ذراعاً؛ فمشينا فيها هوناً في طريق أملس مستو، ثم أفضينا إلى درجات عالية عرضٌ الدرجة عشرون ذراعاً في سمك عشر أذرع، فحملنا أنفسنا على نزول تلك الدرجات).

فقلت لصاحبي: هلم إلّي يديك، فكنت أخذ بيده حتى ينزل، فإذا نزل وقام قي الدرجة تعلقت بطرف الدرجة وتسيبت حتى تنال رجلاي منكبيه؛ فلم نزل كذلك وذلك دأُبنا عامّة يومنا.

قلت: هل كانوا يهدفون إلي الاكتشاف أم للذهب؟

قال العملاق: إن الأماني تدور حول العثور على الأموال.

قلت: فهل وجدوا في هذه المغارة ذهبا؟

قال العملاق: أنهم طافوا المغارة فوجدوا عملاقا مسجى في سرير والأغطية على أسلاك من ذهب، والسرير عليه قضبان من الذهب، فحاولوا أخذ الذهب وأخذوا ما استطاعوا حمله وأدركوا استحالة العودة من حيث أتوا لصعوبة الصعود، فرأوا ضوء كأنه نجمة وساروا يوما كاملا حتى أدركوها، فإذا هي بوابة البحر، ثم رأوا مركبا بعد أيام ثلاثة ورفعوا أيديهم له بإرادتهم وتقاسموا معه المال.

قلت: إذا يعودون مرة أخري.

قال: حاولوا، فلم يعرفوا العثور عليه مرة أخرى.

قلت: إن هذا الذهب ما زال يغري الناس حتى حفروا القبور و لم يقنعوا بالمغارات.

قلت: إذن أصلها مأوى، ومخبأ؛ ثم تحولت إلى قبر له؟

فقال العملاق: وذلك السرّ الذي جعل قبره مجهولا.

قلت: وهل كانت لكم عادة الاحتفاظ بالجثث في قبور داخل بيوتكم؟

قال العملاق: ليس الأمر كذلك؛ وإنما هذه بداية تبعه فيها السلاطين لسعة بيوتهم؛ ثم تطورت إلي الأهرامات.

قلت: وهل هناك من أمثالها؟

قال العملاق: كثير ولكنها اختفت الآن، ومثل تلك المغارات، وما يحفر لأجل المعادن، فإنها كثيرة تحت الجبال، وقد اهتدى إليها الضباع والسباع، والحيات، وأنتم اكتشفتم تلك المغارات لكن أهل البادية يمرون بالشيء، ولا يقفون عنده ويسبرون غوره.

قلت: لقد صدقت ولقد سمعت عن الولوج إليها حكايات وحكايات ويرون أن أحد المغامرين ولج إلي إحدى المغارات، فإذا بضبع ينظر إليه، فحاول الرجل حتى أمسك بذيله وأخذ يجره الضبع وهو يجرى مسرعاً والرجل متعلق به حتى وجد الضبع مخرجا من النفق.

قلت للعملاق: لقد عمرتم الأرض بسواعدكم القوية.

قال: وعقولنا المفكرة، وقوتنا، وتعاونا.

ثم أردف يقول: أمّا أنتم عمرتموها بفكر غيركم وبآلات غيركم، بل بسواعد غيركم.

قلت: يكفى أننا ندفع لهم أولنا.

قال: تنضب الأموال وتذهب الخبرة، ومعارفها وعلومها.

وقال العملاق: يؤسفني أنكم أمة مستهلكة أمّا قومي، فهم المنتجون المبدعون.

قلت: أنتم أسلافنا كنتم المبدعون المنجزون واستدار الزمان وأضحي غيرنا المبدعون.

قلت: لعل الجامعات الحديثة تعنى بالبحث العلمي، ولعل رجال المال والشركات يطبقون الأبحاث.

ثم قلت: أنت تفاخر وتلمز أحفادكم؟

قال: إنما هي الغيرة عليكم.

وقال العملاق: كنا نتمنى أن تكونوا سادة الأرض، وأنتم تملكون القيم، وأرضكم تنبع ذهباً وجبالكم تحوى معادن شتى، بل حتى الآثار يكتشفها الآخر، ويقرؤونها، ويوظفونها لتاريخهم، وقدراتهم، ونسيتمونا، ونحن المبدعون المنجزون، وتحول كل ذلك للرومان.

قلت: لعلنا نعود إلي المكتشفين من هذه المغارة.

ثم قلت: هل استخرجوا منها ملابس؟

قال: إن الملابس تحولت إلي رماد ولكنهم أخذوا سارية.

فقرأها قارئ فوجد فيها الأبيات التالية:

اِعتبر بي أّيها المغـــرورٌ بـــالعمر المديـــد

أنا شدّاد بن عادٍ صاحبُ الحصن العتيد

وأخـــو القـــوّة والبأســـاء الشـــديد

وبفضل المُلك والعدّة فيـــه والعديـــد

دان أهلُ الأرض طواً لي مـــن خـــوف
وعيـــــــــــــــــــدي

وملكتُ الشرق والغرب بسلطانٍ شديد

فأتى هوٌد وكنا في ضلال قبـــلَ هـــود

فدعانا لو قبِلنـــاه إلي الأمـــر الرشـــيد

فعصيناه ونادينا الأهـــل مـــن محيـــد

فأتتنا صيحة تهوىِ من الأُفـــق البعيـــد

فَتوافينا كزرعٍ وسَطَ بيـــداءَ حصـــيد

العملاق

(١٨)

رحبت بالعملاق وأنا مطل على آثار مدينة مندثرة في قمة مسطحة تسمى الرجم.

فقلت: إن هذه المدينة من آثاركم؟

فقال العملاق: إن قوم عاد هاجروا قبل العذاب وبعده، وهذه كانت بيوتهم وبيوتاً أخرى لقوم ثمود، وقد أندثر كثير منها، والأرض التي تراها من أفضل الأرضيين لزراعة الحبوب.

قلت: والدليل على ذلك أن أجدادي القريبين يحرثونها ويزرعونها وقت الأمطار، وكل قمم حرة الرهاة تجد فيها مزارع.

وأردفت أقول: إنني ما زلت أتمنى منك أن تحدثني عن عاد وشتاتهم في الأرض.

قال العملاق: إن الحديث عنهم لا ينتهي وهو حافر للذاكرة.

قال: مواصلا حديثه.

أولا: إن الدمار حلّ بالمركز العاصمة لهم في الأحقاف.

قلت: ما طبيعة أرض عاد قبل نزول العذاب؟

قال: هي الجبال شبه دائرية تحتضن المزارع، أو التلال ويذكر الأقوام جبلاً هناك يسمونه الأحقاف غير السهول الممتدة وتخللها الغابات والبحيرات هي الأكثر.

وقال: إن بعض أهل القص الذين سمعت عنهم يدخلون جبال حسمي في بلاد عاد وثمود، وهي ليست بالبعيدة عنهم.

قلت: إن الأكثر المتعارف عليه حصرها في الربع الخالي.

قال العملاق: لأن الحدث الأكبر والدمار الشامل فيها.

قلت: وهل طال الدمار (حضر موت) القريبة منها؟

قال: لا إن عليها أبنا لشداد هو مرثد بن شداد عاصر الحادث، وأصيب شداد: حتى دنا أجله، فأحتفر له ابنه مرثد المغارة العظيمة: ليستوطنها وهم من العماليق ذات العماد، ويختفي فيها في مرضه فهي عادة تلك الملوك يحتجبون وقت مرضهم، وضعفهم، ومات شداد في مغارته التي اكتشفها بسطام من حضرموت.

قلت: إما السلاطين المعاصرين، فأمرهم واضح من لحظة أصابتهم بأي مرض تنقل الأخبار عبر دخولهم المستشفيات وكذلك أخبار الموت بل نحن رأينا الملك فيصل عام 1995م والملك خالد والملك فهد والملك عبدالله وهم أبناء الملك عبد العزيز آل سعود وهم ملوك لدولة لها مكانتها العربية والإسلامية وهم على

نعوشهم البسيطة وفوقهم مشالحهم وجموع المسلمين يشيعونهم ويضعونهم في المقابر كأي فرد من المجتمع إنها الروح الإسلامية.

ثم قلت وشمال الأحقاف: هل طالهم ما طال الأحقاف؟

قال العملاق: سلمهم الله واعتبروا، وكان لهم أقرباء ممن أهلكهم الله، وكانوا يخضعون لملك الأحقاف شداد الذي **يقول:**

دان أهل الأرض لي مـــن:. خوف وعـــدي ووعيـــدي

قلت: هل الملوك الأوائل لم يعتنقوا أدياناً، و لم يضعوا دساتير وهم حكماء بارون بشعوبهم؟

فقال العملاق: إنما أكثرهم جائرون مستبدون يقتلون على أي خطأ أو الجنحة، ويدمرون الأسر.

قلت: لهذا أرسل الله عليهم الرسل، ولما عصوهم دمرهم الله.

قلت: لما هلك ملوك عاد الجبابرة؛ **ماذا حدث؟**

قال العملاق: بدأ الأمراء والسلاطين التابعين لهم، يستغلون، ويبنون ممالكهم ويعدلون ويرهبون حادثة عاد ولما طال العهد، وقد كانت الأرض ذات خيرات والسحب غزيرات، والأجسام قويات، والعيون نابعات: فطغى عليهم الخير، وتكبروا ، وتجبروا، فلما وعظهم الحكماء والرسل؛ **قالوا:** إن قوم عاد لم تكن عندهم جبال تحميهم، ويحفرون فيها البيوت، فتداعى قوم عاد وقوم ثمود وقالوا إن بيوتنا من طين وأنها لم تمكث مائة سنة ونحن نُعمر ألف سنة وكذلك خشية الريح التي دمرت قوم عاد، فاتخذوا الجبال بيوتاً يحتمون بها عند النوازل.

قلت للعملاق: وهل كل الأراضي فيها جبال صالحه فيها للأحتفار والنحت؟

قال: لقد انتقل كثير منهم إلى الجبال التي حول البحر وحول الجبال الصلدة، فحفروا مدائن، وحفروا في جبال حسمي، وكان ملكهم الشديد القوى في ديدان أو الحجر أو العلا والخريبة في العلا وعلى رؤوس جبال السروات شمالاً وجنوبا.

وقال: ملوكهم لن يستطيع العذاب عليهم، فإذا داهمهم السيل أو الرياح العاتية فهم يلجئون إلى تلك البيوت؟

قلت: إن الله قادر على أن يقتلع الجبال ويدمرها بما لا يدركون، ويجعل الجبال ترابا تذروها الرياح.

قال العملاق: ذلك ما شهدت أكثره، ورصعني بالشيب مبكراً، وعمري لم يتجاوز الألف سنة، وهذا ما فتك بأكثر أسري وأقربائي، فالمهلكات من الكوارث متعددة، فالرياح، والسيول، والزلازل، والبراكين، والحروب.

قلت: عساك اتخذت عبرة، ووحدت الله، وآمنت بالأنبياء، والرسل، وشرائعهم.

قال العملاق: **الحمد لله**، وهذه أعظم من الحياة والأولاد والممالك.

قلت: كل ما أريد في هذه الجلسة أن أتعلم منك أسباب نحت الجبال لكن تأخذنا الموضوعات ذات اليمين وذات الشمال.

قال العملاق: نحن نتحاور حسب توارد الخواطر والأفكار، فهي تطرأ مع الحوار.

قلت: إن السيول من رحمة ربي؛ فكيف تضعها بجانب الكوارث؟

قال العملاق: إن الأرض مرتوية ماء، وأن الأودية فيها عيون جارية، وبحيرات متعددة وتهطل الأمطار بكثافة فتنحدر السيول، وتجرف الأشجار والحيوانات والمزارع.

العملاق

(١٩)

تم الموعد على أن نلتقي في الحجر كي يكون دليلا لي على حقيقة ماضي هذه البيوت، فقد طال الجدل حولها، وقد يوحي بأنها بيوت سكنية، لكن قراء الآثار جعلوها بيوتا مقبرية للأموات.

قال العملاق: كنت هنا ورجال عشيرتي، فهذه كانت منازلنا التي اندثرت، فاليوم تراها أثر بعد عين فلا حجر ولا حائط طيني، وتبعثرت الحوائط الحجرية ونري بعض الأحيان معالم آثار الحجرات التي كانت تحتها بيوت وحجرات التي تشبه أكواخكم المعاصرة.

فقلت له: تبين لي من أقوالك السابقة إن هذه الحجرات المنحوتة في الجبال هي في الأصل بيوت وليست مقابر.

قال العملاق: أجعلتموها مقابر لآل عاد الذين أضحى كثيراً منهم في مواطن ثمود، وقد ارتحلوا إليها، وخلفهم من بعد قوم ثمود **وهم**: متناسلون من بعضهم.

وقال العملاق: قلت لك إن المباني الحجرية في متون الجبال، وعلى رؤوسها للسكن، والمأوى ولخزن الضروريات، ولما سمع الناس بالعاصفة، التي اقتلعت بيوت عاد الأرضية، وطمرتها الأتربة أرادوا إن يأووا إلى مأمن لهم، فبنوا البيوت على الجبال، وأحضان الجبال بعيداً عن التيارات الهوائية، ثم أحتفروا الجبال، وانتشرت ثقافة الأنفاق، والمغاور.

بل يروي لنا الأسلاف" أن ملكهم جُندع بن عمرد بن عمرو، كان عندما يذكرون له هلاك عاد بالريح **يقول**: إنما هلكت عاد لأنها لم تكن تشيد بنيانها و لم تُخلص لمعبوداتهم وتتفاني في خدمة آلهتها، وكان بنيانهم على الطين، ونحن أشد قوة، وبناء، وبلادنا صخرية".

ويقول العملاق: لذا أمر باتخاذ الجبال بيوتا، فنحتها في الصخر لئلا يكون للريح عليها سبيل.

قلت: وهل أخذوا بأوامره وشرعوا بالبناء؟

قال العملاق: لكل منها حكاية، أمّا النحت في الجبال، فقد بدأه قومي قوم صالح، فإن ملكهم جنُدع لما استقر في المناطق الجبلية، وعلا شأنه، وشأن قومه، فكر في بناء دولته وفيما يحمي قومه وجمع الصناع وأصحاب الخبرة مع كبار قومه، وتدارسوا طريقة لدوام البناء وقوته، ووقوفه في وجه الرياح العاصفة.

قلت: هذه أولى النقاش العلمي.

قال العملاق: إن الملك أشرف على الجدل والحوار والنقاش وأخذ يتخذ القرارات الفورية.

فقال له الصناع: إن الذين يدركون النحت أعدادا قليلة، فأمر بجمع الصناع وأمرهم أن يعلموا شباباً مهارة النحت، وجعل فريقا من المهرة وأهل الرأي لوضع خطة لبناء المنازل المنحوتة، وانتشرت ثقافة النحت والبناء في سنين معدودات لا تتجاوز مائة عام وهي قليلة مقارنة بأعمارنا.

قلت: هل مكثتم وقتا طويلاً وأنتم تبنون؟

قال العملاق: لم يتجاوز الأمر مائتي سنة.

قلت: إذن هي حركة بناء قريبة من حركة البناء والعمران المعاصرة في بلادنا وأنت عندك خبرة بكل الحركتين.

قال العملاق: والله إني شاهد على ذلك، فالحركة العمرانية المعاصرة التي أشبه بالسحابة التي غطت جزيرتكم لهي من عجائب الدنيا، فأنا أعرف هذه الصحارى وهذه الجبال والتلاع كلها جرداء من المباني بل من الحياة.

قلت: فالحياة تعود إلي هذه الجزيرة بعد تصحرها الطويل.

قال العملاق: عادت بشاكلة جديدة.

قلت: هذه التماثيل في الجبال والنقوش التي تدعو للعجب؛ كيف تعلمتموها أم أنها موهبة؟

قال العملاق: دعا الملك مرة أخري إلي اجتماع يضع خطة للمعابد وأجتمع رجال الفكر وقرروا أن يكون المعبد الرئيسي: غريباً عجيباً، فخماً حتى يرهب الناس ويقدسونه وجمعوا مهرة النقش وعلموها لأعداد كبيرة من الشباب.

قلت: إن هذا مشهد علمي وإن كانت النتيجة باطلة ماحقة.

قال العملاق: إنه الجهل والتعالي، وقد اجتمعوا من أجل صناعة صنم ضخم لا نظير له يعبدونه، ويفتخرون به، ويكون سيدا لأصنامهم.

قلت: وهل لقيت دعوة ملكهم قبولاً من الجميع أم هناك موحدون معارضون؟

قال العملاق: اتفق الملأ على نحت صنما متميزا في جبل، ووجدوا أن أفضل جبل هو الكثيب ونحتوا هيكل الصنم على صخرة كبيرة أولاً واقتبسوا أجمل ما في الحيوانات، ثم بعد أن رأوا غرابة الصنم نحتوه في جبل الكثيب وجعلوا وجهه وجه إنسان، وعنقه وصدره كالبقر، واستعاروا هيكل اليدين والرجلين من الخيل.

قلت: هذا لا يكلفهم شيئاً.

قال العملاق: بل كسوه من الذهب والفضة: وضعوا له تاجاً، ورصعوه بالدر والجوهر، ثم بعد ذلك اجتمع حوله ملكهم وأعيانهم، وخروا له سجدا.

قلت له: وكيف تكون عبادتهم؟

قال العملاق: يقربون له قربانا، ويهدون له هدايا، ثم يتوافد عليه الناس ليقضى لهم حاجات ويشفى أمراضهم كما يزعمون.

قلت: إن هذا الذهب والفضة والجواهر مدعاة لسطو الناس عليها.

فقال العملاق: إن الملك أمر ببناء بيت حوله: وان يسقف بصفائح الذهب والفضة ويرصع بالجوهر، وتفرش أرضه بالديباج وهذه عليها قائمون منظمون موثوق بهم وهم من علية القوم، وأعوان الملك.

قلت: لنعود للبيوت ونحتها، فالسؤال الأول: كيف تأوي هذه الحجرات العماليق، ويستوطنوها مع ضخامتكم وصغر حجمها؟

قال العملاق: كان مخطط البناء يناسب أحوالهم، فهم يبنون من الطين والحجارة لكنها لا تدوم طويلا، ثم هم يخشون اقتلاعها، فهم يبنونها بجانب ما احتفروه في الجبال حتى يستخدمون هذه، وهذه حسب الأحوال.

قال العملاق: ألا ترى لهذه الأرض المنبسطة أمام الحجرات، فقد كانت مباني واقعية، لكنها اندثرت، ولم يبق إلا المغاور، والحجرات.

قلت له: إن أكثر الأثريين يرون ٢٥٥

أنها مقابر، ولا يعترفون أنها في إطار البيوت.

قال العملاق: أنت تدرك أن أبونا آدم ستون ذراعاً طولاً، وتخيل كم يكون العرض للعملاق الأول

فهو: لا يقل عن ستة أذرع.

وقال: إن أكثر أقوامي رؤوسهم، كأنها قمة جبل صغير، وأن عيونهم وانفوهم تقيل فيها السباع بعد موهم، وأن كثيراً منهم أطول من النخيل.

فقال العملاق: فقل لي بربك كيف تتسع هذه الحفريات التي تسمونها قبوراً لمثل هؤلاء.

بل يقول العملاق: ولمثلى كما ترى.

وقال العملاق: بل القرآن سماها بيوت.

قلت: ألم يطلق على المقابر بيوتاً.

قال العملاق: الأصل إن الإنسان ينفر من ذكر محتوى المقابر، فلم نسمع بتسمية المقابر بيوتاً، بل البيوت منزهة للسكن والحياة.

قلت: كيف تتسعكم أحياء ولا تتسعكم أموات؟

قال العملاق: إنها في الأصل مخازن، ومطابخ، وللزينة، والملابس، فإذا حدب الأمر، فإنهم يجتمعون فيها للضرورة مع صعوبة ذلك ويقفلون عليهم أبوابها الحديدية الضخمة، فتمنع الرياح، والهواء وهم في ارتفاع عن طمر الأتربة.

قلت: أنا أعجب؛ كيف تم بناؤها وهل عندكم القدرة على حفرها، وأنتم في الأرض؟

فقال العملاق: الأمر ليس كما تتصور، فالعملاق ينالها وهو واقفاً أو ترفع على حجارة ضخمة كانوا يجلبونها لتكون مثل العتبات، ثم إذا اتسعت الحجرة ومساحتها، فإن العملاق يجلس فيها، ويحفرها، ويصنعها.

قلت: وهذه الدرجات كيف تحمل العملاق؟

قال: هذه لأطفالنا، ونسائنا، أما الرجال، فيصعدون بلا درجات، وبعضهم يصنع حجارة مرصوفة.

قلت له: هل منعت عنهم الرياح الهوج؟

فقال: نعم التي لم يرد بها الله العذاب.

قلت له: لكننا وجدنا فيها آثار عظام، وكأنها مقابر.

قال العملاق: نعم أنا أدركت هؤلاء، فهم أقوام متأخرون، وقد قصر طولهم، وخف وزنهم، فهم أشبه بكم منا هؤلاء، كان بعضهم ملوكاً وأمراء، فكونوا لهم ولايات، وعاصروا الفراعنة، وبدءوا يبحثون عن مقابر حصينة، فبنوا الأهرامات، واتخذ المعاصرون لهم الحجرات قبورا، فتحولت من المخازن إلى مقابر.

قلت: وهذه سنة الحياة، ولكل أزمان وأمكنةٍ، وثقافات، نمط وأنماط للحياة.

العملاق

(٢٠)

قلت للعملاق: هل أنت من قوم ثمود أم أنت من جميع الأقوام؟

قال العملاق: نعم، أنتمي إلي عاد وثمود وكان أجدادي يستوطنون الحجاز، ووادي القرى، وديار الحجر، والحرات، حرة العويرض، وقمم حرة الرهاة، ووادي الجزل ،وبدا ،الديسه، وحسمي.

قلت: ما دام أنك من قوم عاد؛ فكيف تركتم أرضكم الجميلة قبل التعذيب؟

قال: لو طال عمري وعمرك وأمليت عليك مشاهداتي للهجرة من هذه الجزيرة، وأسبابها الكثيرة لرأيت عجباً ولسمعت، غرائباً ولأحسست ألماً.

قلت: ليتني أكون كاتباً لك تملي عليّ، وأتأمل في حروبها ومخاطر دروبها، وفتك الفتاك، وترك الأوابات للأوطان والغربة في الطرقات والمستوطنات الجديدة والحرمان من لقاء الأمهات والأولاد وحنين الأمهات وفقر الزوجات وانتظارهن لآوية الأزواج.

قال: الهجرات في الزمن السالف يهون دونها خيال تغريبية بني هلال، فتكون تارة من القبائل، وتارة بالأسر وهم يدمرون ما يجدونه أمامهم، وتارة يهلكون جميعاً، وتارة يتفرقون أشتاتاً أشتاتاً، وكم تركوا من أرملة بأولادها، وكم تركوا من أطفال، وكم تركوا من مريض يئن أنها مروعات شهدتها.

قلت له: أنت ترث أرضنا وبلادنا، فهل نحن من أحفادكم؟

قال: الأمر ليس ببعيد.

قلت: فأين نحن منكم بسطة في الجسم، ووفرة في الأموال، وقد أمتد بك العمر وتطاول بك الزمن ونالت منك الشيخوخة، فلم تظهر علينا معالمكم الآن، فالمقارنة بيني وبينك بعيدة مع المعاناة التي ابتليت فيها لعمرك المديد.

قال العملاق: كل شيء في تناقص، وقد شهدت العماليق وشهدت أحفادهم الأقزام، وشهدت ضخامة الشجر، وتضاءل حجمه، وشهد ضخامة الإبل، وتصاغر أحفادها، وشهدت أن الأشجار تثمر مرتين في السنة مثل النخل، العنب، والحمضيات ،البرتقال، الليمون، والبندورة، وشجرة ألبان وشاهدت ضخامة الثمر وشهدت مراحل تصاغره وشهدت البحيرات، والجداول الجاريات، وهذه الجبال كانت صغيرة فمن رؤوسها نتناول ثمار الشجر وفي رؤوسها نعتصم من الوحوش ومن أعاليها نقفز على الفيلة ووحيد القرن.

قلت له: فهل تحولنا إلى هذه الأطوال القصيرة نتيجة الجوع ونقص الثمرات؟

قال العملاق: أولاً هذه إرادة الله، فيأخذ المكونات الحياتية بالتناقص.

قلت كيف: هل أنتم تتكاثرون أكثر من توالدنا؟

قال العملاق: **نعم**، لم يلبث أجدادنا بعد عاد حتى عادوا إلى كثرتهم، وتكاثر أموالهم، فأورثهم التجبر والطغيان: فنحن بلغنا عددا من القبائل في منطقة الحجاز وكل قبيلة عدد رجالها أكثر من سبعين ألف رجل عدا النساء والأطفال واستوطنوا الأودية والجبال والشعاب، وعلى أحواض الأنهار، والبحيرات التي اختفت وطمرتها الأتربة.

قلت: معنى ذلك أنكم ملأتم الأرض بشراً، وكسوتموه عمراننا؟

قال العملاق: تصور أنه تمضى مائة عام لم نشهد فيها جنازة.

قلت: بقوتكم هذه عمرتم الأرض؛ فكم يمكث الرجل لبناء منزله ومزارعة؟

قال العملاق: قوتنا تزداد، فالرجل وأسرته يزرعون ما يقارب من مشاريعكم الآن أو أكثر.

قلت: يعنى يزرع الرجل ألفى متر في ألفى متر.

قال: نعم.

قلت: نحن نسير في هذه يوماً كاملاً.

قال العملاق: هذه يقطعها أحدنا في دقائق قليلة، فخطوتنا أكثر من خطواتكم بعشرة أضعاف.

والواحد قادر على تحطيم الصخرة الكبرى، ودفعها إلى حيث يريد، وأحدنا يحمل الطن من الحبوب، ويدخره، ومبانينا تحوى على مخازن الحبوب التي اكتشفنا قدرتها على أن تمنع عنها الشمس، والحشرات ولها أماكن يتدفق منها الحبوب وقت الحاجة، ولها صمام يقفلها.

وقال العملاق: ومن قوتنا أننا هاجرنا إلى بلادكم لكثرة الحجارة لنبتني بها بيوتا قوية تستمر زمننا طويلاً وما زالت مجالسنا، ومنازلنا في جبالكم، ولو اطلعت على المباني، وعلى المزارع، وعلى أملاك الإبل والأغنام، والأبقار في هذه الأودية لذهلت من هذا النعيم الذي كنا نتصوره لا يزول، ويكفيني شواهد على ما

قلت: تلك المحافر في الجبال والمغاور تحت الجبال، فإن الكثير منها تعمله أسرة تنتمي لرجل واحد، وتحفر هذه المغارات لضرورتها لهم، وهى أكثر من مائة ذراع وعرضها مثل ذلك.

قلت: إنني أرى في قمة جبل اللوز مكان لنحت الصخور الصلدة، وذات البياض الناصع، كأنها مرمر، وما زال مكان أنزالها كأنه درج، فما حكاية ذلك.

قال العملاق: أنا قرأت كتابك **<<تبوك قديما وحديثا>>**، وأرى أنها من جن سليمان.

قلت: ذلك تحليل، وكثير من التحليل من باب الظن، والظن لا يغنى من الحق شيئاً.

قال العملاق: لا تزهد في رأيك، ففي الأمر شيء من ذلك، ولكن العماليق هم الذين بدءوا ذلك، وعملوا ما عملوا، ونقلوا بعضها إلى بلاد الشام على العربات التي تجرها البغال، والخيول.

وقال العملاق: ولكن لما بعث الله سليمان بن داود عليه السلام أراد أن تكون هناك أعمال أكثر قوة وقدرة، فاستخدم الجن، وكانوا أكثر قدرة وأكثر جمعا، فأخذوا كثيراً من هذه الحجارة وحولوها إلى أعمدة في بيت المقدس، ثم اتبعوا ذلك بالعمل بها أعمدة في البلقاء (عمان) وجرش.

قلت للعملاق: هل لأجدادك دور في بناء تلك المباني وتلك الأعمدة التي في الشام، فهل سبقتكم الرومان إليها.

قال العملاق: إن الرومان لهم السطوة التاريخية أمّا القوة العملية، فهي لأجدادي قوم عاد وثمود، فهم الذين هاجروا وسميتموه الفينيقيين والكنعانيين، وبنوا هذا، وربما اقتدى بعملهم الرومان لمعابدهم.

وأردف يقول: إن التاريخ ظالم أو كتبة التاريخ ظالمون.

قلت: معني ذلك أن سيطرة التاريخ للذين يكتبون التاريخ وليس للحقيقة والواقع.

قال العملاق: أنظر إلي تاريخ الدولة كيف يزول بزوالها ولا سيما إذا كتب المؤرخون تاريخها في عهد الدولة الجديدة، فلنضرب مثلاً باندثار تاريخ الفينيقيين والكلدانيين، والأمويين وكذلك الفراعنة من قبل.

قلت: هل سمعت أو شهدت نقل الجن للحجارة من جبل اللوز إلي بيت المقدس؟

قال العملاق: إنها حكايات أشبه بالأساطير، إن الناس يسمعون ضرب الجبال ليلا وتحدّر الحجارة من قمة الجبال ليلاً ونهاراً، ونري أعمدة الحجارة الضخمة كأن تسير لوحدها بينما يحملها الجن التي لا نراهم ولكننا نري الحجارة.

قلت: ألم يفزع الناس من هذه الإنفجارات الحجرية؟

قال العملاق: بل قد هاجر الناس وتركوا منازلهم ومزارعهم.

قلت: إن أهل الجبل ما زالوا يتوارثون بل يرون، جموعاً من الظلال الخضراء تسير فهم يرونها في أوقات المفاجآت ويذهلون منها حتى إذا اقبلوا عليها توارث واختفت ويسمونها الوجوه الخضراء.

قال العملاق: لعلهم من أحفاد الجن الذين اسلموا مع محمد صلي الله عليه وسلم.

العملاق

(٢١)

اتفقت وصاحبي العملاق على أن نمكث أياما في بلادهم بلاد أجداده الثموديين.

فقلت له: أرى كثيراً من المعالم التي لها أنماط خاصة في الجبال وتارة في المنخفضات بين جبلين هل هي معابد، وماذا يعبد أجدادكم زمن إرسال هود إلى عاد، وإرسال صالح إلى ثمود.

قال العملاق: إن أمر العبادة هذا لعجب!

قلت له: كيف هذا؟

قال: إن أولها تقرب إلى الأولياء والصالحين الذين ألهمهم الله بالنبوة أو الكرامة، فهم يدعون إلى عبادة الله، وبعضهم تكون له كرامات فيشفي من الأمراض ،والتباس الشيطان بكثير من أهل الكرامات وقبورهم، فتكون هناك غرائب بالأحاديث، ومعرفة ما يطرأ أو معالجة الجن.

قلت: هؤلاء يموتون؟

قال العملاق: ولكنهم يأتون إلى قبورهم وواصل العملاق مقولته ألم يكن أجدادك الأقربين يزورون قبور الأولياء والصحابة والأشجار ألم يقطع عمر شجرة البيعة، فأين أنت من قبور الأولياء والصحابة، وأين أنت من الشيخ حميد، بل إن الكثير في الجزيرة يزرون القبور بقصد الشفاء لا الاعتبار والدعاء.

قلت: صدقت في ذلك: لكن لنعد إلي بداية الأصنام حتى لا نتيه وتجرف الخواطر.

قال: نتيجة طول العهد عملوا لهم بمساعدة الشيطان هياكل قريبا من قبورهم، ثم تكاثر البشر، وتصارعوا، وتحاربوا، فصنع الملوك الأصنام الكبيرة لهم، ثم تنافست القبائل، فبنوا المعابد لكل قبيلة وتارة لكل أسرة، ثم أضحى كثيرا من الأفراد يصنع له هيكلا يعبده.

قلت: لكن هذه الكثرة التي نجدها في قبورهم أو ديارهم من الهياكل كلها للعبادة.

قال العملاق: أولا أنهم يتعبدون بصناعتها، ثم يتفاخرون بكثرتها، ثم يظنون أنها تتوالد، وتتكاثر بصناعة الهياكل الكبيرة والصغيرة، فتجد قصور الملوك بجانبها قصور للأصنام فيها ألوان من الهياكل، بل إن بعضهم اتخذها تجارة.

قلت: تحدث عنها القرآن الكريم في قصة إبراهيم عليه السلام قال تعالى **{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ} [الأنبياء: ٦١ – ٦٤].**

ثم قلت له: لكني أرى صوراً على الجبال القابلة للنقش، والنحت، وتارة أبنية.

قال العملاق: لكل منها حكاية، أمّا النحت في الجبال، فقد بدأه قومي قوم صالح، فإن ملكهم جنُدع لما استقر في المناطق الجبلية، وعلا شأنه، وشأن قومه، نحتوا الجبال فجمع الملك جُندع كبار قومه وملأهم ليتشاوروا حول عبادتهم.

قلت: اجتمعوا من أجل ماذا؟

قال العملاق: من أجل صناعة صنم ضخم لا نظير له يعبدونه، ويفتخرون به، ويكون سيدا لأصنامهم.

قلت: هل تذكر عن نتائج هذا الاجتماع.

قال العملاق: اتفق الملأ على نحت صنماً متميزاً في جبل، ووجدوا أن أفضل جبل هو الكثيب ونحتوا هيكل الصنم على صخرة كبيرة أولا واقتبسوا أجمل ما في الحيوانات، ثم بعد أن رأوا غرابة الصنم نحتوه في جبل الكثيب وجعلوا وجهه وجه إنسان، وعنقه وصدره كالبقر، واستعاروا هيكل اليدين والرجلين من الخيل.

قلت: هذا لا يكلفهم شيئا.

قال العملاق: بل كسوه من الذهب والفضة: وضعوا له تاجاً، ورصعوه بالدر والجوهر، ثم بعد ذلك اجتمعوا حوله ملكهم وأعيانهم، وخروا له سجدا.

قلت له: وكيف تكون عبادتهم.

قال العملاق: يقربون له قربانا، ويهدون له هدايا، ثم يتوافد عليه الناس ليقضى لهم حاجات ويشفى أمراضهم كما يزعمون.

قلت: إن هذا الذهب والفضة والجواهر مدعاة لسطو الناس عليها.

فقال العملاق: إن الملك أمر ببناء بيت حوله، وأن يسقف بصفائح الذهب والفضة ويرصع بالجوهر، وتفرش أرضه بالديباج.

قلت: وهل هذا هو الصنم الأوحد؟

قال العملاق: بل هناك أصنام كثيرة حوله أصغر منه نحتوه من الحجارة ومرصعة بالذهب والفضة.

قلت للعملاق: كيف تأتون بهذه الأصنام من الذهب والفضة والجواهر.

قال العملاق: إن الأمر ميسور وسهل هناك مغارات تحت الجبال لتصنيع المعادن.

وأضاف العملاق: إنني رأيت بعض آثار الذهب والفضة والقناديل والسرير للصنم الأكبر وحوله الأصنام الصغرى.

قلت: وهل أثرت الأصنام على القوم وعبادتهم؟

قال العملاق: نعم، رأوا أن البركات تنزل عليهم بسببها فزادوا تعظيما لها وكفرا بالله وهم ينسبون كل خير للأصنام وصدق عامة الناس أسيادهم.

سألت العملاق عن: أنواع المعابد التي نرى معالمها أو نحن نخطئ في القراءة لها.

فقل لي: كيف كانت المعابد في الأماكن البعيدة عن مراكز السلطان الأعظم؟

فقال العملاق: إن الذي تستدعيه الذاكرة إن كل قبيلة تصنع له معبداً يجتمعون حوله، وله قائم يقوم عليه ويرتزق من ورائه وهو قادر على الشعوذة والإيهام والإقناع بحكايات وهمية لقدرات هذا المعبد من الشفاء للمرضى، والجمع بين المتخاصمين والتفريق بين الزوجين أو جمعها، ويعوذ بها الأقوام عند النوازل.

فقال: هناك تكون معابد في سفوح الجبال، تارة في أحضانها وتارة في قمم الجبال الصغيرة، وهم يصنعون الصنم في مبنى من الحجارة ولهم طقوسهم حول تلك المعابد، فمنهم من يطوف بها ومنهم من يأتيها من جهة وينزل من جهة أخرى، وقد هجرت منذ قرون، وتري معالمها في منخفضات الجبال الصغيرة.

وهم يأتون بالقربان من الهدايا، ويقدمون الذبائح حتى يتغذى بها القائمون عليها باسم البركة.

قلت: إذن المعابد معناها: أنها تجمع الأصنام والهياكل التي تقربهم إلى الله زلفى وتكون مصدر رزق للجميع.

قال العملاق: بعضهم يرى أنها واسطة إلى عبادة الرب، وبعضهم وأكثرهم من البسطاء البعيدين عن المعرفة التابعين لأقوال كبارئهم، فإن هؤلاء يرون أنها الآلهة الحقيقية وبعضهم يجعلها في دائرة الشمس تعظيما للشمس أو القمر.

ثم قال: الواقع أن الملوك والأمراء والسلاطين يتخذونها لجمع القوم حولهم ، ولجلب الأموال، وللتسلط على الناس بما يوحون للمسئولين عن الأصنام.

العملاق

(٢٢)

قلت للعملاق: إن التاريخ يذكر نتفاً من الأقوال حتى الأصنام لكنه لم يفصّل القول حـــول كيفيـــة العبادة، وأنت الآن عاصرت أو سمعت عن قرب وأدركت كيفية العبادات.

قال العملاق: كانوا يحددون يوما يجتمعون فيه إلى آلهتهم الكبرى يأتون بقرباهم من الذبائح والهـــدايا ويسجدون له.

قلت له: كل هذه عبادهم يوما واحد في السنة، ثم ينسون ذلك.

قال العملاق: الأمر غير ذلك، فإن لكل منهم صنماً خاصاً به وبعض جماعاهم وأسرهم، يصنعون لهم آلهة، ثم يحملون تلك الآلهات الصغيرات، معهم في يوم الجمـــع الأكـــبر أمـــام الآلهـــة الكـــبرى في جبـــل (الكثيب)والذين يتوافدون إلي الآلهة الكبرى والآلهة الثابتة الصغرى هم الذين يصابون بالابتلاء، كالمرضـــى أو الذين لم ينجبوا أو الذين يموت أولادهم في طفولتهم، أو المضطهدين من الناس أو ممن يطلب البركة.

قلت: هل يذكر أسلافك أن هناك صالحين أو أنبياء يدعون القوم إلى عبادة الله؟

قال العملاق: نعم، لكن قوم ثمود تجبروا، وتكبروا، وعتوا، وكفروا بالله.

قال: فأرسل الله إليهم أخوهم صالحاً، فدعاهم وكرر الدعوة لهم ومكث أربعين حولاً.

قلت: وهل آمن معه أحد؟

قال العملاق: الذين أمنوا معه عددهم قليل.

قلتّ: وماذا فعل صالح؟

قال: واصل الدعوة والحوار والتنقل بين القرى والأقوام، وأغتنم كل اجتماع فيدعوه، ولكن غلبة أهل الشر أكبر.

قال العملاق: غضب عليهم، فدعا الله عليهم بالهلاك، فعاتبه الله أنك لم تصبر، واتخذ صالحا طريقـــة بين الجبال حتى شعر بالظمأ والجوع.

قلت: إنه نبي يحميه الله من أن يصل إلى مرحلة الهلاك.

قال العملاق: نعم.

قلت: أتمنى أن أعرف حكاية الإنقاذ له.

قال العملاق يروون: أنه رأى سريراً نظيفاً في أحد الافياء، وتكاد الجبال تكون له سقفاً، فاضـــطجع عليه ،ونام نومه طويلة.

قلت: كم تقدرونها؟

قال: أربعين سنة، ثم عاد إلى قومه، وعقد أمره على الصبر، فأخذ يدعو قومه، وقد أثر فـيهم غيابه فلانت له بعض القلوب فتقبلوا منه، وأرادوا حواره، فطلبوا منه معجزة، وتمّ ميقات الموعد يوم خروجهم إلى آلهتهم الكبرى.

قلت: وعلى ماذا اتفقوا؟

قال العملاق: سألهم صالح ماذا تريدون؟

قالوا: نرى عند الآلهة.

قلت: وهل هم يعتقدون اعتقاداً صادقاً في استجابة أوثانهم؟

قال العملاق: إنهم يثقون فيها مما جعلهم يوصون أوثانهم ألا يستجيبوا لصالح، ثم واصل حديثه.

فقال: لما اجتمعوا دعوا أوثانهم وتوهم لهم استجابتهم لأشياء طلبوها.

قلت: ولعل الشياطين دعموا الموقف وأوهموهم ووعدهم.

قال العملاق: الله أعلم.

وقال: ملكهم جندع بن عمرو: يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة من صخرة الكائبة، ناقة ضخمة وتابع القوم ملكهم.

وقالوا: إن فعلت ذلك أمنا بك وبرسالتك وأخذ عليهم صالح المواثيق على ذلك، فعاهدوه كل ذلك على مشهد من الجمع حول كبير الآلهة وملكهم.

قلت للعملاق: هذه الجبال لها أثرها الكبير على حياة أجدادك فمنها بنوا بيوقم وعلى جبال الكثيب أقاموا آلهتهم، فهم يحتمون بها من آثر الرياح الهوج ويعتصمون بها ،فهل الجبال مقدسة عندهم.

قال العملاق: وأنت ترى أنهم طلبوا إخراج الناقة من صخرة الكائبة.

قلت: كيف ذلك.

قال: إن الملك طلب من صالح أن تخرج الناقة من هذه الصخرة على مشهد من الجمهور، وأيده قومه.

قلت: وماذا فعل صالح؟

قال العملاق: يرون عنه أنه أعطى آلهتهم ظهره ورفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو الله وأحدقت أبصارهم نحو الصخرة، فإذا بهذه الصخرة تتحرك وتتمخض تمخضاً ظاهراً، وقد استدعى الجميع حالة المرأة الحامل التي داهمها الطلق والولادة، ثم تحركت الهضبة حراكاً شديداً، فانصدعت الصخرة وخرجت منها الناقة، فآمن معه الملك جُندع وكاد يؤمن جل القوم لكنهم سمعوا نفث الشيطان، وأطاعوا العاصين منهم، ومن أجلّ القوم وأعظمهم الزعيم شهاب الذي يطيعه الآلف، فكان أقرب إلى الإيمان ولكن قومه ثنوه عن ذلك.

فقال العملاق: كنا نحفظ هذه المقطوعة الشعرية.

لشاعر يقال له مهوس بن عتمة:

وكانـــت عصـــية مـــن آل عمـــرو:. إلى دين الـــنبي دعـــوا شـــهابا

عزيـــز ثمـــود كلـــهم جميعـــاً:. فهمَّ أن يجيـــب ولـــــــــو أجابـــــــــــــــــــا

لأصـــبح صـــالحا فينـــا عزيـــزاً:. وما عدلوا بصـــاحبهم ذؤابـــا

ولكـــن الغـــواة مـــن آل حجـــر:. تولوا بعد رشـــدهم ذئابـــا[٢]

وكان ذئاب هو أشد المعارضين لصالح عليه السلام.

قلت: وماذا فعل ملكهم جُندع بن عمرو؟

قال العملاق: تنسك واعتزل الحكم والناس، والتحق بصالح عليه السلام، وخرج مـــن ديـــار ثمـــود المغضوب عليهم وأنجاه الله وقومه المقربين له من العذاب الذي حل بآل ثمود بعد خروجه ولم يقبلوا دعوة صالح الذي مكث بينهم سنين بعد خروج الناقة.

قلت: ألم يكن للناقة وصالح آثر اجتماعي على المجتمع الثمودي.

قال العملاق: بلي أضحى الجدل وهو السائد فمنهم من آمن ومنهم من كفر وتفرق القوم شيعاً بل إن الذين آمنوا تفرقوا في البلاد وهجروا الحجر وكانت الأخبار التي ينقلونها تتواصل مع القبائل شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً حتى بلغت اليمن والشام.

(٢) ابن كثير ٥/٣٩٤

العملاق

(٢٣)

قلت للعملاق: إننا في هذه الجبال والخيرات والأرض التي تمنحكم بركاتها والشعراء والأدباء في زمننا هذا ربطوا الأم بالأرض، فكل منهما محور الحياة، ومحور العمل، ومحور الحب، والأحاسيس، والوجدان.

قال العملاق: صدقت في هذا ودور الأم فوق ذلك فلا حياة بلا أم، فالأم هي المحتضنة للأطفال من البشر والحيوان والطير.

قال: إن المرأة مصدر الحب وهي ممتزجة بالطبيعة، فهي تعايش الحيوانات الأليفة، وتحرث الأرض، وتجمع الزرع.

قلت: ما زالت هناك فجوات في حياتكم لم نتعرف عليها ولكن تراه ذات بساطة ولا أهمية لها لأنك عايشتها ونحن نراها من الأساطير، فنتمنى منك أن تسرد حكايتها أو حكايات أنت معها.

قال العملاق: لما ذكرت الأساطير أريدك أن تتصور معي أم أو امرأة عاشت ألف سنه، فكم عانت من الحمل والولادة ولا سيما إن المرأة تلد تؤما والإخصاب متوفر للخيرات العميقة، وحب التكاثر مهمين على المجتمع رجالاً ونساءً.

قلت: ليتني أدركت أحدى هذه المعمرات من الجدات.

قال العملاق: والله إنها لكنز من التاريخ والحكايات والمعارف، بل والأساطير.

قال العملاق: أدركت جدات كنا نتحلق حولهن ويروي لنا قصص وطرائف حياه لم نصدقها كما هو أحوالكم الآن، فإننا لو سردنا حكاية المظاهر التي على ظهر الأرض من مظاهر حياتكم على جداتنا لن تصدقها، بل ترهب أعمدة الكهرباء وأبراج الهاتف، والسيارات.

قلت له: وهل ترى الأساطير كثيرة؟

قال العملاق: إن أكثر الحوادث لدينا تتحول إلي أساطير مع تباعد الزمن وتغير الأحوال ولما يطرأ عليها من الرواة والمشافهة.

قلت معني ذلك: ليس لديكم أساطير؟

قال العملاق: الأساطير كثيرة لتواصل الناس مع الكهنة، ولسهولة التحادث مع الجن، ولكثرة السحرة المتلبسين بالشياطين.

قلت: لكن هذه الجدة أو الجدات: هل يحملن هموم الماضي، ويستذكر الأحباب والأولاد والمآسي التي مرت عليهن؟

قال: ذلك نبع تاريخي إنساني لو، تمّ تدوينه وواصل تدفق الحديث عن الجدات.

فقال: إنهن شعلة الحب على طول المدى فكل فرد من القبيلة المتكونة في عهدها يدلف إليها طالباً عونها وجاهها وعطفها.

قلت: وهل هي تحمل هموم الماضي؟

قال العملاق: إن الجدات يحملن في ذاكرهن المآسي، والأحزان على الموتى بل قصص الحروب وآثارها إنها كنز تاريخي يتفجر منها آسي وحزن وعبر وذكريات لها دورها في بناء شخصية متقدمة السن مما جعلها تكون أنسا للطفولة، ومحتضنةً لأفراد الأسرة رحيمة بهم مشفقة من تحول الزمن.

قلت: هل هناك عناية ورعاية للكبير؟

قال العملاق: لو رأيت خدمة الأولاد من البنين والبنات لهذه الأمهات والجدات لقلت هذا فداء بالعمر، إن تعاطف الأسرة مع تباعد مساكنهم وتباعد أنسابهم وتفرعها لقلت إن القوم في خير، فإن الروابط الأسرية أمشاج بينهم تجمعهم وتبنى الخير والقيم بينهم.

قلت: وهل يجتمع الأسر والأقارب في مناسبات معروفة؟

قال العملاق: نعم يجتمعون في الأفراح عند الموالد وحفلات الموالد، وفي الأعياد، ومواسم العبادات وعند نزول الأضياف، وهم دائما في لقاء في مواطن أعمالهم، وفي دروبهم اليومية، واجتماعاتهم الليلية التي لا تتجاوز الثلث الأول من الليل ويقتصر ذلك على البيوت المتجاورة أمّا الشباب والفتيات فلهم لقاءاتهم وتارة مغامرات، وقصص غرام يتوارثها الأجيال.

قلت للعملاق: إنكم رجال جبابرة حتى على نسائكم، فلم أسمعك تتحدث عن المرأة عندكم، ودورها مجهول في الأحداث الاجتماعية، والحربية.

قال العملاق: إن المرأة عندنا لها حضور، فهي مستشارة الرجل وهي تأمر وتنهي وإن لم يظهر، بل هي تثير الكراهة والغضب، وتارة تشعل نار الحروب.

قلت: كيف العلاقات الودية مع المرأة؟

قال: في الزمن الأول كان التحريم مقصور على الأمهات والبنات والشيقات وما عداهن فإن المرأة تنتقل من زوج إلى زوج وتجالس الرجال، وحكايات الحب كثيرة وحكايات الكيد أكثر، وقد أشار القرآن إلى تبرج المرآة في الجاهلية الأولي فهي تتخذ ألوان الزينة من الحلي والثياب، وتكشف الرأس والصدر ولكنها لا تتعرى كما هو في أوربا عسى الله أن يجنب نساءكم هذه البهيمية.

قلت له: هل عند مكاشفة للزنا ومتابعة المرأة؟

قال العملاق: ليس هناك مجاهرة ولا مكاشفة وكل يدعى العفاف والله أعلم، فالناس يطوفون على بعضهم ويلتقون، ويحتشمون في الظاهر كلهم ولكن الحب والهوى مثل الماء يجد له مخارج حتى في الصخور، فهم يلتقون في المراعي والمزارع والطرقات، والأعياد وترفل المرأة في زينتها أمام الألعاب في الأعياد، وتحرضهم

في السابق، وتسقى الجداول وعلى الآبار وتارة ترفع راية الحرب غضبا على مقتل أخيها أو أبيهـــا أو هزيمـــة قومها.

قلت أيها العملاق: ليس هناك وازع ديني ولا رقابة على المرأة.

فقال العملاق: نعم ليس هناك وازع ديني لكن هناك رقابة اجتماعية تكاد أن تكون محيطة، فـــالمجتمع القديم مكون من الأقارب، وأي حكاية تؤثر على المرأة وأسرها فهم يخشون ذلك أشد الخشية، والعقـــاب في مثل ذلك القتل للطرفين الرجل والمرأة والحرمان من الزواج، والعيب كل العيب، فالاحتقار واللمز بل المجاهرة عند الاختلاف فيطعن بعضهم بعضاً بالفضيحة.

قلت له: لقد أورثمونا هذه في مجتمعاتنا السابقة قبل الإسلام وبعده.

العملاق

(٢٤)

قلت للعملاق: أثناء تنقلنا في جبال وادي أم القرى، وشاهدنا تداعى الآثار واندثارها وتصحر الأرض.

فقال العملاق: لو أدركت ما أدركت من الغابات ولو رأيت ما رأيت من جمال الطبيعة ومن العمران والمباني، لرأيت عجبا وأني أكاد أجهش بالبكاء حين أتذكر أيام الرفاه والأنس والاجتماع ولقاءات الحب والمحبة، وأطلق العملاق صاحبي زفيرا يكاد يهز الجبال ويشبه زئير الأسود حتى أصابني الرعب ووقف شعر رأسي وكلما نظرت إليه أخذني الروع والفزع.

فقلت: إن الله أراد بك خيرا حين يبتليك بهذا العمر الزمني أطللت منه إلى المآسي والكوارث وعاصرت فيه النبوات والرسل وأضحى عمرك أطول من عمر الدول: إنك معجزة من الله، فأحمد الله أن آثرك بذلك ما دمت آمنت بالرسالات السماوية.

قلت له: لعلنا نعود إلى الحديث عن المرأة وأدوارها الحياتية إن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشر، وكل البشر هكذا يتنازعهم الخير والشر ونسأل الله أن يغلب الخير وعمله والنية الصادقة التي تدفع إليه على البشرية.

قال العملاق: إن المرأة تستدعى ما يثير العواطف في حياتها الفردية فتارة عواطف الحب والإحساس بالآخرين وتارة عواطف الثأر والحقد وتارة مكونات حياه الرفاه وحرية النفس، ونحن نجد بعض النساء الثموديات في مقدمة التيار الرافض للحق وليس كل النساء إنما هي نماذج قليلة، أمّا الأكثرية فهي تتبع زوجها وأسرتها فلهم الغلبة على توجيهها، أمّا إذا انفردت المرأة برأيها فتكون معتدلة تستسلم وبعضهن يندفع كما يندفع الرجال الأشقياء فهناك معادلة بين الرجال والنساء.

قلت للعملاق: دعنا من التطير واجعلنا نعيش الواقع، فأنت نبع الواقع وشاهد الحوادث والأحداث، راوية التاريخ فكل لحظة معك هي لحظة علم وتعلم.

فقال العملاق: لولا أنك تحاورني وتستدعي الذاكرة ما ظننت أني أحفظ هذه المعلومات.

قلت: لعلك تحكى لي من حكايات المرأة ذات الغرابة وتكشف عن تفاني المرأة وحفظها للود.

قال العملاق: أقرب الحكايات في هذا المكان وأغربها على مّر الزمن وكرر الحدثان زوجه الرجل(كانوه)وهي أم صالح عليه السلام وأبوه (كانوه) كان قيم الأصنام في ثمود وكان وجيها بينهم، فأراد الله

أن يخرج النور من موطن الظلمات ويخرج (كانوه) من الظلمات إلى النور، فلما تشكل صالح في ظهره أخـذ يشع وجه (كانوه) بالنور، فانطق الله له كبير الآلهة.

فقال (لكانوه): مالي ومالك: أنت تحمل نوراً ونحن يستوطن الشيطان وإتباعه في بيوت تلك المعابد، ثم تنكس الصنم على سريرة على مشهد من الحاضرين فلاموا(كانوه)وهموا بقتله ولكن الله أرسل له ملائكة، فلجأ إلى كهف ونام فيه مائة عام.

قلت: وماذا فعلت امرأته وأولاده؟

فقال العملاق: هنا موقف المرأة الصادق أننا ما زلنا نتداول اسم امرأة كانوه في الحكايـات فأسمهـا (رعوم) فأخذت تجول الشعاب وعلى قمم الجبال وهى تبحث عنه وتبكى كثيراً وتسأل عنه المسافرين وأهـل القرى والمزارع، حتى ضعفت، والحزن يتلبسها، والدمع دائم الجريان من عينيها.

قلت: كم أخذت على هذه الحالة المأسوية؟

قال العملاق: مائة عام وفي ذات ليلة وإذا بغراب ينعق، فقامت لترى ماذا جرى، فرأت طائراً يذكرها بالغراب ولكن رأسه أبيض، وظهره أخضر، وبطنه أسود، وهو أحمر الرجلين والمنقار وأخضر الجنـاحين، ولم يفزع الطائر عنها وإنما كان على موقعه.

فقالت: أيها الطائر ما أحسنك!

فقال: أنا الغراب الذي بُعثت إلى قابيل، فأريته كيف يوارى سؤه أخيه، وأنا من طيور الجنة وأنى أراك باكية حزينة.

فقالت: إني فقدت زوجي منذ مائة عام.

فقال: أتبعيني فإني أرشدك إليه، فتبعته وطويت لها الطريق حتى وقفا على باب الغار، ونادي الطائر: قم ياكانوه، قم بقدرة الله، وقام فدخل على زوجته فواقعها، فحملت بأذن الله، بصالح وقبض الله كانوه لوقته.

قلت: فكيف يعترف القوم بحكاية الزوجة هذه والغراب؟

قال العملاق: إن المتغيرات التي طرأت على الثموديين جعلتهم، يدركون أن هناك حدثا مهما.

قلت: مثل ماذا؟

قال العملاق: لما ولدت بصالح حدثت هزه كبرى ارتجت لها الجبال والناس والشـجر، وتكـاثرت الشائعات، وتناقل الناس الأخبار وكان صالح هو المولود الوحيد في هذه الليلة فكانت حكاية التصقت بصـالح عليه السلام كلً أفراد المجتمع سمع بها.

قلت: وهل من أحداث أخرى؛ فإن الله يمنح الإنسان دلائل للخير لعلهم يتعظون.

فقال العملاق: الحدث الأكبر إن المتقدمين في السن يتناقلون سجود الحيوانات والوحوش والسباع التي مضت عليها ساعات وهي خافضة رؤوسها في كل مكان ولا تبتعد عن الإنسان بسهامه، بـل إن الإنسـان

ارتعب وتارة يرمي السهام حول الوحوش ولا تصيب ولا تؤثر، فشاع بين الناس هذا الحدث وربطوه بالمولود الجديد الذي تواصلت الحكايات معه حول هروب والده، وطول تنقل أمه وبكائها.

وقال العملاق: فتوفد الناس للأصنام ومعابدهم لعلهم يجدون حلا لذلك الأمر الداهم عليهم، فوجـــدا آيات أخرى وهى أن الأصنام، قد نكسّت رؤوسها وخرت إلى الأرض.

فقال العملاق: فأخبروا الملك وتحلق حوله الملأ من قوم ثمود واتجهوا إلى المعابد وإلى الصـــنم الأكـــبر ورفعوها، وخاطب الملك كبير الآلهة من الأصنام ما دهاكم: فداخل الشيطان الصنم.

وقال: قد ولد فيكم غلام يدعوكم إلى عبادة الله كما دعا هود قوم عاد.

قلت: وكيف كانت نظرة الناس؟

فقال العملاق: أمّا الرجال فأصابتهم الحيرة والشك واختلفوا، ثم افترقوا فمنهم من آمن ومنهم مـــن كفر وأمّا النساء فهن أكثر تعاطفاً مع الحدث، فوجلت قلوبهن، وخشعت أبصـــارهن، وأنســـل الخـــوف إلى عظامهن، فهن وجلات خائفات مترقبات ولكن التواصل مع الحدث تصدى له الرجال، فهم أهل الرأي وأهل الإقناع.

وقال العملاق: إن هناك حكايات صحبت طفولته، فهو جميل وضاح الجبين، وهو قوى البدن يبطش بمن يصارعه، وهو مناط بركة لأسرته ولمن حوله، فهو مبارك.

قلت: هذه دلائل لها أثرها على من حوله.

قال: إن خالاته وعماته وجارته أحببنه وآمن به وكنّ عونا له.

قلت: هل توارثتم شيئاً من حكايات طفولته؟

قال العملاق: إن الآباء يحدثون أطفالهم بحكاية ينسبونها إلي صالح تدور حـــول الصـــدق، والقـــيم، والنجدة.

العملاق

(٢٥)

قال العملاق: كان حديث النساء أكثر وأقرب إلى سرد حياه صالح، فلما ولدت (رعوم) صالحاً أقبل النساء عليها مهنئات مباركات، فرأينا عجبا في الولادة السهلة الميسورة، والأم الباسمة التي لم تتألم، ونظرن إلى الطفل وإذا به مشرق الوجه مكتمل الخلقة، يشع منه نور يترأى ولا يثبت وكان سره مربوطاً، وجسمه نظيفا، وحركته سريعة، فزاد العجب من الطفل وأمه وشاعت الأخبار والشائعات وتضاعفت حكايات النساء.

فقلت: هكذا النساء مندفعات للأحاديث الباسمة.

قال العملاق: الأمر تضاعف مع حماية الله لهذا الطفل، فإن الحشرات تتجه إليه ولا تمسه بسوء، والأطيار الصغرى تحلق ولا تسقط عليه.

ويروون: أن النساء يزرن أمة ويداعبنها ويتضاحكن، فإذا العقارب تمر من جانب الطفل وليس عليه ثياب فلا تمسه بسوء وكأنها في زيارة، وقد أدهش النساء سقوط حية تسعى من الكهف على قدميه ففزع النساء وهربن ولكن الحية مكثت حوله و لم تتعرض له ومرت حيات أخرى من كل اتجاه، فكانت حكايات يتوارثها الأجيال.

وقال العملاق: وكانت الأم تفزع قليلاً لكنها مطمئنة لرعاية الله له.

وفي ذات يوم: ابتعدت الأم عنه ورأى البهم والأغنام واقبل جمع من النساء فرجعت الأم، فإذا الوحوش بين النساء وبينه ورأت الأم المنظر، فأخذت تصرخ والوحوش مطمئنة فلم تهرب و لم تحرك ساكناً فهرب النساء، واندفعت الأم على الوحوش وتجاوزتها لطفلها، فرات عجبا أن ابنها مبتسماً سليماً فأبعدت الوحوش ودعت النساء فرأين الطفل مبتسماً سليماً، فكانت حكاية كبرى انتشرت على ألسنه النساء.

قلت: وما دور الرجال في هذه الشائعات؟

فقال العملاق: بعضهم ينسبها إلى الأساطير والحكايات الغرائبية، وبعضهم يثق بزوجته وبناته لكن ليس له من الأمر شيئاً.

قلت للعملاق: كأن هذه الوفود من الطير والحشرات والثعابين والعقارب والأسود والنمور مهنئة مباركة له.

قال العملاق: من يحميه الله فلا خوف عليه، وهذه عبره لمن أعتبر وهذه الوفود كان الناس في هرج ومرج منها ولكنها تؤكد شأن هذا الطفل وولادة زمان جديد وأحداث جديدة.

قلت: هل صمت الحديث عنه بعد هذه الأحداث زمن طفولته ومراهقته؟

قال العملاق: بل أن سيرة صالح هذه تتجدد بأحداثها المتواصلة فكان الناس يترقبون الأخبار الجديدة الغريبة فإنهم يأتون له فيسمعون أحاديثه الصادقة وفصاحته المبكرة وهو يؤكد انتمائه لأبيه، وابتعاد أبيه عن قومه.

ويقول العملاق: أبعده الله عن الأصنام ويرى الكثير منهم أنه تلقين من أمه وبعضهم يكثف الأسئلة عليه ويحاوره فيجد عجباً.

قلت له: كيف طفولته مع أقرانه؟

قال العملاق: إنه لم يصحب الأقران والناس يقولون أنه ذهب إلى مجالس الرجال و لم يتجاوز السابعة من عمره يحدثهم عن والده ونسبه بينهم، فيعترفون بغرابة أحاديثه و لم يشكوا في نسبه، وكان دائم الحضور في منتدياتهم ويسمع القصص من كبار السن.

قلت: ألم يشكوا فيه؟

قال العملاق: تارة تظهر الطفولة البريئة وتارة تظهر الغرائبية وكانت عناية الله به لا تخفى عن القريبين منه وكذلك المعجزات التي صحبته مبكرا على مرأى من كبار القوم وفتياهم ونساءهم أن أحد الملوك المنافسين لملكهم أقبل عليهم الملك المعتدي وقتل الرجال وسبى النساء وأخذ الأموال وانهزم قومه، فأقبل عليهم صالح ودعاهم إلى ملاحقة العدو، فوقفوا وهو منقض وراء العدو والرجال والنساء يرأفون به ويخشون عليه، فإذا به يصيح على العدو بصرخة قوية اهتز له القوم وارتعبوا، فهربوا وتركوا النساء والأموال فعادت إلى قومه، فكانت حادثة العمر وحكاية العصر، وغرائب النساء ونسج الأقاويل.

فعجب منهم ملكهم جندع بن عمرو، وأقبل على صالح مهنئاً ومشجعاً وأكرمه الملك وأكرمه القوم.

قلت: ألم يتعظ الملك؟

قال العملاق: بلى، لكن المحيطين والأعوان والملأ يحرفون الرأي فحذروه أن قومه يعجبون بهذا الغلام فيولونه الملك ويعزلونه، فأخذ الملك يكيد له، وأرسل له فريق من المحاربين ليغدروا به فجاءه ليلاً وأحاطوا به فلما هموا بقتله تصلبت أيديهم وخرست ألسنتهم، فرجعوا إلى الملك جُندع، فلما رآهم أدرك أن الغلام ذو شان، وانه معصوم، فطلب من صالح أن يدعو الله ليفك هؤلاء ويشفون، فدعا صالح لهم وعادت الحركة لأيديهم، ومن بعد ذلك أكرم الملك صالحاً و لم يتعرض له بكيد ولا دسائس.

العملاق

(٢٦)

مكثت ليالي وأياما، ثم التقيت بالعملاق في ديار ثمود فهو خبير بها، ومكثت معه في جلسة تستدر ألبان الفكر، فالظلال وارفة، والمزارع الحديثة ممتدة، والتلال حمراء متجاورة والهضاب دانية قطوفها تكاد تماثل التلال باللون والارتفاع.

فقلت للعملاق: إنك عاصرت الأنبياء والرسل لقربك منهم في الزمان والمكان، وبرواية الأخبار، وانتقالك في كل مكان، فأنت رأيت من الأنبياء ما رأيت، وسمعت من الرسل ما سمعت وانتقلت إليك أخبارهم لطول أعماركم، فحدثني أيها الكنز العظيم عن رؤيتك عن الأنبياء والرسل.

قال العملاق: لا تظنوا أيها المتأخرون في زمانكم أننا جهلاء كلنا ضالون كلنا محاربون للهداية، بل فينا من العباد والحكماء ما تعادل سجداتهم أعماركم، إن العقول لتتأمل وإن القلوب لتتوجس خيفة وإن الدموع لتفيض من خشية الله، وأنهم ليصبرون أكثر من ما تصبرون وإن الأتقياء عذبوا بما لا قدرة لكم به فهم يلقون في النيران، ويقذفون من رؤوس الجبال، وتقطع أوصالهم وهم يلهجون بالتوحيد وتتشقق أجسامهم بالمناشير.

قلت: الله أكبر ما أعظم تلك الحكايات، وهم يدركون أن ما عند الله أعظم من الحياة والشهوات في هذه الدنيا، وليتنا نسجل بعضاً منها وما لا يدرك كله لا يترك أقله.

ثم قلت: أجل هناك أممٌ موحدة تهتدي إلى الحق.

قال: إنهم أمم كثيرة سجلهم عند الله، أمّا الأمم المنحرفة فإن سجلهم في الدنيا وتاريخهم مدون لوقوفهم في وجه الرسل والأنبياء ولقيادتهم للحروب.

قلت أيها العملاق: كيف كانت شرائعكم ونظمكم التي اقتبستموها من شرائع الرسل والأنبياء والصالحين ومن تجاربكم؟

قال العملاق: إن شرائع الرسل والأمم تختلف فالأوائل كانوا يهتمون بالتوحيد لله وما دام الإنسان موحداً فكل شيء يهون ويعود الإنسان إلى القيم الربانية، والقيم العقلية والإنسانية كلها تدور في فلك التوحيد لكن خشية السلاطين والعتاة الجبارين من فقدان سلطتهم، ونعيمهم الدنيوي وإذعان الناس لهم جعلهم يحاربون الأصل، فهم حالوا بين الناس والرسل فتزعموا الرفض للتوحيد أولا، والأنبياء والرسل عليهم السلام حرصوا على روح الإيمان والتوحيد فكان جل دعوتهم في زمانهم المديد إلى توحيد الله، ولم يتمكنوا من سن الشرائع ولعل الله لطف بهم فلم يكثف عليهم الأوامر والنواهي فتجد أن كتب الرسل الأوائل في وريقات معدودات، والأحكام في الضروريات فكثير من الرسل لم يؤمن معه إلا نفر قليل فكيف تتنزل عليهم الشرائع فهم لم

يمارسوا العبادات والمعاملات حتى تتنزل عليهم الشرائع، وإنما ترك الرسل إتباعهم يجارون عصرهم في المباحات، ويحترزون في أمور تمس الدين العقدي.

قال: بلى، وقد سمعت كثير أو سمعت من أستمع إليهم ونقل عنهم، وقد تكاثر الصالحون بعد هلاك ثمود، وسميت الأقوام بأهل الرس، فأهل الرس في نجد بعث الله إليهم رسولاً نبياً، وهناك أهل الرس على ساحل البحر الأحمر وهناك أهل الرس في جبال حسمي وهؤلاء دعاهم أنبياء وصالحون أيدهم الله.

قلت: لماذا هذه التسمية؟

قالوا: كان الناس قبل الهلاك على جداول وعيون وبحيرات، ثم تناقص الماء فحفروا الآبار فسميت رسّاً وكذلك المباني كانت ضخمة مشذبة، فبنوا بناءً غير مشذب وهو أقصر من المباني القديمة فسميت رساً.

قلت: وما زال الرس يطلق على البئر قليل الماء، ويطلق على المباني المتهالكة.

قال العملاق: حتى الأقوام في أذربيجان وأرمينيه يسمون أهل الرس.

قلت: أظن أن المقصودين في هذه الآية الكريمة: **{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا} [الفرقان: ٣٥ – ٣٩]**

هم الذين استوطنوا نجد وما زال الإقليم يسمى بهذا الاسم.

قال: وهم الذين طال ملكهم وبعث الله لهم رسولاً نبياً، وقد انتشرت أخبارهم في أزماننا، واستمعت لمن سمع منه وشاهده ولكن التحول في طرائق الحياة جعل أسبابها تندثر و لم يبق منها إلا مظاهر ينقلوها الحكماء مشافهة و لم تدون ولذلك غابت الأحكام الربانية.

قلت للعملاق: هل هناك أسماء لأصنام ثمود، أو أسماء لمعابدهم؟

قال العملاق: هذا الأمر متداول ومعروف فيذكرون آلهتهم دائماً قريباً من ذكر أنبيائكم ورسلكم وما تقدسونه من الأسماء فبعض الأديان والمذاهب تذكر أسماء الأشخاص أكثر من ذكر الله وأنبيائهم.

قلت أيها الصاحب العملاق: لا تلمز دياناتنا المعاصرة فهذا أمر يطول الحديث فيه ونحن نعرفه ونشاهد لكن حدثني عن الآلهة الكبرى لقومك الثموديين.

قال العملاق: ألا تعرفها؟

قلت: لم استطيع معرفتها.

قال العملاق: إن آلهتهم هي (ود) فالثمودي يدعو أن يحفظ دينه وأن يموت على دين (ود) فهم يتداولونها، ويقولون الود كله لود والأمر كله لود.

يقولون: لا بدَّ من ود وأن طال السفر دائماً في مجالسهم ومنتدياتهم وفي خلواتهم وأزمان طقوسهم، فالبشر لا قدرة لهم على خلو أنفسهم من الدين.

قلت: هل هذه الآلهة منفردة لكل المجتمع؟

قال: إنما الكبرى وتتفرع منها أصنام يعودون بها إلى الآلهة الكبرى، في شكلها أو في مصنعها.

قلت له: أنت أيها العملاق طورت فكرك مع الأديان، فأدركت أسرارها وشاهدت عبادتها.

قال العملاق: الذي شاهدته وتأملت فيه، وتدبرت أمره يعود إلى أنواع وألوان مختلفة.

قلت له: فلنكن في الناحية التطبيقية والممارسة وربما الفكرية، فالأمر يعود إلى معرفة حقيقية وواقعية وأنت من المشاهدين.

قال: إن الأديان الحقيقية التي ارتبطت بالرب سبحانه وتعالى وتوارثها الأنبياء والرسل استهلالا بآدم وشيث بن آدم، ثم الأنبياء فهؤلاء يدعون إلى التوحيد ولكن جل الناس أنحرف لما علموا اختلفوا ولما ملكوا وظف الدين لأهدافهم، ولما جهلوا استعانوا بالمشعوذين والسحرة.

قلت:الله أكبر أنت ذكرتني بالآية **الكريمة: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [البقرة: ٢١٣]**

قلت: حدثني حول توارث التاريخ الحديث المتأثرة بالعبادة المرتبطة بالدول وعن الأصنام التي أحتضنها السلاطين؛ هل الأمر حقيقة أم ظلمهم التاريخ كالأصنام عند النمروذ.

قال العملاق: إن الأمر حقيقة لا ريب فيه، فالسلاطين والملوك الجبابرة أرادوا أن يجمعوا حولهم الناس عن طرائق المعتقدات والأديان وكلهم كانوا يقربون رجال الأديان حتى ينالون رضا الشعوب وآخر من استقطب الأصنام أهل مكة ووضعوها في البيت الحرام وهو في غنى عنها فالناس يحجون للبيت لا للأصنام.

قلت: أكثر الأمم السابقة نرى معالم دياناتهم وجمعنا في عصرنا هذا كثيراً من الأصنام التي نسميها تماثيل أو هياكل.

قال العملاق: إنكم ما زلت تحملون صدى تسميتها حتى الآن، فالأكثر أنهم يصنعون هذه الهياكل والتماثيل ليس لأنها تجلب الخير أو يعبدونها ولكنها تمثل صورة الإله الأكبر عندهم وعلى مرور الزمان قدسوها.

قلت: إني أقف طويلاً عند أماكن عبادات أرها متماثلة ومتشابهة مثل أبنية مستديرة منفردة أو على متون الجبال أو على مشارفها أو في حضن جبل من الجبال، فما زالت الأعمال اليدوية باقية؛ فهل يكون أكثر مكان للعبادة؟

قال العملاق: مثل هذه رأيتهم يقفون عندها ويجتمعون حولها، وكل أسرة تبني مكان تقدسه نتيجة لحادثة خيرة فيه أو عمل فيه كرامة، أو أغراء من الشيطان أو عند قبر رجل صالح يزورنه، ثم يتبركون به.

العملاق

(٢٧)

استقبلني العملاق في مكان جميل ومطل على نساء مائلات جميلات ورأيته يختلس النظر لهن.

فقلت: المرأة قطب المجتمع، وشطره الأهم، وأنوثتها وذكورة الرجل موضع تكامل وموضع صراع، والمرأة احتلت حياة الذكور، وهي عامل مهم لتنافسهم وتصارعهم.

قال: ويل لرجل بلا امرأة وويل لكل ذكر في ادوار حياته إذا لم تكن بجانبه امرأة منذ الطفولة والأمومة والشباب والأخوات، ثم الزوجات، ثم البنات.

قلت: نساؤكم طويلات عملاقات، فهل تُعنى النساء بألوان الجمال إضافة لرشاقتهن واعتدال أجسامهن وإشراق وجوهن ولمعان خدودهن.

قال العملاق: أيها المتجاهل للأقدمين وصنائعهم الجميلة، فلو رأيت النساء وهن يرفلن في الحلل الجميلة، مبتهجات بمعالم الجمال، وقد رأيت نساءنا وهن يقطفن من الزهور والأوراق، بل عروق الأشجار المدفون تحت الأرض ويقطفن مكونات الجمال من الألوان المتعددة والروائح المتنوعة، والزيوت الطبيعية، وهناك النسيج المنتشر للأثواب والألبسة، وإدخال الألوان أثناء الغزل، وأثناء النسج.

قلت أيها العملاق: إن كثيرا من معالم حياتكم الاجتماعية أضحت في طي النسيان.

قال العملاق: تلك مصيبتي أنا، فأنا حين أطوف الديار وأرى بقايا الأواني، وأدوات الصناعة والاستخدام أبكى وأبكى، ثم أظل أياماً في تلك الديار أتأمل تلك الأشياء وأقبلها، وتدمع عيني عليها.

قلت للعملاق: هل ما زلت تراها أمامنا؟

قال العملاق: إن معالمها بكثرة، وقد أخفى الزمان مظاهر استخدامها، فأمتلئت المحفورات منها بالأمطار والأتربة التي تصلدت فيها، وتغيرت ألوانها الجميلة وعادات تماثل الطبيعة من حولها، وأنا رأيتها في منطقتكم الجبلية حول تبوك رأيت أدوات الكحل والعطر، ورأيت بقايا السكاكين، ورأيت بقايا أواني الأكل، لكنكم لا تدركونها الآن.

ثم قلت: هل التنعم والجمال والتنافس ولد الإسراف والتعالي عند النساء؟

قال العملاق: إن النساء تنافسن في ملابسهن وعملن على إيجاد ملابس غير متداولة، وفيها من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ما أذهل شباب زمانهم المترفين، ويذهل نساؤكم المعاصرات ولكن النساء في عالمنا المعاصر اكتفى بإظهار المفاتن الجسدية.

قلت: أليس ذلك وسيلة للنساء عندكم ألم تغريكم الأرداف والصدور والخصور والأفخاذ.

قال العملاق: إنها مغرية ولكن في الخفاء وفي السر لا في العلن غير أن الشعور والوجوه والصدور وما يلمح من السيقان المجدولة هي الشائعة.

ولكن الملابس تمنح المرأة جمالا وأي جمال؛ وهو ما زال في بلادكم العربية غير أن التحول مسخ المـــرأة وملابسها باسم الندرة والموضة.

قلت للعملاق: يعني كنتم قادرين على صناعة كل ما تحتاجونه.

قال العملاق: ما دام العقل والذوق والشجر والألوان تحف بنا من كل جانب فإن الأمر سهل.

قلت: وطول الأعمار ساعد على أنكم تمكثون زمنناً طويلاً في الصناعة وترونه قليلا.

قال العملاق: نعم، فبناء القصور يمكث أكثر من مائة عام ولكن يستوطنوها خمسمائة عام فالمعادلـــة للاستفادة ترجح الانجاز والعمل.

قلت للعملاق: الصناعة عندنا تعتمد على مواد الخام ونحن نستخرجها من باطن الأرض.

قال العملاق: ذلك تعذيباً لكم وخسراناً لأموال وفقدانا لنفوسهم حين تنهار عليكم الأنفـــاق الـــتي تحفروها وتعملون فيها سنوات طويلة كالانهيار في الصين وفي أفريقيا، بل تحفرون تحت البحار كم فقدت أوربا العملاقة من أولادهم في مناجم الفحم.

قلت: الم يحدث ذلك عندكم؟

قال: إن الخامات عندنا على ظهر الأرض من الشجر والحجر والطين والماء أمّا ما نحفـــره في بـــاطن الأرض فهو تحت الجبال بطرائق محمية لم يحدث انهيار إلا في زمن الزلازل، والبراكين.

قلت: حدثني عن النساء والإسراف ومعالم الجمال.

قال العملاق: أريد أن أبرك بعظة وعبرة لك ولأقوامك.

قلت: وما هي؟

قال العملاق: كان النساء يعدن العدة لأجل الاحتفالات ويجمعن الماهرات في كل صناعة، فهن يجهزن الملابس، ومعالم الجمال للمواكب من الخيل والإبل وما يحمل عليهن، لأجل الانتقال من بيت الأسرة إلى بيت الزوجية وأنت تصور أطوال الإبل وأطوال النساء، وكيف تصنع لهن الهوادج بل إن الهوادج أشكالها هندســـية، وتكسى بالمعالم الجمالية، ويكون الموكب كبيرا للنساء فيما يقارب مائة جمل يحمل كل منهن هودجا تحف بها الخيول المزركشة، والنساء الخادمات يمشين في معالم جمالية والرجال على الخيول والإبل، وموكب الزوج يأتي بمثل هذه المظاهر والأهازيج الغنائية تصدح في الأجواء.

قلت: والله أنها لمظاهر جمالية أعجز عن اكتمال صورها ومباهجها وما يدخلها من أفراح للقلـــوب، ومضاحكات ومداعبات وهمز ولمز.

قال العملاق: لكل بطر دمار، ويعقب الإسراف الفقر والهلاك.

قلت: نسأل الله العافية.

قال العملاق: لكل شيء نهاية فقد تحدث الأجيال السابقة عن مشهد من المشاهد المروعة في زمن صالح عليه السلام.

قلت: كيف؟

قال العملاق: إن كثيرا من القوم لم يحفل بدعوة صالح ولا بتحذيره فكان موعد زواج لأحد أولاد الذوات في حدود ثلاثة أيام التي أمهلها الله للقوم على لسان صالح ولكنهم لم يصدقوا فأقاموا حفل زواجهم وسارت قافلة الزفاف ذات الأهازيج والمظاهر الجميلة والأغاني النسائية في جماعات متعددة والسيوف تلمع على الخيول ورأوا السحب السوداء تطفح في الجو فأخذن النساء يستبشرن بهذا اليوم المطير، ويلمزان صالح ومواعيده، لكن ما لبثت الرياح أن جالت بالأتربة، ثم اشتدت فتغيرت معالم الناس ونفرت الحيوانات، ثم اشتدت الرياح فرفعت الإبل بهوادجها واخذ الصراخ يعلو ورغاء الإبل يشجي وصهيل الخيل يتعالى والصياح يمزق القلوب فاشتدت الرياح أكثر حتى رفعت الإبل بهوادجها ونسائها، والخيل برجالها فأخذت تعلو وتعلو حتى أصبحت الإبل بهودجها أشبهة بالجراد والأصوات بين السماء والأرض والويل والعويل، ثم عادت الإبل والنساء والخيل والرجال يتساقطون.

فقلت: إنه الرعب بكل أبعاده، فأخذ صاحبي العملاق يبكي وينتحب فابتعد عني هاربا ووليت هاربا منه في ذلك اليوم.

العملاق

(٢٨)

أردت أن أخفف عن صديقي العملاق وطأت المآسي وأنقله إلى مواطن الفخر والاعتزاز.

فقلت له: أنني أقرأ في التاريخ عن أطوالكم وضخامة رؤوسكم وهاماتكم فهل أنتم متقاربون مع أجدادنا من آدم وأبنائه.

قال العملاق: أنتم تعجبون ونحن سبقناكم بالعجب بل نحن شهدنا تفاوت الطول بين أولادنا وأجيالنا، وسمعنا بالأكثر طولا عند الأحقاب السالفة.

قلت: هل أنتم تخافوهم كخيفتنا منكم ورعبنا الذي نتوجسة قبل رؤيتكم وبعد رؤيتكم؟

قال: أنت كدت أن تفقد حياتك حين رأيتني.

قلت: والله أنك لصادق؛ ولكن كيف رعبكم من بعضكم؟

قال العملاق: أحكى لى حكاية منذ زمن الطفولة.

قلت: لعلك تتحفنا بها.

قال: **كان أحد أقربائي**: متباهيا بطوله علينا فتزوج فتاة قريبة من طولي، فأخذ يداعبها ويلاعبها وينقلها بين يديه ويلحق بها الذئاب حين تعد على الحضائر، وتارة ينقلها على أكتافه إلى رؤوس الجبال والأمر الذي أزعجها وأوجست منه خيفة أنه أخذا يقذفها من يده اليمنى إلى يده اليسر وهى تخشى السقوط من طول المسافة التي أنت أيها القزم لا تتصورها.

فقلت: إنك محق في ذلك وإنه عندنا من الأساطير ونسج الخيال.

فقال العملاق: إنها الحقيقة.

قلت: ذلك ما كنت ابتغي فأحكى لنا الحكايات أيها القاص.

فقال العملاق: فذهبت الفتاه إلى أمها واشتكت لها.

فقالت الأم: أهجرية حتى يصل إلى مكان يقال له أبو أذنين.

فقالت: الفتاه لن أرضى عنك حتى تأتى إلى أبو أذنين، فلم يتأخر بل بادر إلى ذلك المكان فوجد رجلا ضخما نائما، وأخذ عصاه الكبيرة والدرة في رأسها فضربه بها فمسح النائم مكان الضربة، وواصل نومه، **فضربه العملاق القزم** مرة ثانية وثالثة فنهض النائم جالساً وأمسك بالشاب ووضعه تحت رجله، فإذا بالشاب لا يستطيع حراكا، ثم أجلسه بجانبه وحادثه فشعر الشاب بضعفه أمام هذا العملاق الذي انفرد بضخامته من زمنه فكلهم في نظرة أقزام.

وقال العملاق: راعي الإبل أنا أتركك تجرى ثلاثة أيام فإن أدركتك بعدها قتلتك ففزع الشاب يجرى ويجرى خشية ورهبة من القتل وهو يلتفت إلى الخلف وبعد ثلاثة أيام التفت الشاب المسرع، فإذا به يرى غباراً متطايراً عن بعد من خلفه، فأيقن بالهلاك ولكن تراءى له غبار قريباً له فذهب إليه وإذا بعملاق من قومنا يحرث أرضه، فاستجار به، فوضعه في حجره وثني عليه ثوبه، فأقبل العملاق وطالب العملاق المزارع بالهرب.

وقال: إنه وصل إليك فأين هو، فطلب منه المزارع أن يتريث في الأمر ولكنه لم يصبر، فأراد ضـــرب ذلك العملاق، فأخذه بتلابيبه وقذف به بعيدا، فأدرك العملاق أن فوق كل ذي قوة أقوى منه في هذه الحياة، وأخرج الشاب من حجره، وأصر المزارع على استضافتهما.

فقلت للعملاق: ما أعظم منظرهما بجانب بعضهم بعضا لو عندنا صورة منه.

قال العملاق: لاختلجت جوانحكم منهم وتناقلتها الأجهزة الفضائية.

قلت: فعاد الشاب العملاق إلى رشده وتصالح مع زوجته.

قال العملاق: فولدت المرأة عملاقا تجاوز طوله أطوالنا وكان منفردا بطوله.

قلت: هل من عملاق مشهور ما زالت حكاياته تدور في ذاكرتك؟

قال العملاق: كثيرة هي ومنها حكاية طول العملاق، عوج بن عناق أحد السلاطين في بلاد الشـــام ومصر المعاصرة لموسى عليه السلام.

قلت: له ما الخبر؟

قال: كان الفراعنة وأهل الشام يتعجبون من العماليق في فلسطين ولكنهم كانوا يعايشونهم ولا يرونهم إلا نادرا فهؤلاء لهم جانب من فلسطين في رام الله فخافهم اليهود قوم موسى وطلبوا من موسى محاربتهم هـــو وربه وكان عوج مرهبا مرعبا فقد كان سريره ثمانمائة ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشـــره أذرع فطال الخلاف بين موسى وعوج، فتنازلا للقتال، وكان الله مع موسى وبعد عراك طويل وثب موســـى عشرة أذرع فطعن عوجا في رقبته فقضي عليه وكان القتال على حافة النيل فسقط عوج في اتجاه النيل فـــإذا برأسه وأكتافه على حافة النيل الأخرى، فظل جسرا لما يقارب العام.

قلت: وحكاية الأثني عشر الذي أرسلهم موسى إلى العماليق في رام الله هل لها عندك أخبار؟

قال العملاق: إن الأخبار التي عندي طرأ عليها تغيير لآفة النقل الشفوي.

قلت: حدثنا ما عندك؟

قال العملاق: إن كثيرا من العماليق اتجهوا إلى بلاد أعالي الحجاز والشام مبكرا ولكن بعضهم عـــاد تحت هيمنت الدولة الثمودية، أمّا القلة الأخرى ومنهم شعيب عليه السلام فإنهم استوطنوا أعالي الشـــام قبـــل التصحر ولكنهم أهل رعي، وبعضهم هاجر إلى فلسطين جنة الدنيا في أرضه كما كنا نسميها في زمن ثمـــود، واستوطنوا رام الله وتواصلوا مع مصر ولكنهم أقلية: مسالمين للناس فهم متحضرون مزارعون، ولكن النـــاس يرهبونهم ويبتعدون عنهم.

قلت: وكيف كان صدامهم مع موسى عليه السلام؟

قال: لم تكن حربا بينهم لأن اليهود لم يمارسوا الحرب فغشوهم، فأرسل إليهم موسى الأثـــني عشـــر ليسبروا واقعهم، فلما دخل رسل موسى رام الله أعجبهم التين فأخذوا يقطفون منه ويأكلون فـــإذا بصـــاحب المزرعة العملاق يراهم فجمعهم في كمه وذهب بهم إلى السلطان ورماهم أمامه، فارتعبوا وأظهـــروا الضـــعف والخوف وبعضهم يبكى وبعضهم يطلب الفكاك.

فقال لهم السلطان: أرخو سبيلهم.

وقال لأولئك الرسل: أخبروا قومكم بما رأيتم وشاهدتم.

العملاق

(٢٩)

ارتحلت وصاحبي العملاق إلي بلاد ثمود الحجر فارتاحت نفسه، وأشرق وجهه، وقد وعدته في شعب ظليل كثيف الشجر متقارب من الجبال وفي شعابه المزارع الحديثة من النخيل، والرمان، والبرتقال، وشـــجرة ألبان، كنت جالسا انتظره في ظلال وارفة بجانب سيارتي وأخذت أتأمل في هذه المناظر الجميلة وغياب السياحة عنها فصادف أن التفت إلي جبل قريب مني وإذا السارية الطويلة فوقه فارتعدت ووقف شعر رأسي من المفاجأة وإذا به يلتفت إلي وأرى وجهه فإذا هو صاحبي مبتسما.

فقال العملاق: إذن أنت دائما على وجل وفزع.

قلت: إني كذلك فارحمني من مفاجأتك، فجلس بجانبي على الرمال الحمـــراء في الظـــلال الوارفـــة والأشجار الخضراء.

فقلت: أريد منك أن تحادثني عن معارفكم في الشجر والطير.

قال: أتيت على مخزون معرفي لم نتناوله من قبل.

فقلت: كأنك عدت لحياتك القديمة في هذه الشعاب ومناظرها وأشجارها ومزارعها.

قال العملاق: الأمر كذلك غير أن الشجر أضحى أقزاما واحتاجت مزارعكم إلي مجهـــودات كـــبيرة وأضحت مياهكم في خفاء تدمع تحت الشجر وتري ليات مياه سوداء تمتد تحت الشجر.

قلت: هذا تطور زراعي.

قال العملاق: نحن كنا في غني عن ذلك.

قلت: كـــيف؟

قال: إننا أمام جداول مائية متدفقة متجددة تنساب بين الأشجار وما علـــى المـــزارع إلا أن يحـــرف المزارع شيئا من الماء بقدر حاجة أشجاره ولو عادت السنون ورأيت في هذه الشعاب تلك الغابات، وأنـــواع من الفواكه والأشجار المثمرة التي تحمل غذاء ودواء وجمالا وارتفاعا وتلاقيا بين رؤوس الجبال وأغصان الشجر لرأيت عجباً عجيباً وخيراً وفيرا.

قلت: أين ذهبت تلك الغابات.

قال: إن الإنسان مدمر، فمن جور الإنسان وظلمه وطغيانه أخذت تتناقص كل الأشياء من حول حتى تكوينه الجسمي، ثم هو جائر على الطبيعة إحراقا وجرفا وتقطيعا وتدميرا فنضب المياه، وتصاغر الشجر.

قلت: كما تفعل إسرائيل في جنة الله في أرض فلسطين فهي تجرف وتقتلع الشجر وتحرق الأنهار؟

قال: إنها صورة مصغره لما فعله الإنسان ويفعله في هذه الطبيعة.

قلت: ولا تنسي في عالمنا اليوم، أحرقنا الغابات ظلما وجوراً وزعمنا أن الرياح والعواصف والأعاصير كانت سبباً، والواقع هو أننا نريد أن نبني عليها العمران والمصانع.

قال: وأنتم يأهل الصحراء كم مدينة زحفت على المزارع وجعلتم النخيل ممدداً ودمرت الأودية حول المدن واحتطبتم أشجارها حتى أضحت قاعاً صفصفاً.

قلت: هذا قبل اكتشاف البترول والغاز والكهرباء.

قال العملاق: ما زلتم تدمرون الأشجار لأجل النزهة فكل بيت فيه مشب نار ومجلس حتى يظن الظان أنكم كرماء وأصحاب وجاهة وثراء.

قلت: إننا بشر لم نلتزم بنظام ولا ضمير فدمرنا الطبيعة الجميلة بأيدينا وأيدي العمالة الوافدة.

قال العملاق: بل إن التدمير بدأ مع بداية الإنسان فكما كان عقله هذا مصلحاً معمراً بانياً يكون أحياننا مدمراً محولاً الأشياء عن طبيعتها، مستهلكاً لها، وكثيراً مصارعاً لها لائذاً بالحاجة.

قال العملاق: إن هذه الأشجار أقل من القليل وأقصر من القصير إلي جانب الأشجار التي رأيتها في مستهل حياتي.

قلت: فهل بقي بعض منها؟

قال: إنك ذكرت شجرة ألبان.

قلت: نعم.

قال: إن فيها خيرات كثيرة فيستخرجون منها الزيوت الغذائية والعلاجية وأوراقها فيها خصائص طبية كثيرة، وهي تنوب عن الحبوب تارة وهي كانت تملأ الأودية، وتكسو الجبال وتغذى الإبل والبقر، والأغنام وجميع أنواع حيوانات الصيد وطيوره ومثلها الكثير من الشجر المثمر المفيد.

قلت: هل عندكم أعراف أو قوانين لحماية الشجر؟

قال العملاق: أنت سألت عنها سؤالاً علمياً متطوراً مماثلاً لعصركم العلمي.

وأردف العملاق قائلا: وإن كنا لا نملك قوانين مكتوبة ولكن كل منا يحمل ضميرا فلا يقطع غصناً أو شجرة إلا للضرورة ولذلك يحمل ما يسمي بالمحجن وهي عصا كبيرة رأسها معكوف، يضرب بها الشجر فيتساقط للأغنام، وأحياننا يُميل به الأغصان لتأكل منها الحيوانات.

وقال: ومن الأعراف: إن المجتمع متكاتف لحماية الشجر، فهم يعيبون على من يقطع الشجرة كاملة، ومنهم من يحمي الوديان أو الشجر أو الكلأ ولكن الفوضى تدب كثيرا لفقدان أمن الدول.

قلت: نحن ندلف إليها لنرى ما نرى من معالم الغاب، ففيها أنواع الشجر، وألوان الطير والزهر، وفيها التغريد وفيها الحفيف، وفيها الحيات وفيها القرود.

قال العملاق: هذه كانت من المناظر التي تتجاوزها العين والأذن إلي ما هو أعظم، فالغابة عجيبة وهى عالم متكامل ففي جذورها وعروقها حياة للزواحف والحشرات وحولها تخر الجداول بالماء وعلى أعضداها تتكئ الغزلان، وفي أحضانها تتصارع الحياة، فالقوي يلتهم الضعيف، وفي أسواقها وأغصانها يعيش عالم من الحيوانات فالنمور تصعد، والقرود تقفز، وإنسان الغابات يطوح به الهواء بين كل غصن وغصن والأعشاش تملأ الأغصان، والطيور تحتل مسافات متفاوتة من الشجر فأعاليها للنسور والصقور والغربان وأوسطها للحمام والقط وألوان شتي وشتي.

قلت: وكيف بالإبل؟

قال العملاق: إنه منظر تألفونه فهي تمد أعناقها وتقطف من ثمار أشجارها وأوراقها، وتارة تقفز عليها الذئاب من أعضاد الشجر فتستقر على أردافها خلف سنامها فيحاول البعير الفكاك فلا يستطيع أن يصل إليها بأنيابه وأنياب السبع من الذئاب أو النمور تلتهم السنام وتفجر الدماء حتى يهلك البعير ويسقط فريسة مشاعة تتصارع عليه الوحوش من الأسود والضباع والذئاب والنمور.

قلت: هل رأيت هذا المنظر؟

قال العملاق: رأيته كثيرا فسبحان الله خالق هذا الكون في صراع.

قلت للعملاق: كيف تسيرون في هذه الغابات الكثيفة الكثيرة ألا ترهبون.

قال العملاق: الخشية حاضرة والرهبة دائمة والحذر كل الحذر يمتلك السائر في الأدغال ولكن الله زرع الخشية للإنسان ومع ذلك فسيوفنا قوية ومسلولة والرماح جاهزة والسهام معدة.

قلت: إنكم عالم آخر له أسراره وليس هناك جوع فاتك يدعو إلي المخاطرة.

قال العملاق: الغاب عالم مخيف.

قلت: معني ذلك أنكم تخشونه وتخافون منه وتهربون عنه أما نحن، فنهرب إليه من صراع الإنسان ومكابدة الحياة.

قال العملاق: أمّا نحن فأجتمع علينا صراع الإنسان، وفتك الغابات.

قلت: كيف يفتك الغاب وشجره؟

قال العملاق: إن الغابات أشبه بالبحار العميقة ففيها من الحيوانات المخيفة الفاتكة الكثيرة، وأقل فتكا الأسد الذي ترعبكم.

قلت: هذا أمر عجيب.

قال: لو رأيت الزرافة وهي مولية هاربة، ولو رأيت الأسود تزأر وتزأر، ثم تولي هاربة من حيوانات انقرضت مثل التنين وهناك حيوانات ومخلوقات اندثرت مع الغابات لا تخطر على خيالكم.

قلت: إن العالم الشجري عالم مثل الأمم تختلف أشكاله وطباعه وأنواعه.

قال العملاق: بماذا تستدلون على الجهات الأربع؟

قلت: بالقمر، والشمس، والنجم القطبي.

قال: وهل الشجر يدل على الاتجاهات؟

قلت: لا علم لي بذلك.

قال: إذا أردت معرفة الشرق والغرب فإن تجمع الأتربة دائما يكون في الجهة الشرقية ومن، ثم تعـــرف بقية الاتجاهات.

العملاق

(٣٠)

كنا في شعاب جميلة لكن نضب منها الماء و لم يبق إلا آثر الجداول والحصاء الأسود الذي حوله جريان الماء إلي لون من البياض.

فقلت للعملاق: ألم تستخدموا الشجر للطب وتعرفوا خصائصه؟

قال: ليس لنا في زمننا إلا الشجر منه الغذاء ومنه الدواء، وقد اكتشفنا أشياء من التي منحها الله للأشجار.

قلت: هل بقي في الذاكرة منها شيء أو ما زلت تستعمله؟

قال: بلى ولكني لست طبيباً حتى أعرف الأشجار الطبيعية معرفةً كاملة.

قلت: تحدث عما تعرف.

قال: كانت هناك شجرة متوسطة الطول، ولها ورق كبير كنا نستعملها من أجل مواصلة العمل.

قلت له: هل تأكلونها أم تطبخونها أو تبيتونها في الماء ليالي وأيام؟

قال العملاق: إنما كنا نعمل منها إكليل ونلبسه على رؤوسنا فمن عمله ولبسه فلا ينام ما دام فوق رأسه، ولا يتعب ولا يكل من العمل ولا يضعف.

قلت: والله هذا اكتشاف؛ فكيف إذا انزله عنا إذن يظل أياما وهو مرهق؟

قال العملاق: تكون قوته كما هي حتى بعد خلعها.

قلت: لعلها كثيرة وتراها الآن.

قال: غابت عن الوجود إلا شجرة في جبل شاهق استعملها أحياننا إذا كنت حولها.

قلت: هل من غرائب الشجر يجول في خاطرك؟

قال العملاق: كنا في احد المنازل وبجانب النزل شجرة غريبة الشكل لها رائحة متميزة فوجدنا كلبا ميتا بجانبها، فأبعدناه، وذات يوم استظل بها شاب فوجدناه ميتا، وتبين أن من جلس بجانبها نهارا يموت في أقل من ساعة.

قلت: عساك لم ترها الآن وعسي أن تكون، قد انقرضت.

قال: هي في طريقها إلي الزوال، فلم أرها إلا نادرا، ولذلك لم أستطيع أن أجلس بجانب شجرة حتى أميزها عن هذه الشجرة الخبيثة.

قلت: ألم تحاولوا استعمالها للأعداء، أو توظفها العجائز الشريرات، أو النساء الغاضبات، أو الرجال الحاقدون الحاسدون.

قال: إن الأمر فيه حذر وحيطة فالناس يخشون منها فالذي يقطف أوراقها أو يقطع أغصانها يموت مباشرة.

وقلت: وكيف تحذرونها؟

قال: نحرقها عن بعد ولا نكون في اتجاه الرياح.

قلت لصاحبي العملاق: ألم يخطر في بالك أشجار مفيدة غير هذه كأن يكون علاجا مفيداً لمرض من الأمراض.

قال العملاق: هناك شجرة عظيمة الفائدة لك ولأمثالك من أصحاب السكر ومن تقدمت بهم السنّ.

قلت: ما هي لعلي أستفيد منها لهذا المرض المزمن الذي يصاحبني أكثر من عشرين عاما.

قال العملاق: إنها تفيدك وتصالح ما بين الأزواج متقدمي السن، فتسعد حياة الرجل والمرآة وتقضي على الخصام الدائر بين الأزواج كبار السن.

قلت: وهل هذه الحالة بين الأزواج قديمة من أيامكم؟

قال: نعم إنها الطبيعة البشرية.

قلت: أيها الصاحب عرفني عليها قبل الافتراق أو النسيان.

قال: هناك شجرة ذات منظر جميل، ورائحة عطرية طولها ذراعان إذا جمع من ورقها وأغصانها، ثم دق وعُصر ماءها ومكثت العصارة حتى تجف.

قلت: وكيف استخدمها بعد؟

قال: يأخذ منها الإنسان مقدار دانق أي(ملعقة صغيرة)ويضعه في نقيع من العنب أو التمر، ثم يشربه.

قلت: الأمر سهل ولكن ما الفائدة بعد هذا العناء؛ هل يشفي من مرض السكري؟

قال: نحن في زمننا لا نعرف السكر ولكن نستعمله لتقوية الذكورة.

قلت: فهل يساعد كبار السن؟

قال: إن القضيب يشتد معه ويجامع به الرجل لو شاء يومه أو ليلة كاملة ولا يتدفق منه الماء ولا يحس الرجل بتعب ولا ضعف.

قال: ولا يكون هناك إنزال ولا يزول الاشتداد إلا أن يقف الإنسان في ماء بارد إلي نصف صدره لمدة ساعة.

قلت: هل نأخذه بعد ذلك للطبيب ولا سيما مرض القلب؟

قال العملاق: أبدا لا ينال مستعملها ضعف ولا عناء ولا مرض وإن كان عمره ألف سنة **مما** نعد ومائة سنة **مما** تعدون أنتم.

قلت له: والله إنك لتنال براءة اختراع على مستوي العالم، فأخبرني عن هذه الشجرة وأعاهدك أن تكون لك براءة اختراع.

قال العملاق: لعدم حاجتي إليها منذ زمن فإني لم أرقبها ولست أدرى هل زالت مع الأشجار أم لها بقية باقية.

قلت: لعلك تجد لها أثرا لتصلح بين الأسر، وتسعد البشر، وتنال الأجر، وتكثر من النسل، وتعز من ذل أمام قرينة العمر.

وقال: سأحرص على العثور عليها فلعلي أجدها وأهديها لك.

قلت: ذكرت بعض الشجر القاتل؛ فهل هناك من شجرات منجيات؟

قال: **نعم**، رأيت حادثة بين حية وسنور، فإذا الحية تقذف سمها فيصير السنور أسودا فيسارع إلي شجرة فيحتك بها فيذهب السم، ثم يعود لصراع الحية وهكذا حتى قضى عليها السنور.

وقال العملاق: وهناك شجرة لعلاج الحمى.

قلت: ما زال مرض الحمى يفتك بالبشر وأنتم اكتشفتم شجرة تعالجها.

قال العملاق: المشكلة والقضية أن التراكم المعرفي غير موجود في العالم العربي.

قلت: فلو دونا معارفنا لتراكم لنا علوم كثيرة.

قلت: ما أوصاف هذه الشجرة؟

قال: هي نبات له ورق وليس بالطويل.

قلت: كيف استعماله؟

قال: يحفر عن أصله وهو مستدير ويقشر، ثم يطبخ فمن أكل منه زالت الحمى عنه بأنواعها.

فقلت له: لعلك تعثر عليها وترشد الناس لاستخدامها وتنال الثواب والأجر العظيم.

العملاق

(٣١)

كنت جالساً مع صاحبي العملاق فوق تل رملي مطلا على هضاب صغيرة وأرض منبسطة واسعة، فإذا الطيور الضخمة تحلق قريبا منا حتى فزعْت وخُفت أن تختطفني ولا قدرة لصاحبي على الدفاع عني.

فقال العملاق: ما هذه الطيور؟

قلت: هي نسور أو صقور أو عقبان.

قال: ألا تعرف هذه الطيور وتفرق بينها؟

قلت: إنني بها جاهل.

قال: هذه العقبان.

قلت: إنها أظللنا وكأنها تقف فوق رؤوسنا، فإذا بها تدنو أقرب فأقرب حتى حجبت عنا السماء.

قلت للعملاق: ألا تقف وترفع عقيرتك لعلك تفزعها عنا وتهرب قبل أن تنقض علينا.

قال: لا تخف فنهض صائحا فولت هاربة ولكنها لم تلبث أن عادت بالقرب منا.

قال العملاق: إنها رأت لها صيدا فإذا بها تتنزل رويداً رويدا فوقف العملاق وإذا ببعير ميت، فاجتمعت عليه وذهب إليها العملاق فلم تفزع منه وأخذ يقف قريبا منها، ثم هو يقترب منها في هدوء ويلامس ظهورها، ويحتضنها، ثم عاد لي بأحدها ليداعبني بها، ويفزعني بها فأدركت أن الله سخر كثيراً من هذا الكون للإنسان.

قلت: فكيف لو أنتزعك إلي السماء؟

قال: كل منا عملاق، وكل منا معمر، وكل منا يحب المعالي والعلو، وسخرها الله لنا ولعلنا لا نفتك بها، وهي تارة تغضب، فتحمل طفلا وتصل إلي أعالي السماء حتى تري معالم هذا الأرض كلها، وقد منحها الله نظرا ثاقبا تدرك فريستها من علو شاهق يعلو كل ما فوق الأرض.

قلت: هل استطعتم ترويضها والاستفادة منها؟

قال: **نعم**، إنها لا تحاول أن تصيد وإنما تقع على المتهالك أو المقتول حتى نمسك بها ونروضها شهر فتكون أفضل الطيور وأقواها الطيور للصيد، هي تفتك بالغزلان فإذا طال جوعها فتفتك بالصبيان والذئاب وهي تخاف الإنسان، وهي لا تأكل قلوب الطير.

وأردف يقول: إنه طائر عجيب يحمل صفات الأسود، والخيل، والنسور، والصقور.

قلت: كيف سرعتها؟

قال: إنها تتغذي في العراق وتتعشى في اليمن وربما قطعت المشارق والمغارب في يومها.

قلت: هذا ليس بالغريب فالطائرات تجوب الكون.

قلت: هل هناك فوارق بين النسور والعقبان؟

قال: إنها تختلف في طباعها ومناقيرها وفي أحجامها، لكن النسور لا يمكن ترويضها.

فقلت: أيهما أكثر طيران وأكبر حجما؟

قال: إنهما متقاربان.

وقال: كنت فوق جبل، قد نفقت إبل لمرض ألم بها ولا تعرف كنهه، فأتت الطيور من كل حدب وصوب، حتى خشيت ولكن المنظر جعلني ألتجئ إلي كهف، وأتأمل في هذا المنظر الرهيب، فرأيت ضخامة الطيور وتنوع أشكالها وأخذت تلتهم من الإبل الميتة، في جماعات وجماعات، وهي مسالمة لا متصارعة، وعاودت التأمل في أيام متعددة، حتى إذا أتت الطيور والسباع على اللحوم، وأخذت تحاول الهيمنة على البقية فتبين لي أمور كثيرة، فإن الطيور الضخمة لا تخشي الأسود ولا النمور، وإنما تخشي الضباع، ورأيت أن الطيور أمم متعددة فمنها العقبان تتنافس مع النسور، وتخادعها الصقور والباز بخفة الانقضاض والطيران، فإذا شبعت النسور فإن قدرتها تضعف وتقترب منها الوحوش والطيور.

قلت: إنه مشهد لو كان معك آله تصوير كما اكتشفا في عصرنا، لسجلت مشاهد غريبة ومتنوعة.

قال: لو إن الآلة هذه معي وأصور مشاهداتي عبر ألفي سنة.

فقلت: إنك تمدنا بمعارض تجوب الكون ويطلع عليها ملايين البشر وتبهر الجميع.

قلت أيها العملاق: وهل العقبان والنسور هما أعظم الطيور، ضخامة، وتحليقا في الفضاء؟

فقال العملاق: أعجب الطيور التي رأيتها في السماء هي العنقاء.

قلت: نسمع بها ونقول عنها من المستحيل رؤية العنقاء، ووجود الخل الوفي.

قال: يروى لنا أصحاب الحكايات: أنها أجمل الطيور، شديدة البياض وتشع أنورها في السماء أكثر من طائراتكم، وصدرها مشع كالذهب.

قلت: وهل سمعت عن مكوناتها الجسمية؟

قال العملاق: إنهم ينقلون لها صوراً فوجهها وجه إنسان، ولها ذوائب كذوائب النساء.

قلت: وكيف تكون أرجلها؟

قال: إنها لها رجلان كالسواري الضخمة.

قلت: وهل الجنحان يرفعانها؟

قال العملاق: بل لها عدد من الأجنحة يعلو بعضها فوق بعض ويتجاوز بعضها بعضا حتى تملأ الفضاء، بل لها أيدي كثيرة وأصابع كثيرة تحمل ما تريد وتختار من الحيوانات والثمار ما تريد.

قلت: إنها من العجائب.

قال العملاق: يروون أنها لم تلن جوانبها إلا لأثنين من البشر أحدهما آدم عليه السلام، فلما أحضرت عنده أُعجب بها وبجمالها وحسن تصويرها.

وقال: ذكرتني بطيور الجنة وبكي على الجنة وحياتها.

قلت: وهل هي معمرة حتى لا نيئس من رؤيتها؟

قال: سألها آدم عن عمرها.

فقالت: ألفي سنة.

قلت: ومن الآخر الذي راءها.

قال: خضعت لسليمان مع الطيور والحيوانات وكان الأقوام القديمة تراها محلقة في الكون فهي تطوف العالم.

قلت: لقد قلدها العلماء المعاصر بمراكب الفضاء فهي تدور حول الأرض عشرات المرات في يومها.

قال: كلما علا الإنسان أو الطير صغر ما تحته حتى يختفي.

قلت: وهل تكبر السماء حين يرتفع الطير ويقترب منها؟

قال: لم أجرب ذلك ولكن هناك من يزعم أن الطيور ارتفعت به حتى لم ير الأرض و لم تكبر السماء أمامهما.

العملاق

(٣٢)

أخذتني الأسفار لمتابعة الأخبار من المثقفين والعلماء الأبرار، فقد حضرت منتدى الأمير عبدالرحمن السديري في منطقة الجوف بدعوة من الدكتور/ زياد بن عبدالرحمن والأصدقاء والدكتور/عبدالرحمن الشبيلي، الدكتور/فلاح السبيعي.

والتقيت بوكيل إمارة الجوف: الأستاذ أحمد آل الشيخ وجمع غفير، فلما عدت إلي تبوك، وجهزت عربتي والتقيت بالعملاق في شمال مدينة الحجر المنحوتة: تلك المزارع وبجانبها المباني الأنيقة، والاستراحات الجميلة وكنا في الجانب الشرقي منها.

فقلت لصاحبي العملاق: أنظر إلي هذه المزارع الضخمة، فالسهول رياض خضراء، والشعاب تموج بالنخيل، والليمون، والبرتقال، والرمان.

قال العملاق: يا عزيزي إنما ترونه كبيراً نراه صغيراً، وما ترونه كثيراً نراه قليلاً، فأين أنت من مزارعي ومزارع أقوامي فالكثافة من الأشجار المثمرة، وسنابل الحبوب المتماوجة وجداول المياه الجارية وأيامنا مع الفتيات الأنيقات الرشيقات يحملن فوق رؤوسهن المكاتل فيجنين القليل من الثمار، وتتساقط عليهن الكثير، وأما أجمل الفتيات والأشجار تحتضنهن، والورود والأزهار تستوقفهن وبأيديهن أكبر الزهرات وأجملها البيضاء، والزرقاء، والحمراء وربما نال أحد الشباب هدية وردية.

يقول العملاق: لسنا في حاجة إلي قنينات العطور الفرنسية، والإيطالية ولا إلي مصانع العود.

قلت: إنه الاكتفاء الذاتي الذي سخره الله لكم.

وقال: إن المرأة تصنع ذلك في بيتها.

قلت للعملاق: كيف كان أحجام الثمرات، والتمور، والرمان، والعنب؟

قال العملاق: أحمد الله على أنك لم تر هذا التفاوت، فينقطع قلبك حسرات على الماضي الجميل.

قلت: وأنت أحمد الله على العمر المديد الذي أورثك العلم الوفير، والأجر الكبير، وأنقذك من كل موقف خطير.

قال: ما أكثرها وما أرهبها.

قلت للعملاق: إنك أمواج من الخواطر والمعارف وحتى لا ننسي سؤالي عن أحجام الثمرات.

فقال: سبحان الله القدير المقدر، إن أقوامي أمم سريعة التكاثر، ضخمة الأجسام، يلتهمون الغذاء بما يعادل غذائكم ثلاثين مرة فقدر الله لنا ضخمة الثمرات فإن عنقود العنب لا يقدر عليه إلا خمسة رجال

يضعونه على خشبة، ثم يحملونه، وأنتم تحملونه في أكفكم مع صغر أيديكم فأنتم تضاءلتم، وثماركم صغرت جدا، وأما الرمانة فإذا نزع حبها فإن شطرها يدخل فيه خمسة رجال، وأمّا التمور فحدث ولا حرج فالنخل ضخم الجذوع وكثيرة الفروع، ومتعددة وقل مثل ذلك عن الثمار الأخرى.

قلت: إذن كيف كانت الحبوب من القمح والشعير وأشجارها؟

قال العملاق: إنك لا تتصور ضخامة الزرع فهو أقرب إلي أشجار الليمون والبرتقال والرمان اليوم.

قلت: وكيف مقدار الحبة من السنبلة؟

قال: لا تقل كيف مقدارها ولكن كيف حجمها.

قلت: كيف؟

قال: إن حبة القمح تماثل بيض النعام.

قلت: وكيف تطحنوها؟

قال: في زمن آدم وأبنائه كانت لينة يأكلونها برطوبتها وهي ألين من الزبد وهي ذات حلاوة كالعسل، ثم أخذت في التصلب ولذا تم اكتشاف دقها وطحنها.

قلت: فهل رأيت هذه الثمرة للقمح في طورها الأول؟

قال العملاق: لم أدرك ذلك وإنما هي كرامة لآدم عليه السلام وبركة في الأرض البكر، والماء الزلال وتطورت أحجامها في مراحل متعددة، حتى زمن عيسي عليه السلام فكان تناقص ثمرة القمح والشعير من المشاهد التي تملأ حديث الناس ويتفكرون فيها، وتخشع لها عقولهم.

وقال العملاق: إن جوانبي تهتز والألم يعتصرني حين أقارن بين ثمار الماضي والحاضر ليس في الأحجام فقط ولكن في المذاق والجمال مع الأحجام.

قلت للعملاق: كيف تطحنون هذه الثمار من الحبوب؟

قال: أدوات الطحن متواجدة تحت قدرة كل فرد فالحجارة متواجدة فالفرد يمسح الحجر المسطح ويأخذ الحجرة الصلدة بيده فيدق الحبوب، ثم يسحقها وهكذا يخرج الدقيق.

قلت: هل هذه وسيلتكم الدائمة؟

قال: نحن العماليق أهل التطور فكل شيء نبتكره ونخترعه، فالحاجات الأولي للإنسان كثيرة فيلهم الله الناس لضرورياتها فيبدعونها بعقولهم.

قلت: ما أدوات الطحن التي اهتديتم إليها؟

قال: أولاً اخترعوا الرحى وهي المصانع المتنقلة المتواجدة في المدائن وفي البراري والنزل، وكل بيت فيه رحى.

قلت: هذا لا يكفي.

قال: رأيت رحى ضخمة تدور بها الحيوانات، فالإبل تدور بها والبغال والبقـــر فـــتطحن الكميـــات الكبرى.

قلت: أدركت بعضها وكانت أمهاتنا تطحن على الرحى.

العملاق

(٣٣)

رحب بي العملاق عن بعد، وقد كان في استقبالي لموعدنا.

فقلت: السلام عليكم فرد التحية بأحسن منها وهو أكثر إشراقا وابتساما.

قلت له: إنك تنعم في بلادك الأولي وذكرياتك الأولي، ومنازلك.

فقال: كل منزل يألفه ألفتي وحنينه أبدا لأول منزل.

قلت: ألم يخطر في بالك البيت المجاور لما أوردته عن المنزل.

قال: بلي نقل فؤادك ما استطعت من الهوى فما الحب إلا للحبيب الأول.

وقال: والله لو عشت في ذلك الزمن ورأيت الفتيات وحادثتهن ورأيت لطافة القول ولطافة المنطق، وجمال المنظر، والحب والفداء والتفاني لخدمة الأخوان والأقارب، فالنساء زراعة الحب، جامعات الناس بل الخصماء، والنساء مطفئات النيران.

قلت: والله إنك منصف للنساء، فهل أنتم تنصفوهن أكثر منا.

قال: نعم إننا في الأغلب الأعم أكثر تقديراً، وإنصافاً منكم لهن.

قلت: فهل المرآة لها أملاك؟

قال: نعم لها أملاك من الإبل والأغنام والبقر.

قلت عزيزي العملاق: أنت تفتح لي أبوباً للحوار.

فالسؤال الأول: هل تملك النساء كما يملك الرجال، ويتصرفن كما يتصرفون؟

قال العملاق: أما سمعت بالمرآتين المشهورتين أيام صالح التي خلدا اسميهما بالباطل معاذ الله منهن.

قلت: ربما نجدهما في طيات التاريخ باختلاف الروايات.

قال: إننا توارثنا حكاية المرآتين فإحداهما عجوز مسنة يقال لها أم غنم، ولها مال كثير من الإبل والأغنام والبقر ولها بنات حسان جميلات، ولما تأثرت بالناقة التي تشرب الماء يوما وتتركه يوما وكذلك كسدت تجارتها من الألبان بعد أن اكتفي الناس بلبن ناقة صالح فكرهت الناقة وحاربت صالح، واستمالت الشباب الفاتك الفقير ببناتها فهي أعلنت زواج كل من يقتل ناقة صالح عليه السلام أو يؤذيها.

قلت: لكن كيف تمتلك المرأة المال.

قال العملاق: إنها تُعطى من مهرها، ثم تأتيها الهدايا من أقربائها، فكل ما زارت الأخوان أو الأعمام أو الأخوال فإنها تعود بالهبات والهدايا.

فنحن نقول::{ضيافة مائة أهون من ضيافة ولية }.

قلت: ماذا تفيد شاه أو شاتان أو حاشياً من الإبل؟

قال: أنت دائما نظرتك من واقعك الفقير القليل نحن أكثر مالاً وأيسر حالاً، فالعطاء عندنا من الأخوة لا يقل عن عشر من الإبل ومائة من الغنم وربما أجتمع معها بقرتان حلوبتان.

قال: فكيف إذا اجتمعت من عدد من الأخوان والأخوال والخالات.

قلت: وهل ترث المرآة؟

قال: نعم إنها ترث ولكن بلا قانون.

وقلت: وهل تعمل المرأة؟

قال العملاق: دور المرأة كبير فهي التي تقوم بحلب الألبان مع معاونيها من البنات أو الخدم والعجن وتحصد، وتجمع الثمار.

قلت: فتكون ألبانكم من الإبل والبقر والأغنام كثيرة جدا؛ فكيف تستهلكونها؟

قال العملاق: إننا نشرب الكثير وتقوم النساء بتحويل الألبان إلي زبد وسمن وأجبان، وأقط ، فيؤكل ربيعا ويدخر صيفاً وشتاءاً.

قلت: حدثني عن المرأة الأخرى التي ناصبت صالحا وناقته العداء.

قال: إنها مشهورة بابنة المحيا وهو سيد في قبيلته يمتلك هذا الوادي الكبير الطويل لترعي فيه إبله وغنمه وبقره وهذه المرأة جميلة عاقلة مدبرة تملك أموالاً لا حصر لها من الإبل والبقر والغنم وتزوجت رجلاً عاقلاً شجاعاً مدبراً لكنها أكثر أموالا منه، فلما أرُسلَ صالحاً نبياً وظهرت الناقة تعرضت أموالها للكساد والظمأ، وقلة المرعي، فحاربت صالحاً عليه السلام ولها بنات أيضاً.

قلت: المرأة لها دورها.

قال: نعم، فاستقطبت عدداً من الشباب واشترطت للزواج معاداة الناقة وصالح وكان زوجها وحد الله مع صالح عليه السلام، وأخذ يمنح الموحدين المال إذا ضاقت عليهم الموارد، فعلمت بذلك وحاجته وحاولت ثنيه، وطالبته بأموالها، ولكنه لم يستطع وحاول ترضيتها عند القدرة، فخيرته بين الأموال وإعادتها أو حجب أولاده عنه، وحين لم يلب طلبها حجبت أولاده عنه.

قلت: هل ضربها وفتك بها؟

قال: لا إنما هو الحوار، ثم الحكومة إلي رجال معرفين بالقضاء.

قلت: هل هو أمر شرعي مع صالح؟

قال: النبي صالح لم يتمكن من نشر التوحيد أولا فلم تظهر له شريعة مثل شريعة محمد صلي الله عليه وسلم، وإنما وضع الحكومة الثلاثية عُرفٌ تعارف عليه القوم فطلبت المرآة(صدوف بنت المحيا) أن تناحره أو

تحاوره أو تحاكمه عند ثلاثة قضاة فرضي زوجها ولكن الأمر لم يسر على ما يرام فهي تميل إلي قاضي معارض لصالح عليه السلام وهو يميل إلي قاض موحد، ثم طلب قاض خارج عن الأحزاب كلها فرفضت، وبعد هـذه تدخلت القوي فجاء لها احد الأمراء الأقوياء.

وقال لها: الأولاد سيعودون لأبيهم برضاك أو غضبك، فدفعت الأبناء لأبيهم ولكنها ناصبت صالح العداء واستدرجت شباباً لقتل الناقة، وقد اجتمعوا مع فريق المرآة المسنة، وقتلوا الناقة، وحاولوا مطاردة صالح ولكن الله سلمه لانشغالهم بتغير ألوانهم مصادقا لوعد صالح لهم فهم غشاهم الصفرة في اليوم الأول، ثم غشيتهم الحمرة في اليوم الثاني، فكانوا أكثر ألما وتصديقا لوعد صالح عليه السلام، ثم غشيتهم السواد فهلكوا.

قلت والله: إنك منحتنا بعبر وعظات كثيرة وعادات قضائية اجتماعية ما زالت متوارثة بين القبائل حتى تحولوا منها إلي القضاء الشرعي في العهد السعودي، ثم أنتم تنصفون المرآة وهي تعلم بحقوقها وطرائق الأخذ بها.

ثم قلت له: إن المرء يعود للقوي بعد ذلك فنحن أمام هيئة الأمم فسلطتها على الضعفاء أما الأقوياء مثل أمريكا ومن تساندهم فهي تتجاوز مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وهذا هو دمار العدل البشري.

قال العملاق: قبل أن نتجاوز ذلك هم يروون عن فتاة مقعدة لا تستطيع السير وإنما تزحف زحفا فقد حماها الله من العقوبة و لم تصب بأذى فهي الوحيدة من القوم السليمة وليس ذلك فحسب بل انفلتت أقدامها وتحركت أعصابها وأخذت تجري بأسرع الجري وهي لا تدري أين مولية وجهها حتى وجدت أقواما لم يصلهم العذاب، فأخبرتهم بما جري، ثم شربت ماء كثيرا فماتت من فورها.

العملاق

(٣٤)

التقيت مع صاحبي على قمة جبال السروات التي تنحدر على البحر، فتأملنا الغروب.

وقال: إن الشمس كأنها تتنزل في أعماق البحر.

فقلت: إن العلم كشف لنا أنها تتضاءل من عندنا حتى تختفي لتطل على أقوام أخرى في مسيرتها، وغروبها في عين حمئة فهي عند البحر تغرب بهذه الصفة وكذلك في الصحراء وحتى على رؤوس الجبال فإن المنظر يكاد يشبه بعضها بعضا وهكذا دواليك.

فقال: هكذا أراد الله لها ولعلها في موعد مع عبادة لها كما أرادها الله، فهذه الحالة في البحر وهي تشير إلي وضع متفرد يحقق السجود للحيتان الذي لا نعلم كنهه.

قلت: وهل كنتم تستفيدون من البحر وتستوطنوا سواحله؟

قال: إننا نألفه ونستفيد منه، ونلج إلي أعماقه.

قلت: إنكم تستوطنون بعيدا عنه.

قال: وهل مائتي كيلا بعيدة علينا؟

بل نحن نقطع هذه المسافة في يومين، وهذا البحر كنا من رواده شتاءً وصيفاً وربيعاً، فأننا نقترب منه من أجل الدفء شتاءاً، وربيعة ينبت مبكرا فنستفيد من أعشابه، فإذا جفت وييست فتكون أعشاب الجبال، قد ظهرت وأزهرت فنرتفع إليها وترتع فيها إبلنا، وأغنامنا وأبقارنا.

قلت: وهل أنتم بادية رحل تتبعون الكلأ كما كان أسلافي؟

قال صاحبي: ليس الأمر كذلك إنما نحن نجمع بين التحضر وندرك الحياة الرعوية، فكل إنسان له دوره وبيوته من الطين والصخر وله مزارعه، وله مواشيه التي تجوب الأرض وكذلك نحن نمتلك مباني على البحر كما أنتم تملكون في المدن ودور في الريف وفي مقربة من واحات المزارع.

قلت: إن قومي الذين أدركتهم في البادية، يكرهون الأسماك، ويتلطمون عن روائحها فهل أنتم كذلك؟

قال يا عزيزي: لا تقارن أقوامي بقدراتهم وحياتهم بأحوال قومك الشعث الغبر فإنهم في حياة رعوية كاملة وهم لا يرون البحر لبعده عنهم لصغر أجسامهم وقصر خطواتهم ولمعاناتهم فهم أشبه بالصيد النافر، أمّا قومي العماليق فإنهم يرتادون البحر كل شهر.

قلت: وهل تستفيدون من أسماكه وحيتانه؟

قال العملاق: هذه ليست غريبة عنا فهي جزء من أغذيتنا فقبل البحر حولنا كثير من البحيرات التي نستخرج منها الأسماك، ثم إذا أتينا للبحر فإن الحيتان والأسماك تملأ البحر ونصطادها، ولو أنك رأيت الحيتان لتعجبت منها فهي أضخم من الإبل والبقر وهو يخرج حتى يتعثر في المياه الضحلة فنصطاده ونمكث فيه أياماً عديدة بل نجففه وننقله إلي قصورنا ومزارعنا.

قلت: إن ربعي لو يموتون جوعا لن يأكلوه وهم يرتحلون إلي الشام ويجلبون منه الحبوب و لم يفكروا في البحر وحيتانه وأسماكه وهذا حرمان لهم من مصدر غذائي مهم ولكن أقربائي البادية في الساحل يستخرجونه بطرق عديدة ويتغذون به ويدخرونه.

وقال صاحبي: إن البحر الذي تراه لم يكن على هذه الشاكلة بل كانت تحف به الأشجار والغابات والوحوش وكانت هناك حيوانات برية وبحرية معا بل جل الحيوانات قادرة على العوام لأيام عديدة وتتغذى من البحر، فالوحوش والحيوانات تهاجر إلي أفريقيا.

قلت: ذلك أمر عجيب!

قال العملاق: لو رأيت الإبل وهي تخوض عباب البحر وكأنها تستحم مثلنا وتخرّج وتارة تبرك جماعة على الشاطئ متجهة إلي البحر وأذكر إحدى الإبل لنا انطلقت إلي البحر وذهبت تقوم و لم تعد إلينا.

قلت: فهل هي هاجرت أم التهمتها وحوش البحر؟

وأردف قائلاً: أما البقر فهي أكثر عوما وولوجا إلي البحر وكنا نمسك بأدناها وهي تعوم في البحر وكنت وبعض الشباب نعمل سباقاً.

قلت: ألم تخشوا من اندفاعها وهجرتها إلي أفريقيا؟

قال: لا يخاطر إلا من يستطيع السباحة.

ثم قال: وهناك مخاطر أكثر فالتماسيح والقروش تخطف الأبقار والأغنام والإبل فلا بدّ من اكتشاف البحر قبل اقتراب الحيوانات منه.

قلت: إن مراكبكم صغيرة، فهل تتعرضون للمخاطر؟

قال: إن المستوطنين الدائمين هم الذين يملكون المراكب ويغامرون إلي مصر، وينقلون التجارة، وهؤلاء يتعرضون لمخاطر أشبه بالأساطير، فهم يرون الأشباح وتارة تحميه الأشباح أو الحيوانات البحرية من العواصف فيذكرون إن الحوت الضخم حال بين القارب وبين تيار الرياح وأخذ يسير بمقدار سير القارب، وتارة يساند القارب، حتى لا تغمره المياه، وكثير ما يتعرض القارب لفتك وحوش البحر.

ومن الغرائب: أن قوما من ثمود اتجهوا إلي الساحل بعد هلاك الثموديين واستوطنوا الساحل، بعد مضيّ فترة العبرة والعظة ونسوا هلاك قوم صالح بالعذاب وكان يخرج لهم الشيطان من البحر ممتطيا حوتا وكرر الخروج كل شهر حتى رأوا فيه غرابة فظنوه إلها وسجدوا وهكذا كلما خرج سجدوا له وكان الشيطان يستجيب لدعائهم بأشياء سخرها الله تعالي له.

فجاءهم نبي أو رجل موحد فدعاهم إلي توحيد الله ولكنهم رفضوا وعصوا أمرهم ولكن الولي حاورهم وجادلهم فلم يستجيبوا له.

فقال: ما رأيكم لو أني آمره فيطيعني؟

فقالوا: نؤمن لك ونوحد الله، وأخذ عليهم العهود والمواثيق فدعا الرجل الصالح الشيطان وخرج الحوت من البحر وعاهد الشيطان الرجل الصالح أنه يؤمن به ولما خرج الشيطان على شاكلة الحوت الضخم يمتطي أحواتاً متعددة وعلى رأسه تاج ضخم، ومعه مشهد ضخم من الحوت، فأمره الولي أن ينزل فنزل واستجاب للولي ووحد الله ولكن القوم سجدوا له حين خروجه وظلوا ساجدين حتى عاد الشيطان المتلبس بالحوت إلي البحر فنهضوا بعد طول سجود ورفضوا الاستجابة ونقضوا العهود والمواثيق، وجادلهم الولي الصالح طويلاً لكنهم عتوا وتكبروا فأهلكهم الله بأمواج عاتية وعواصف مطرية فيها رعد وبرق فرحف عليهم البحر وهلكوا جميعا.

قلت: إن هذه المعلومات عن تآلفكم مع البحر، قد دعتني إلي استمطار ذاكرتك الداخلية حول مزيد من تعاملكم مع البحر.

فهل تريد أن نجوب الساحل في رحلة ساحلية أو بحرية؟

قال صاحبي العملاق: أتمني أن نتحاور على شاطئه وبطاحه الجميلة وتربته النظيفة وأمواجه الهادئة، ونسماته اللطيفة ومدّه وجزره.

قلت: الحمد لله هذه الأيام هادئة ليست من أوقات الرياح الخماسية.

قال: إلا أن يريد الله.

قلت: لا ريب في قدرة الله وإرادته ولكنى أتحدث عن السنن والأوقات الإرصادية كما نسميها، فنهضنا من مجلسنا.

وقلت: لعلى أراك وأنت تنقض لأرى سرعتك وتعثرك في الجبال فانطلق مودعا وكنت أرقبه فإذا هو يقفز من صخرة كبرى إلي صغرى أخرى وتارة يطأ الحجارة الصغيرة فإذا هي تميد تحت أقدامه، فلم يلبث أن توارى عنى.

العملاق

(٣٥)

التقيت وصاحبي العملاق في سفح جبل (شار) ذلك الجبل الشاهق المطل على البحر الأحمر ونحن ننظر إلي الساحل الممتد شمالاً وجنوباً وكنت أتباهى عليه بالمدن العامرة ضبا، والميناء شمالها ونري معالم المويلح ومعالم الخريبة وشرما.

وقلت: أين أنتم من البحر وجواره وركوبه وأسفاره؟

قال العملاق: ليت معي صورا للماضي الجميل، والعمران الكثيف والأبنية في وسط الغابات، والامتداد الأخضر يمنة ويسرة على طول الساحل الغربي وكثرة البشر، فأنت لا تري إلا قرية تقترب منها بلدة أو قرية وهل هذه الغابات وكثافة الشجر ممتدة.

قال: من إيلات (إيلة) حتى ينبع التي وصلت إليها و لم أتجاوزها زمن الغابات، ولكن الأقوام يذهبون حتى المخلاف السليماني إقليم جازان وكلهم يذكر مسقط.

قلت: فهل التواصل عن طريق البر أو البحر؟

قال العملاق: كلاهما.

قلت: إذاً تصنعون السفن والقوارب.

قال: أو لم ترثوا الموانى هذه أم أنتم الذين استحدثتموها أم أولئك الغزاة استحدثوها كما يزعمون.

قلت: أظنها منذ عهد متوسط أو قريب؟

قال: إننا نمتلك مقومات السفن، فهي من الأخشاب الضخمة والأشجار القوية ذات الجذوع الصلدة، وكنا نعمل فيها ونشطرها ونبني بها السفن والقوارب وهذه الموانى كانت أكثر عمارنا وكثافة سكانية وعددا وهي تتقارب في القرى المتواصلة، فهذا ميناء الوجه وهو أقدم ميناء للثموديين.

ويسمي الوجه لأنه الوجه البحري، ونحن أقوام ثمود الذين علموا الحضارات(نحت الجبال) وتناقلتها الحضارات عبر الشام ومصر.

ثم الإغريق الذين بنوا قوهم على أنقاض حضارات العرب وكون الإغريق لهم مجدا علمياً وفلسفياً وقوة ضاربة وهم الذين سجلوا التاريخ، فكتبوا أمجادهم وبطولاتهم واستولوا على الرواية التاريخية، فنسبوا إليهم جلّ حضارات الكون حتى الصين.

قلت: إنني أميل مع روايتك.

قال: إنها الحقيقة.

قلت: الجديد الذي من حديثك من العمران لا الاستعمار الحربي استعماركم للبحر وجوبكم أطرافه والتاريخ يحصره للغرب منذ(بطليموس)ودولة الأطالمة.

قلت: فهم ينسبون لهم كل الموانى على ساحلنا هذا بداية من إيلات ومقنا، والمويلح التي سموها (لويكة كوة) ومينا (ضبة) كما يسمها ياقوت الحموي، وضبا، والقلاع حولها والوجه وهناك مرافئ صغيرة بين المدن الساحلية.

قال العملاق: أتظن الجاهليين الذين سبقوكم بقرنين أو أقلهم أقدر منا فهم يذهبون إلي الحبشة، فنحن أقوي منهم وأكثر التصاقا بالبحر وأعمارنا تخولنا لأن نبعث زمنا طويلا وليست مثل أعماركم القصيرة وكأننا لم نغب إلا أياما.

ألم تر العمانيين: ملكوا أفريقيا وزنجبار وتظن أننا لم نصل إلي تلك الديار إن لنا قبائل هاجرت إلي السودان والحبشة كما لكم قبائل هاجرت بعد الإسلام إلي مصر وليبيا وتونس وإلي المغرب وموريتانيا وإلي السودان وارتيريا والصومال.

وأردف يقول: إن البحر الأحمر (بحر القلزم) كما كنا نسميه مجمع لأشتات البشر من العرب والهنود والأشوام والمصريين والإغريق.

ثم الرومان ولو رأيت أطراف جيوش ذي القرنين حين عاد من الغرب بجيوشه التي أذعنت له، وقد ذكر لنا الأوائل المعمرين كيف أن أهل الموانى والسفن والقوارب تفد إليه مذعنة مبايعة حتى أن الأمراء والسلاطين: امتطوا البحر وسلموا له.

قلت: إنه تاريخ في طي النسيان.

وقلت: إن التاريخ لم يخلد للساحل ولا للبحر ولا للموانى إلا بعد أن كانت الغلبة لليونانيين الذي اخضعوا الموانى لقوته الحربية حين غلبوا على البحر، واستحوذوا على التجارة، وهم قد وجدوا الموانى جاهزة لهم ولكنها شبه مهجورة للتحول بفعل الحوادث والكوارث.

قال العملاق: تلك الموجات في سنين معدودة وغزوات وقتية وسرعان ما يضعفون ويتركون الموانى حتى تملك الحاميات فيها وكم من مرة حاصرهم أهالي الساحل واستولوا على ممتلكاتهم: إنها أشبه بالغارات البرية على أعالي الحجاز فهم يأتون في حملات عسكرية ويستوطنونها زمنا يسيرا.

قلت: فلماذا ذكرهم التاريخ وكان أسلافك في نسيان من التاريخ؟

قال: هم قوم يدونون ويكتبون، وينشرون العلم والمعرفة، أما نحن قوم لا تدوين لنا ولا تراكم علمي مكتوب لتاريخهم الحافل بالأحداث والحروب والنوازل الزمنية.

قلت: معني ذلك إن عندكم موانى ومراسي بحرية.

قال: هي كثيرة تنمو الموانى ومدنها مع الدول المستقرة، وتتضاءل زمن الحروب والصراع الداخلي للدول، فالوجه أزدهر في زمن الدولة الأشورية حين كان منفذا بحريا لها.

قلت: أكثر الأسماء أجنبي وليس بعربي.

فقال: أنتم أخذتم الأسماء من القوم المحتلين وهم أحدثوا أسماء تناسب لغتهم أو حرفوها أو كان أدائهم اللفظي هو الذي غلب على الكتابة.

قلت: وهل المدن الساحلية أكثر ازدهاراً؟

قال: إن المدن الساحلية أكثر ازدهارا وتأتيها السفن والقوارب، فهي مركز تجارى يفدون إليها من الداخل بأنواع من المنتجات التي يرغب بشرائها تجار البحر.

قلت: وهل لديكم ما تحتاج إليه الأمم الأخرى؟

قال العملاق: **نعم**، إنهم يميلون إلي ثمار الأشجار فهي زهور وهي غذاء، وهي دواء وأنتم الآن تعرفون الشيح والقيصوم، والجعدة وشجرة ألبان، وعندنا أضعاف ذلك ونحن نكون لنا صيدليات علاجية من هذه الأشجار ويبعثون بها إلي تلك المدن الساحلية.

قلت: هذه أشبه بالتوابل من الهند.

قال: أكثرها كان عندنا وعندنا شجر له خصائصه العلاجية وفيه أنواع للنظافة بدلا من الصابون.

وأردف يقول: وكان الطلب كثيفا على الأصواف والجلود، والفواكه المجففة، وجلود الفيلة وصاحب القرن الوحيد إن الأسواق مملوءة ومزدهرة وعروض التجارة كثيرة وكذلك نستقبل ألواناً كثيرة من عروض التجارة، كالألبسة، والجديد من الأوراق الشجرية، والتوابل الحارة.

قلت: كيف تكون عملات الأجناس المختلفة منكم أنتم العرب ومن أفريقيا والهند وأوربا؟

قال: أن البيع بالمقايضة في أكثره، فهم يبيعون أنواع السلع بأنواع أخرى وبالذهب والفضة.

قلت: هل تري الآن من معالم البلدات والقرى الأخرى التي كانت في زمنكم؟

قال: نعم، إنها كثيرة ولعل أطلالها ما زالت متناثرة في الساحل وقريبا منه وأنتم ترونها ولكن لم تقفوا عندها وتستنبطون منها سير حياة الماضي.

قلت: فيك البركة لعلك تكشف لنا عن بعضها.

قال: كل مباني من أحجار متهدمة الجوانب، أو مبعثرة أو على شكل حائط فإنها من بقايا القرى والمدائن، والكثير أندثر مع فقدان المياه ومقومات الحياة، فأنت تري التصحر كيف فعل فعله ومن، ثم ضعفت مقومات الحياة حتى المدن الساحلية تضاءل عددها وقل سكانها لهجره الناس إلي الشام ومصر.

قلت: إن المؤرخين يرون أن البطالمة هم الذين بنوا الموانى والمدن من حولها.

قال العملاق: إن الموانى مزدهرة وهم الذين يفدون إليها لعروض التجارة، وهم حوروا الأسماء عن طريق المشافهة، ثم الكتابة وهم لم يؤسسوا ميناء واحدا بل وجدوها قائمة، فالعرب الأوائل الأقدمون مثل الفينيقيين والكنعانيين والليحانيين، قد أحيوا هذا الساحل وبنوا موانيه ومراسيه، وأبدعوا بصناعة قواربه وسفنه، فلما جاءت موجات الدول الأخرى: أطلقوا عليها مسميات محورة أو جديدة.

قلت: هل في زمنكم خضعت دولكم وسلاطينكم إلي البطالمة والرومان؟

قال: هذا ليس واقعيا وإنما ربما يأتون في غزوات سريعة وهذا أمر متعارف عليه بين الأمم.

قلت: أنت شاهدت بناء بعض المدن الحجرية ونحت بعضها، وبناء مدينة البتراء وجرش، فهل تعترفون أنها فينيقية أو يونانية.

قال: نحن بنينا الحجر ونحتنا حجراته في الجبال، ثم حفر إخواننا مدين وبدأت صناعة النحت والبناء في عهد سليمان بن داود فهو استعان بالجن، ثم جاء الأقوام من الرومان والأنباط فاتسع أمر العمران الحجري وانتشرت ثقافته وصناعته، وتهذيبه وبناء أعمدته ومسارحه.

قلت: أنا أريد أن أعرف مصداقية المقولة: التي تقول: إن أقوامكم من العماليق والعرب البائدة والعرب المستعربة لم يميلوا إلي ركوب البحر ولا تجارته.

قال العملاق: أليس أقوامنا الذين ذكرت من البشر.

قلت: **بلي**.

قال: كل إنسان يستفيد من الطبيعة حوله فأهل البراري يعايشون الرعي والزرع وبناء المدن وأهل البحر يستفيدون من البحر بل ويعشقون ركوبه.

وأردف يقول: أنتم أهل تبوك والوافدون من داخل الجزيرة ألم تعشقوا البحر والغوص حتى أضحت رياضة لكم.

قلت: **بلي**.

قال: فلماذا يحكم المؤرخون على الأمم بالجهل والجهالة ويزعمون أن أمة من الأمم هي المعلمة ومصدر الحضارة، والصناعة؟

قلت: بل زاد الطين بله، فهم ينسبون ذلك إلي التكوين العقلي فالأمة الأوربية صناعية والأمة العربية رعوية غير عقلانية ولا قدرة لها على التأمل والإبداع والاكتشاف.

قال العملاق: ما زالت الجهالة الجاهلية تصحب المتعلمين والعلماء، فهم لم يتخلصوا من النرجسية والذاتية، فالبناء العقلي ومكوناته متواجدة عند كل البشر ولكن عملية التعليم والتربية والتدريب والتفاعل تختلف في تفتيق المواهب وتكوين العقلانية فالاربيون، قد نجحوا في ذلك والدليل على أنها ليست خاصية لهم نجاح اليابانيين والكوريين والصينيين والماليزيين، وأصبح الهنود مصدر بشري للتفاعل مع التقنية، إن الخصوصية العقلانية أكذوبة النرجسية.

العملاق

(٣٦)

افترقنا في جبل شار، فقد عبرت الطريق نحو صديقي على سلمان العطوي مدير جمرك الميناء الأكبر في منطقة تبوك، ولست أدري عن مكان مبيت صاحبي العملاق في هذه الليلة، ولكن التقينا بعد صلاة الظهر لقُصر يوم الشتاء في متن جبل شار المحاذي للبحر، ومن حولنا شعاب، وجبال صغيرة وتبدو الأحجار المتناثرة وبقايا الحجرات.

فقلت له: هل بني أجدادنا ميناء كمثل هذا الميناء الذي نرى معالمه وهل تفد إليه البواخر الكبرى كمثل هذه؟

قال: إن الأمر يختلف فأنا أدرك أن منطقة تبوك أكبر من دول ذلك الزمان ونحن ممالك سلاطين متعددة، فنحن أكثر نفراً وعدداً ومالاً ولكن نفتقد توحيد أموال الدول والميزانيات المعلنة الآن والخطط الشاملة للدولة؛ فلذلك تنقضي الدولة الكبرى بموت السلطان الأكبر.

ثم نحن نملك القوة اليدوية لبناء السفن، ولم نتوصل إلي مولدات الكهرباء التي تسير السفن وإنما هي خاضعة للرياح، أمّا القوارب ذات المجاديف فإنها الأكثر سيراً وعبوراً للمرافئ القريبة، ثم أخذنا نسير على الأقدام، فكان منظري مضحكاً بجانب العملاق.

فقلت له: لعلك جبت هذه الديار وأنت شابٌ قوي فتنهد العملاق واجتر نفسا طويلاً كدت اهتز روعاً وفزعاً.

فقال: هل تصدق أن لي أسرة هنا مكونة من امرأتين ولى أولاد كُثر؛ وكنا نستوطن الديسه ومزارعنا في الفياض والرياض في أحضان الجبال؟

قلت أيها الصديق: لفت انتباهي كثرة زوجاتك ففي جبال الحرة وحول جبال شيبان ووتر ذكرت هلاك أسرتك تحت وقع البراكين وفي الحجر أشرت إلي أماكن مزارعك وأسرتك هناك، وهنا تشير إلي زوجتين.

قال العملاق: نحن نرى هذه الأماكن قريبة وأنتم ترونها بعيدة، فالسير عندنا سريعاً ومتواصلاً، والزمن عندنا طويلاً، فاليوم واليومان عندنا مثل الساعة والساعتين عندكم.

قلت: **هل** تتزوجون كثيراً من النساء؛ فالجاهلية القريبة في عهد الرسول محمد **صلى الله عليه وسلم** كانوا يتزوجون عشر نساء وهم رؤساء قبائل أو أفراد؛ حتى حرم ذلك دين الإسلام؟

قال العملاق: إننا نتزوج النساء بكثرة فالرجل الميسور الحال له أكثر من عشرين أمرآة يبني لهـا داراً متباعدة عن زوجاته الأخر؛ فتلد البنين والبنات.

قلت: فهل يتزوج الرجل وهو مسافر؟

قال: ذلك كثير ويأخذها معه إلي موطنه، فالأمر ميسور ليس هناك في الأغلب قيود على الـزواج ولا شروط ولا تكاليف كثيرة، إنما يخطب عصراً ويبيت عند زوجته ليلاً، ونحن نسمع حكاية إبراهيم عليه السلام، حين تزوج سارة وهو في طريقه إلي الشام، فقد رأته ووهبت نفسها له فتزوجها وذهب بها إلي جنوب سوريا والأردن وفلسطين وكان يحفر آباراً في دروبه البرية.

قلت: معنى ذلك أنكم لا تقفون طويلاً لاختيار الزوجة؛ وهل عندكم في الأحيان مدة للخطبة ولقـاء وتعارف قبل الزواج؟

قال: لم نعرف ذلك، وإنما الاختيار يكون من المشاهدة والتعارف الدائم بين الرجال والنساء في الجوار وفي المزارع وفي المراعى، فنحن نعرف بعضنا بعضاً.

وأردف يقول: نحن نتزوج من الأقارب كثيراً من الخالات والعمات وبنات الآباء من غـير أمهاتنـا، وبنات الأخوان والأخوات، وقد تزوج يعقوب بن إبراهيم عليهما السلام الأختين معا وهما أمهات أولاده.

قلت: لم تظهر لكم الشرائع التي تقيد الزواج.

قال: إن الأكثرية لم يلتزموا بذلك وإن ظهر كثير من الأفراد يجتنبون هذا التقارب زهداً وتعففاً.

وقال العملاق: أنت تقرأ في التاريخ أسباب قتل يحيي بن زكريا عليهما السلام.

قلت: قرأت ولكن لم أعرف الحكاية.

قال: إن الملك في زمن يحيي بن زكريا كان متزوجاً امرأة ومعها طفلة صغيرة مـن زوجهـا الأول، فأحب الملك هذه الطفلة ونما حبه لها حباً أبويا ولكن المرأة (الزوجة) أرادت أن يتزوج ابنتها، فكأنـه تـردد وتعفف، ثم سأل نبيهم يحيى.

وقال: يحيى إنني أراها لا تحل لك فأحست المرأة عدم إقدام الملك وأنه تأثر برأي يحيى، فـدبرت لـه مكيدة كبرى، فهي تعلم أن الملك لا يرد للفتاة طلباً، وأن الملك إذا **قال**: قولاً لا بدّ من تنفيذه ولا عودة عـن قراره، فأمرت ابنتها أن تدخل على الملك في مجلسه بحضور الملأ.

وقالت الفتاة: أريد منك طلباً لا ترده.

قال الملك: لك ذلك.

فقالت الفتاة: أريدك تقتل يحيى بن زكريا، فاهتز الملك واهتز الجمع من حوله فهم يدركون أن يحـيى نبياً وهم يستجيبون له، ولكن جبروت الملك والشيطان يأزه أزا، وقد غلب على كيان الملك حتى لا يقولـون أنه، قد تراجع عن قراره لطلب الفتاة وإن كان مجهولاً في بداية الأمر، فأمر الملك بقتل يحيى بن زكريا وجـرى دمه وأخذ يتدفق وواصل التدفق أياما وهرب زكريا فلحق به القوم فانفلق له جذع شجرة عظيمة.

فدخل فيه واختفي عن أنظار المطاردين له وأخذوا يتأملون الشجر وأعضادها وأغصانها وجذعها، فوجدوا معالم شعره على جذع الشجر فقطعوها من وسط الجذع.

قلت: إن هذه فتنة كبرى تعانق فيها كيد النساء وتلبيس إبليس، وغريزة الغضب وجبروت السلطان وطغيانه.

قال: إن الأمر أكبر من تصوري وإياك.

فقد: أرسل الله لهم في بيت المقدس بختضر وقتل منهم حتى سالت الدماء.

وقال: لا أتوقف عن القتل حتى يهدأ يحيى بن زكريا، فكاد أن يأتي القتل على كل يهودي حتى طلبوا الله الرفق، وتوجهوا ليحيى وطلبوا أن يهدأ جسمه ويقف نبع الدم منه، فاستجاب الله لهم.

قلت: إن جنس المرأة سياسية، وهادئة، ومائجة، وممطرة، ومدمرة.

قال: إنها أخت الرجال فهم كذلك.

قلت: صدقت.

وأردف يقول: لذلك نحن نعطف على النساء، فزواج الأقارب عندنا يكون بعضه حماية للقريبة وعطف عليها وضمها إلي الحماية والرعاية، فكم رجل تزوج مطلقة وأرملة، وكم تزوجوا امرأة دميمة وامرأة كبيرة، وامرأة مقطوعة من أسرتها فلا أب ولا أخوة بل حتى المعاقات إعاقة خفيفة كل هذه يُكلف بها الأقارب وعار عليهم تركها.

قلت: إنني أدركت معالمه عند أقوامي، فكان جار لي تزوج ابنة عمه وهي دميمة من قبيل الرعاية والعطف وأنجب منها شبابا لهم مكانتهم الاجتماعية، وسمعت أن رجلاً من بلي له أخت معاقة فحدث قومه الأقربين في منتداهم الليلي إن أخته تملك نصف إبله وغنمه.

وسألوه: أذن لو تزوجت تأخذ أملاكها من عندك؟

قال: نعم، والله لا أمنع عنها شاة واحدة من حقها الشرعي فتقدم له من الغد أحد رجال القبيلة وتزوجها وأخذ الأموال، فأنجبت له أولاداً، ثم طال عمرها وعجزت عن السير فإذا بأولادها يحملها على ظهره وقت ارتحالهم.

فقال: لأحد الرجال الذين عاتبوه على بذل هذا المال، أنظر إلي هذا المنظر ولو لم أدعمها بالمال كنت أحملها أو آثم في رعايتها.

قال العملاق: أماّ في زمنكم وحضاراتكم، قد كنتم جوراً على النساء وحرمتم كثيراً من النساء من الزواج.

وقلت: مصدقا لرأيه لقد كثرت العوانس وكثر الطلاق ويئست الأرامل من الزواج.

قال العملاق: أليس هذا ظلم للنساء أليس من حقها أن تحس بالأمن والأمان والحنان، وتأوي إلي بيت تملكه، وتلبى غرائزها.

وقال أيضا: هل عندكم من دراسات تكشف عن أضرار هذه على النساء؟

قلت: النداء الآن لإعطائها حرية الانتقال لوحدها، والحرية من قيود الأب والأخوان والزوج.

وقال: تدعون إلي جانب وتتركون جوانب أهم للمرأة.

قلت: هذه الكوارث إذا تجاوزت الحد الشرعي الرباني، فكم من امرأة بائسة شرقاً وغرباً بعد سن الأربعين وكم من امرأة في دول حرية المرأة اتخذت من عرضها المال وإشباع الغرائز، ثم تُقذف قذفاً وواصل قوله أسمع حكايات عن ابتزاز الرجل الغربي للمرأة.

فهو يشترط المتعة معها والابتعاد عن كل مكونات الأدلة وكذلك ألا تحمل المرأة منه، وكذلك عدم التزامه المادي، ألم تكن المرأة مستباحة خادمة ومستعبده تشاطر الرجل المسؤولية.

قلت: إن العالم يهوى بالمرأة.

قال العملاق: إنكم في وطنكم هذا وبعض الأوطان العربية ما زلتم ترعون المرأة وتحمونها، وتعلمونها، وتودونها، وتحفظونها، منذ ولادتها حتى وفاتها.

قلت: عسي المرأة ما تدمر المرأة أختها بحجج الاضطهاد الفردي.

قال العملاق: وهل المرأة في أوربا أدركت المأساة قلت بعضهن وقليل منهن، فقد أعلنت بعض النساء أن برنامج الانتخابي للبرلمان يقوم على الدعوة لتعدد الزوجات وأن المرأة لها حق في الزواج كما للآخرين حق؟

وقال: صبراً سيأتي يوم تثور المرأة وتكتسح العالم لحقوقها.

قلت للعملاق: مهلا إن حضارتنا المعاصرة وحضارة الغرب فيها خيرات كثيرة وقيم عالية ذات مصداقية وحتى المرأة لها جوانب خير من هذه الحضارة الراقية ولكن المصداقية من حوار قضية التكامل في جوانب الحياة البشرية.

قال: إن المكونات المعاصرة من البحث العلمي، والتقنية، والصناعة، والأنظمة، والقوانين، والالتزام بها وتنفيذها ورقابتها تطيل عصر الحضارة.

وقال: لعلكم تأخذون بها وتأخذون بالقيم الربانية معاً، وتتركون الالتزام بالعادات التي ليس لها مبررات شرعية.

العملاق

(٣٧)

تحادثنا على مشارف الساحل ودار حوارنا حوله كثيراً و لم نكمل الحوار لكنوز خبرات صاحبي العملاق، وقد عقدنا العزم على أن نصعد إلي أطراف حسمي الجنوبية ونقف على أطلال (روافا)، وقد التقيت به في وادي الرويان وعلى طريق (البغال) وعند مدينة حجرية مندثرة وكأنها مركز تجارى على الطريق بين الشام وجنوب الجزيرة.

فقلت له: كيف صعدت هذا الجبال الحاجزة بين البحر وحسمي؟

قال العملاق: كأنك لم تتعرف على طريق القوافل هذا وأشار إليه بيده، فهذا تصعد إليه القوافل من الساحل وتنزل منه القوافل الآتية من الشام.

قلت: ليس لي دراية.

فقال: كانت القوافل التجارية تمد المرافئ والموانى بعروض التجارة، وكذلك تنقل عروض التجارة من هذا الساحل كثير الخيرات إلي الشام شمالا وبلاد اليمن جنوبا.

قلت: وهل تلك القوافل أشبه بالترانزيت أي سيارة النقل التي تختم ولا تفك إلا في بلد مخصوص.

قال العملاق: بل إن أصحاب القوافل أشبه بالأسواق المتحركة فإنهم يتبادلون عروض التجارة مع القرى والبلدات والمدن التي يمرون بها.

قلت: كأنك خبير بهذه الديار وطرقاتها.

قال: إنني عبرت طريق البغال هذا مرات متعددة ذهابا إلي الشام وإيابا منه وكانت القوافل كثيرة وهناك أشبه بالمراكز التجارية والتي تستقبل القوافل وتحميها ألا ترى الحوائط، وأبوابها بين نعمى ووادي الرويان، فهذه كانت تحفها الأشجار وهي متباعدة عن بعضها بمقدار قدرة القوافل على المسير في المرحلة الواحدة وفي هذه المراكز حاميات من المستوطنين وتارة من الدول والطريق عامر بالقوافل ومركز تجارى مهم.

قلت: ما زال أبائي يعبرونه بقوافلهم حتى ظهرت السيارات.

قلت: كيف كانت قوافلكم؟

قال: إن جلهَا من الإبل ذات الأحمال، وقد رأيت بأم عيني عربات تجرها الخيول، والبغال، والبقر.

قلت: إنه أمر عجيب كيف كانت عجلات تلك العربات.

قال: إنها مكونة من حديد قوى مستدير سهل الانسياب، مصقول حتى لا تعرقله الحجارة، ولا يغوص في الرمال.

قلت: أظنه ينتهي عند مدينة روافه.

قال: الأكثر عندها ولكنه يتجاوزها حتى يصل إلي ديدان والحجر والخريبة في منطقة العلا.

قلت: إذن هذا الدرب البري المحاذي للسفن البحرية.

قال: نعم، وهناك دروب أخرى برية، ولها مراحل عبر السهل التبوكى ومن تبوك تفترق أيضا منها ما يمد تيماء ومنها ما يتجه إلي وادي القرى ذي القرى والبلدات والمزارع العامرة والواحات الكثيرة، ووادي القرى يمر بالعلا فهو من معالم الحضارة الثمودية ومعابر القوافل التجارية في رحلات الشتاء والصيف.

قلت: كيف تستدعى ذاكرتك تلك القوافل؟

قال: ما زال عالقا بالذاكرة فلو رأيت الإبل المثقلة بالأحمال وهي تسير جنباً إلي جنب وبعضها سابق وسابقه لأمثاله فهو يتجاوز أقرانه، وترى الناس سائرين على أقدامهم وبعضهم فوق جمله وأحماله والمطايا من الإبل وهي توازي ذات الأحمال تسير خلفها وأمامها وعلى جوانبها وواصل حديثه.

فقال: كنت أتذكر الحداء ذلك الصوت الشجي الذي يشعر الإبل، والخيل، والبغال بنسيان الأثقال، فتهتز وتزيد في سيرها ونحن نخشى على الضعائن في هوادجهن من فزع الإبل فتمرح وتجرى على غير هدى حتى يسقط ما عليها.

قلت: فأنت عايشت التحول في طرائق النقل.

قال: أستذكر القوافل الأولى ذات الإبل الضخمة، والأبقار القوية، والخيل الأصيلة في الغابات والخيرات، **ثم** رأيت قوافل أبائك في الجبال والصحراء، وقلة الماء وهي تسير مثقلة وتارة تثوى وتهوى من الضعف والهزال والظمأ وقلة الكلأ وفقدان الماء.

قلت: وهل رأيت قوافل الحج الإسلامية؟

قال: إنك أمام مناظر أكثر عجباً، فقوافل الإبل متبارية متقاطرة تملأ الوديان، وتمتد وراء بعضها فلا يرى أخرها أولها وطرائقها التي تخلفها متوازية، ثم في آخر زمني رأيت عربات متباعدة لكنها سريعة وتارة تقف طويلا يحفرون عنها ويدفعونها و لم يلبث ذلك طويلاً حتى تتابعت تلك العربات وأذهلني كثيراً ذلك القطار الممتد عبر الصحاري فكم يحمل من مؤن وكم يحمل من بشر.

قلت: ألم يذهلك تلك العربات المتتابعات في هذه الطرقات المعبدة؟

قال: **بلى**، وأني لأقف فوق الجبال وأرى تتابع أضواءها ليلا في انسياب سريعاً، وأرى المدبر والأضواء الحمراء.

قلت: ألم ترى الطرقات داخل المدن وتتابع الأضواء والأخريات المدبرات والأضواء حمراء.

قل لي: بالله لو ظهر أحد العماليق فجأة!

قال: إنه ليفتقد الوعي والسيطرة على أيديه وأرجله، بل حتى صوته ليتفجر.

قلت: لكم معجزاتكم ولنا معجزاتنا.

قلت: ونحن أذهلناكم بالأساطيل الجوية التي لم تعرفوها من قبل.

قال: بل أنتم قلدتم الطيور التي تحلق في السماء كأنها سحابة سوداء فأخذتم صفاتها وصنعتم طائراتكم على منوالها، أما نحن فقد رأينا الذي لم تروه.

قلت: وماذا رأيتم غريبا علينا؟

قال: رأينا ما هو أكبر من حاملات الطائرات رأينا موكب الطيران وهي تحمل سليمان بن داوود وجنده وسائر الحيوانات معهم من الخيل والأغذية.

قلت: والله إنه منظر مشهود وقوة مرهوبة، وقدرة الرب عجيبة وأقصد بذلك تلك الرياح التي تسير بأمر سليمان وتحمله وجنده إلي حيث شاء.

قال: إن كل من يشاهد هذا المنظر يظل محدقاً في الجو مستمعاً للأصوات مذهلاً حيراناً حتى تتجاوزه سحابة الرياح وما تحمله.

قلت: سبحانه الذي علم الإنسان ما لم يعلم وسيعلمه بعلوم جديدة تكشف عن تحولات الزمان والمكان.

قال: أنتم أكثر عجبا، فأنتم تسيرون تحت الأرض وفوق الأرض وفي الفضاء، سيارة تتابع، وقطارات تمتد، وشاحنات تنقل، وسفن كالمدائن تجوب البحار وأصوات تنتقل في السماء وتنقلها الهواتف الجوالة، فهي تغني عن الأسفار وطول الانتظار وتيسر الأمور في الليل والنهار.

العملاق

(٣٨)

سرت عبر طريق القوافل من الجنوب إلي الشمال وهو ما زال يسمي طريق البغال التي تحمل العربات، وصاحبي العملاق دلف مع هذا الطريق مستذكراً الماضي السحيق، وأنا متأمل متصور الأقوام والقوافل، وكان موعدنا في جبل اللوز عند الشعيب المدرج الذي ينزل العمالقة المسخرة منه الحجارة البيضاء الكبرى التي تنحت لتكون أعمدة، وقد رأيت معالمها في مسارح عمان ومباني جرش وبيت المقدس.

قلت لصاحبي: ألا ترى أن القدرة البشرية عاجزة عن قطع الصخور الكبيرة، ثم إنزالها من هذا الجبل الشامخ.

قال العملاق: نحن على قدرتنا وضخامة أجسامنا لا نقدر عليها وإنما هذه من عمل الجن لسليمان بن داود، وقد تداول المجتمع نقلها على العربات لصغار الحجارة ولكن الشائع أنهم يرون الحجارة محمولة و لم يروا الحاملين لها.

قلت: كثر القيل والقال في استخدام الجن من قبل البشر و لم يثبت إلا حكاية سليمان بن داوود، وكذلك قضية تمثل الجن للبشر، وإيجاد تعاون، وصداقة بين الجن والبشر.

قال: كثرت الحكايات في هذا الباب وتمدها خيالات البشر، وقد تبادر في ذهني قصة بلقيس مع سليمان وحكاية نسبها.

فقلت: لعلها من قدرات الله أو لعلها خيال أو أكذوبة، فالقصور والسلاطين تدور حولهم القصص النادرة.

قال: نحن لم نقطع بمصداقيتها، ولكنها حكاية كنا نستمع لها وتوارثها الأجيال.

قلت: نريد أن نعايش هذه الحكاية.

قال العملاق: إنهم يرون أن أمها جنية وإنها كانت زوجة أحدى ملوك التبابعة.

قل لي: كيف تم رؤيته لها وزواجه منها؟

قال العملاق: كان الملك شاباً فتياً وكان له مملكة كبيرة، وقد تولي الحكم في مراحل شبابه وأخذ يتعالى على قومه.

حتى قال: ليس لي كفؤ من نساء البشر، فلم يتزوج، وأخذ يطارد الصيد ويجول في أرض الله الواسعة، وبين الغابات، وكان متلبساً بعلم الجن، فيتراءى له أن بعض هذا البقر الوحشي والمها والغزال متلبس بالجن أو أنها الجن تحول على شكل البشر أو الحيوان، فكان يترك هذه التي يرى أنه جن، و لم تكاثر هذا العفو عن الجن

فإن ملك الجن قابله وشكره، وعقدوا صداقة بينهما، وذات يوم والملك سائر يجوب الغابات وإذا بمعركة دائرة بين حيتين إحداهما بيضاء والأخرى سوداء، وأخذ هو وأعوانه ينظرون هذا الصراع، فإذا بالحية السوداء يعلـــو شأنها وتكاد تفتك بالبيضاء فأمر أعوانه بمساعدة الحية البيضاء وقتلوا السوداء، ثم صبوا ماء على الحية البيضـــاء ففاقت من صرعتها ونهضت وكلٌ صار في طريقة وذات يوم والملك في خلوة، وإذا بشاب جميل أنيـــق يقـــف بجانبه.

فقال الملك: من أنت وكيف جئت؟

قال الشاب: أنا الحية التي ساعدتها بالأمس.

قال: كيف؟

قال: إنما الحية السوداء غلام شرير قتل أخوتي، وأولاد عمي، فأخذت أصارعه كما رأيت وكـــاد أن يلحقني بهم، لولا الله سخرك لي.

قال: كأنك موحد؟

قال: **نعم**، أنا أعبد الله وحده، ثم حضر ملك الجن ثالث لهما، وتحادثوا وشكر ملك الجن ملك الأنس على إنقاذ حياة هذا الشاب الجني المؤمن وطال الحديث بينهم.

فقال ملك الجن: أنا استطيع أن أبذل لك ما هو فوق قدرتك.

قال ملك الأنس: وماذا تستطيع؟

قال: أكثر لك أمولا.

قال الملك: لا حاجتي لي بالمال.

قال الجني: إذن أعلمك الطب.

قال الإنسي: ليس مما يصلح للملك مهنة الطب.

قال الملك الإنسي: أريد أن تزوجني أن كان لك بنات.

قال الجن: أزوجك أيها بشرط واحد.

قال: ما هو؟

قال: ألا تسألها عما تفعل.

ولماذا تفعل؟

وقال: متى سألتها أرقتك إلي الأبد.

قال الإنسي: لك ذلك، فتزوجها فإذا هي أجمل من نساء الإنس، وإذا هي أقدر خدمة، وتبعلا للرجل، وإذا هي أكمل رأياً وقادرة على معرفة الأمور وتدبيرها وما يصلح منها للملك، فعاش معها زمناً.

ثم أنجبت ولدا فلما تعلق به وانس بوجوده أخذته أمه وقذفت به في النار فاحترق في نظر الملك.

قلت: وكيف يستطيع الملك أن ينام بجانبها بعد ذلك؟

قال العملاق: إن الملوك جبابرة، وأنهم مروضون على المصائب والصبر والتأني وواصل العملاق سرد الحكاية.

وقال: إنها عون له على مراقبة مملكته ورجالة فهي تشير بالرأي الصائب، فتعلق بها حباً وجعلها شريكة له في الحكم فهي المستشار الأول، ثم أنجبت له فتاة جميلة، فسعد الملك بها ولكن هذه الزوجة قذفت بها إلي كلبه أمام الملك، فاختطفتها الكلبة وولت هاربة، فلم يقل الملك شيئاً، وإن تألم كثيراً، كتم غيظه وواصلت متابعته بتدبير الأمور.

فحفظت الأموال وتكاثرت في الخزينة وأنتصر القادة الذين يبعثهم فتوسعت مملكته ولكن ثار عليه بعض أقاليم مملكته فأعد فرقة محاربة وكانت طريقتهم على مفازة شاسعة فأعدوا الأقوات والماء فلما توسطوا المفازة، أرخت عقد مياه قرب الماء وخلطت الدقيق وسائر المؤن بالتراب، فلم يتمالك أمره ونفذ صبره.

فقال الملك لها: الابن وقتلتيه، والبنت تركتيها للكلاب، والآن تريدين إهلاك جندي وقومي.

قالت: أنت لم تستطع الصبر، ولو صبرت، لرأيت عجبا!

قال: فسري لي أعمالك.

قالت: أمّا ابنك فقد دفعته لجارية تربيه، وقد مات، وأمّا الابنة فهي حاضرت ووقفت الابنة أمام أبيها.

قال الملك: فكيف بالزاد والماء؟

قالت: لقد أغرى الأعداء وزيرك ودسوا السم في الماء والأزواد ليقتلوا قومك.

قال: وما دليلك على ذلك؟

قالت: بقي شيء من الزاد والماء، فأمر وزيرك يشرب منه ويأكل، فدعا الوزير وأمره أن يأكل ويشرب، فأبى وأجبره فمات الوزير واختفت الزوجة الجنية.

وبقيت ابنتها وهي بلقيس ملكة سبأ فصحبت بلقيس أباها وشاركته في معرفة إدارة الدولة ولكنه لم يلبث أن مات.

فأستحوذ على الحكم ابن عم لها ولكنه كان مستبداً فاسقاً وكان متسلطاً على مجتمعه فما يبلغه شيء من جمال الأشياء إلا أستخلصه لنفسه من الخيل والإبل، والمزارع وبلغ الأمر أن يفض بكارة كل فتاة جميلة بكر.

ثم هو أراد أن يفعل هذا مع ابنة عمه بلقيس، فوعدته وأغرته بتهيئة المكان والإعداد بليلة تليق بالملك، وقد أعدت كمينا يقتله، فدخل ورأى الزهور والجواري والروائح الفائحة، فدخل إلى القصور وترك حراسته، فلما أقبل عليها خرجت له عن بعد فهجم عليه الكمين وقتله.

وأخُذ رأسه على رماح ودفعته إلى الجند ليجوبوا المدينة به وفرح الناس واستبشروا خيراً وعقد القادة ورجال الدولة اجتماعاً.

وقالت لهم: اختاروا رجلاً صالحاً قوياً.

قالوا: لا بدّ منك أنت الملكة، فعقدوا لها المُلك وبنت الديار، ونشرت العدل، وصلح أمر الجند، وجمعت في قصرها الفتيات.

وقالت لهن: من أرادت الرجال والزواج فلها ذلك وتخرج من القصر، وكان لها قصر له نوافذ على عدد أيام السنة كل نافذ تستقبل الشمس في أحد الأيام.

قلت: إذا رأيت التطور العمراني، فمعني ذلك وراءه تطور فكري.

قال: **نعم**، تكون في الدول علم معرفي يقوم على شرائح المجتمع، فهناك أهل الصناعة اليدوية للأعمال المنزلية، من القدور النحاسية، والأواني الحديدية، والخشبية، ومن الذهب والفضة، وهناك أهل البناء والعمران، ولكل لون منها جماعة محترفة تتوارث الصناعة فهناك مشذبي الحجر، والمهرة من البنائين، وهناك المهندسون الذين يصممون المباني.

قلت: هل هناك مدارس يعلمونهم؟

قال: التعليم توارث وممارسة متدرجة منذ الطفولة المتأخرة حتى يحذقوا الصناعة، فالأب يصحب أولاده ويخدمونه حتى يتفقوا على أبيهم وهناك منافسون لهم.

قلت: هل هناك صناعة ثقيلة؟

قال: ليس هناك أصعب من صناعة الحديد، والذهب، والفضة.

قلت: وهل لهم مصانع خاصة؟

قال: نعم إننا استخرجنا كثيراً منها ولو ورث العرب تلك الصناعات لكانت حضارتهم منافسة للغرب، ولكن سبحان الله مغير الأحوال بعد أن كانوا أربابها أضحوا يعبونها، وصاروا يدفعون جل أموالهم للحصول عليها.

العملاق

(٣٩)

التقيت بالعملاق في روافه وبعض المؤرخين؛ **يقولون**: إنها عاصمة دولة سبأ التي ملكتها بلقيس.

وقلت للعملاق: أنتم تقدسون الملوك وكأنهم بشر غير البشر.

قال: إن الملوك الأوائل كانوا يملكون القوة الذاتية، فلهم تربيتهم الخاصة وتدريبهم الراقي العنيف، وهم يمارسون الفروسية بعد تدريب محكم مطول ويجلب لهم المعلمون من رجال الدين، ومن الحكماء ومن الفلكيين والأطباء ومن الفلاسفة حتى من السحرة والمشعوذين؛ فهم ينهلون من هذه الثقافة المتنوعة، فهم أقدر كل الذين من حولهم في كل المجالات.

وهم أيضا: لهم مجتمعهم الذي يفوق المجتمعات الأخرى، فهم يحرصون على النسل وهم يرفضون الزواج إلا من بنات الملوك أو الذوات وهذا فيه تلاقح في الأفكار ونقل التجارب، وغرس روح التنافس، وتداول التاريخ، ونقل الحكايات الحربية والغرائبية.

فلذا: يحرصون على مصاهرة الملوك وهم يستشيرون الحكماء وتجمع مجالسهم اليومية كبار طبقات العلماء ورجال الدين وأهل الحكمة والفلسفة وغيرهم، فأبناء الملوك يجدون أنفسهم أعلى من سائر البشر في سائر القدرات ومن هذا القبيل صاهر أبو بلقيس الجن كما يزعمون.

قلت: التاريخ يحكى المصاهرات الكثيرة بين ملوك الفرس وملوك الإغريق وملوك الرومان.

قال: أنت ذكرتني بحكاية دار بن دارا ملك الفرس وكونه أخ للأسكندر ذي القرنين، وقد تحاربا زمنا طويلا حتى أنتصر الأسكندر على دارا بن دارا وأمر الجند أن يحضروه حياً ولا يقتلوه ولكن أنصار دارا هم الذين قتلوه، فلحقه في رمقه الأخير.

وأعتذر إليه: الأسكندر، ومسح التراب عنه وحاول تضميد جراحه بيديه.

وقال: لدارا أوصني، فأوصاه أن يتزوج ابنته، فقبل ذلك الأسكندر وأن يعفو عن الفرس؛ فاستجاب له.

قلت: إن تمجيد السلالة للملوك والأمراء أمر شائع بين الفرس والعرب والرومان.

قال العملاق: ذلك لانبهار الناس بأعمال أبنائهم، وقدراتهم نتيجة التدريب والتعليم وتجمع الخبرات في أبناء الملوك.

ثم قال العملاق: ألم تسمع بحكاية ملك الصين مع الأسكندر.

قلت: لعلك تحادثني بها وتقصها عليّ.

قال: إن الأسكندر فتح البلاد شمالا وجنوبا ودانت له الملوك شرقا وغربا على حدود الهند، فلما شارف على حدود الصين.

وإذا بالحراس يقولون له: إن رسول ملك الصين بالباب.

قال: اسمحوا له، فلما مثل الرسول بين يدي الأسكندر.

قال: أريد أن تكون المحادثة سرية.

قال: إنهم أعواني وأنا وأثق بهم.

قال: لكنى أريد الخلوة بك، فأمر الأسكندر بتفتيشه والتأكد من ذلك، وجردوه من سلاحه وكل ما يحمل، فلما عاد بين يدي الأسكندر رفع اللثام ونزع اللحية المستعارة.

وقال: أنا ملك الصين.

فقال الأسكندر: ما الذي أقنعك وجعلك تأمن على حياتك.

قال ملك الصين: علمت أنك عاقل حكيم، ولم يكن بيني وبينك عداوة أو ثأر وأنت تعلم إنك أن قتلتني لم يكن قتلي سببا لتسليم الصين، ثم أنك تنسب إليّ الغدر.

قال الأسكندر: إنك عاقل حكيم.

قال الملك: ماذا تريد من الصين بلا حرب.

قال الأسكندر: أريدك أن تترك ملكك ثلاث سنوات وتدفع نصف الخراج لكل سنة.

قال الملك: إذن تجدني أول المحاربين، وأول فريسة لك، ثم دار الحوار حتى خفض ذلك إلي العُشر، وتواعدا في الصباح بأن يطوفا من بين الجيوش، فلما خرج الملك على فيله والأسكندر على جواده رأى الأسكندر الجيوش الكثيفة محيطة به من كل جانب ورأى الفيلة والجند الكثير.

فقال الأسكندر: أتخدعني.

قال الملك: لم أخدعك ولا أريد حربك ولكني أردت أن تعلم أني لم أطعك من ضعف، ولكني رأيت العالم العلوي مقبلا عليك وأردت طاعته بطاعتك، والقرب منه بالقرب منك.

فقال الأسكندر: لا يُذل مثلك بالجزية، فما رأيت بيني وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك.

فقال ملك الصين: لست تخسر، وبعث إلي الأسكندر بضعف ما طلبه.

قلت: ذلك العقل والتدبير جل من ملوكها باعد بينهم وبين الحروب وجنبهم ويلاتها، فظللهم الأمن بظلاله، ونصب الاستقرار والرخاء والعمران وكتبوا العلم والمؤلفات وبنو سور الصين.

وقال العملاق: إن الأسكندر، كوّن له مجلسا علميا كل ليلة من حكماء اليونان وحكماء الهند، والفرس والعرب وغيرهم وهم يتحاورن كل ليلة في مجالسهم معه ومن غيره، لكن الأسكندر، لم يلبث حتى أن مات، فتداولوا رثاءه بأقوال حكيمة.

فقال أحدهم: أصبح آسر الإسراء أسيراً.

وقال أخر: أعجب العجب أن القوي قد غلب والضعفاء لا هون مغترون.

فقال أخر: هذا الذي جعل أمله عينا.

وقال أخر: قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك، فمن كان له معقول فليعتقل ومن كان معتبرا فليعتبر.

وقال أخر: كما أماتت هذه النفس لكي لا تموت وقد ماتت.

وقال أخر: أضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب.

وقال أخر: لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته.

وقال أخر: قد رأيتم هذا الملك الماضي فليتعظ به الملك الباقي[٣].

وقالت زوجته ابنة دارا: ما كنت أحسب أن غالب دارا يغلب، فإن الكلام الذي سمعت منكم فيه شماتة؛ وقد خلف الكأس الذي شرب به ليشرب به الجماعة.

وقالت: أمه حين بلغنها موته لئن فقد من أبنى أمره لم يفقد من قلبي ذكره.

قلت: صدقت هذه الأم فهي عبرت عن كل أم في الدنيا من قبلها ومن بعدها.

قال: ذكرتني بقصة عزيز، فقد عرفته امرأة وعزيز الذي رأي قرية، قد طمرها التراب واندثرت حجارتها وتداعت أبنيتها، ورأى عظاماً امتلأت بالأتربة وانفلق بعضها وهش كثير منها.

وعزيز هذا: هو الذي أماته الله مائة عام، ثم أحياه.

قلت: كيف نظر إلي الحياة وكيف تعرف على الأرض؛ وكم قرية هلكت وهلك أقومها؛ وكيف الأحوال ومعيشة البشر؟

قال: حتى البشر لم يتعرفوا عليه ووجد الشباب، وقد هرموا وابيضت شعورهم وأكثرهم، قد مات، وحاول التعريف بنفسه ولكن الناس ابتعدوا عنه حتى آتى امرأة كانت جارية له تجاوز عمرها مائة وعشرين عاماً.

فقال لها: هذا منزل عزيز؟

قالت: **نعم**، وبكت.

وقالت: لم اسمع أحد يذكر عزيز غيرك.

---

(٣) الكامل ١:٢٣٥

فقال: أنا عزيز.

فقالت له: إن عزيز كان مجاب الدعوة، فأدع الله لي بالعافية، فدعا لها وعاد بصرها، وعادت لها قوتها وقواها، وأخذت تمشي، فنظرت إليه وعرفته.

وكان لعزيز ولد له من العمر مائة وثلاث عشر سنة، وله أولاد شيوخ، فذهبت إليهم الجارية وأخبرتهم بعودة أبيهم بعد غياب مائة عام، فلما رآه ابنه الأكبر عرفه بشامة كانت في ظهره.

قلت للعملاق: عن جيوش الأسكندر دانت لها المماليك والأمارات في الاتجاهات الأربع.

وقلت: لم أسمع تاريخ الأسكندر في الجزيرة.

قال العملاق: إن فرسان الأسكندر والفرق الحربية طافت بأرجاء الجزيرة جنوبها وشمالها وشرقها وغربها، وقد توافدت أعيان الجزيرة في العراق بعد أن انتصر على دارا بن دارا واصطحبهم معه إلي بلاد الفرس والهند حتى حدود الصين.

ويقال إنه: اقطع إحدى القبائل العربية التبت وأنهم استوطنوها حتى الآن.

ويروون أن معالم أهلها معالم عربية حتى أيامنا هذه.

قلت: والله أنك ذكرتني بذلك حين رأيتهم في التلفاز، فأنا استغربت أن أشكالهم وأجسامهم وعيونهم لا تماثل الصينيين.

العملاق

(٤٠)

قال العملاق: لقد كان للأسكندر أثر في حياة الأمم من بعده فهم، قد امتزجوا في جيشه من شتى الأعراف واللغات، وكان له عيون على كل فرقة ورزقه الله بالرهبة، وأيده بالخطط الحربية، فكانت حكاياته تناقلتها الأمم من الشمال إلي الجنوب ومن الشرق إلي الغرب، ولم يترك مدينة من المدن في العالم إلا زارها أو أرسل إليها، وقد تحدث فيها عجائب وحكايات.

قلت: فهل استقر في ذاكرتك منها شيء؟

قال: في بداية غزواته للمشرق قابل أعظم ملوك الأرض دارا بن دارا، فمكث طويلا يحاربه وفي إحدى المعارك لما تقابل الجيشان أمر من ينادي بين الجيش.

ويقول: يأل فارس نحن ما زلنا على عهودنا ووفائنا فمن لم يحاربنا؛ فإننا له أوفياء ولا ننقض العهود التي عاهدناكم عليها، فاضطرب الجيش.

قلت: الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولا وهي المحل الثاني.

قال العملاق: والأسكندر دائماً يستشير وكان من مستشاريه أستاذه الفيلسوف ارسطاطاليس، وكنت في مجلس أحد حكام الثموديين وكان هناك رجل يحفظ الحكاية كاملة ولا يمل من تكرارها حتى حفظها من يرتاد في مجلسه والحكاية تدور حول خشية الأسكندر من حاشيته ومن الفرس، فأرسل الأسكندر إلي ارسطاطاليس يذكر أن من خاصته من يخشي غدرهم ويخشي من سلاطين الفرس التمرد عليه والاجتماع ضده.

وقال: إن هؤلاء لهم همم بعيدة، ونفوس كبيرة، وشجاعة قوية وانه يخافهم على ملكه وعلى حياته، ويكره قتلهم بالظنة، **فكتب إليه ارسطاطاليس.**

" فهمت كتابك فإن ما ذكرت من بعد هممهم، فإن الوفاء من بُعد الهمة وكبر النفس، والغدر من دناءة النفس وخستها، أماّ شجاعتهم ونقص عقولهم فمن كانت هذه حالة فرفهه في معيشته واخصصه بحسان النساء، فإن رفاهية العيش تميت الشجاعة، وتحبب السلامة، وإياك والقتل فإنه زلة لا تستقال وذنب لا يغفر، وعاقب بدون القتل تكن قادراً على العفو فما أحسن العفو من القادر، وليحسن خلقك تخلص لك النيات بالمحبة، ولا تؤثر نفسك على أصحابك فليس مع الاستئثار محبة، ولا مع المؤاساة بغضة".

قلت: إن هذه الوصية تمثل بها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فقد أغدق المال على أبناء على بن لأبي طالب وأبناء الصحابة وقبلهم على أصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم، فكانت الحجاز في نعيم ورفاه،

وتجنب القتل والفتك لخصومه ولست أدري؛ هل تعلم هذه السياسة من التاريخ ومن عمرو بن شرية القاص المشهور في زمنه، ومن كعب الأحبار وابن وهب أماّ أنها وليد فكره فهو من أبناء الذوات في مكة المكرمة وجليس الرسول صلي الله عليه وسلم وكاتبه.

قال العملاق: إن حكايات الأسكندر كثيرة وهي ملاحم يستمع إليها الملوك وأبناء الملوك ومن الآراء التي أثرت على دولة الفرس التي تنتصر على اليونان، وأوربا رأي ارسطاطاليس الحكيم له حين خشي من أحد رجال الفرس فقد وصفه الأسكندر.

بقوله: "إنه ذوى رأي وصرامة وشجاعة وجمال وانساب رفيعة، وانه كان يملكهم بالحظ والأنفاق، وانه لا يأن إن سافر عنهم شره وتمرده وجمع كلمة الفرس"

فكتب إليه الفيلسوف:" فأماّ قتلهم فهو من الفساد والبغي الذي لا يؤمن عاقبته، ولو قتلتهم لتفادوا إلي مبارزتك وتعاضدوا ضدك وتوارثوا الأحقاد، وأماّ إخراجهم من عسكرك فمخاطرة لك ولمعسكرك والرأي في ذلك أن تستدعى أولاد الملوك وتجعل كل منهم ملكا على إقليم، فتتفرق كلمتهم، ويقع بأسهم بينهم، ويجتمعون على الطاعة والمحبة لك"

ففعل الأسكندر: وتفرقت الفرس إلي دول منذ ذلك الزمن وضعفوا عن محاربة اليونان.

قلت: وهذه سياسة توارثتها أوربا من بداية بريطانيا العظمي وفرنسا، ثم الولايات المتحدة الأمريكية، وما زلنا نعانى منها إلي يومنا هذا فالله المستعان على ما يكيدون.

قال العملاق: بل إن حكماء اليونان هم الذين أوجدوا الطبقية فهم يقسمون المجتمع إلي سلاطين وعسكريين وحكماء وصناع وزراع ولا يجوز الانتقال من طبقة إلي طبقة ويتضح ذلك من وصية الفيلسوف للأسكندر، حين طلب رأيه في ملوك الفرس وأولادهم الذين تحت قبضته.

فقال الفيلسوف: "أنك إن قتلت أبناء الملوك أفضي الملك إلي السّفل والأنذال والسفل إذا ملكوا قذروا وإذا قدروا طغوا وبغوا وظلموا ".

قلت: وهذا رأي يفرق بين تكوين العقول والواقع أنها متماثلة في تكوينها لكن تكوين الفكر والثقافة والتجارب هي المكون الأصلي، ونحن لو أحصينا فتك أبناء الملوك والأمراء لشابت منه الرؤوس والذقون، وكل منابت الشعر، ولا أنهلت الدموع، ولكن العدل في التربية وفي التعليم وفي المساواة يولد حكماء من كل الأجناس.

قلت: وقد سجل التاريخ أثر اصطحاب الملوك للعظماء والحكماء والأخذ بآرائهم عبر وعظات وحكايات غيرت مجرى الفكر ومجارى التاريخ.

وقال العملاق: لما ظهر موسي عليه السلام تتابع الأنبياء الذين تستشيرهم الأمم ويرشدون الملوك والأمراء فمن أخذ برأيهم انتصر وطال ملكه، وقد كان بختصر له قوته، فسلطه الله على اليهود وهزمهم في بيت المقدس، ثم اصطحب بعض بني إسرائيل فعلموا الناس التوحيد ومن الأنبياء من أشار على بختصر بقتال

العرب لكفرهم فتوجه بختصر إلي جزيرة العرب وبعث جيوشه إلي الحجاز، فقتلوا كثيرا وسبوا النساء، واتخذوا الأطفال والجواري أسرى وعبيدا لهم وكأنه تمهيد لسيادة ذرية معد بن عدنان بن إسماعيل، فتكاثرت ذرية معد وكانوا الأكثر في جزيرة العرب.

قلت: هل عاد كثير من العرب الذين صحبوا الأسكندر؟

قال العملاق: لقد كان انتقال العرب مع الأسكندر والتحاقهم بجيوشه كان له أثره على العرب فهم كونوا دولاً وإمارات في العراق واستوطن بعضهم الهند، وانتشروا في جزيرة العرب فمنها أوصاف المجتمع وقصصه وكان الناس يستمعون إلي حكايات وغرائب تلك البلاد، والمعارك الحربية وخططها.

وقال العملاق: ومن الحكايات الحربية التي استمعنا لها:" أن أحد ملوك الهند استعصي على الأسكندر، فتقدمت جيوشه وتقدم جيوش ملك الهند وفي مقدمتها الفيلة، ففزعت خيول الأسكندر وفرت، فعاد الأسكندر وأمر ببناء هياكل للفيلة من النحاس والحديد، وملأ أجوافها بمادة سريعة الاشتعال وتقدمت الفيلة المصنعة تجرها العجلات، فلما التحم الجيشان أوقدوا النار داخلها وفر رجال الأسكندر، وتقدمت فيلة الهندي وضربت بخراطيمها هياكل الفيلة وهم يظنوها فيلة فانفجرت الفيلة واحترق مقدمة الجيش، فانهزم الهندي".

وواصل العملاق قوله: وهم يروون أن ملكاً هندياً آخر سلم دولته وأذعن للأسكندر ولكن الأسكندر اتهمه بالضعف.

فقال له أعوانه: ربما آثر السلامة لدولته، فأرسل إليه الأسكندر إناء مملوء ماءً مجمداً.

وقال له: أملأ هذا الإناء، ففكر الهندي وأسرته فغرز أبراً كثيرة في الماء المجمد حتى ظهر شكلها، وردها إلي الأسكندر، فأدرك حكمة الحاكم الهندي وتجاوز له عن كثير من المال.

العملاق

(٤١)

افترقنا على أن نتحاور في الحيرة مملكة المناذرة، فلما التقينا.

وقلت له: هل هنا دول عربية؟

قال: لقد هاجرت قبائل عربية من الجزيرة لبلاد العراق، واستوطنوا جنوبه وواصلوا إلي الموصل والعرب يروون لنا أن أعظم الممالك العربية في الحيرة، وفي دومة الجندل وفي تدمر.

قلت: لعل هذه الدويلات تتحد وتتلاحم ضد الفرس والرومان.

قال العملاق: بل كانوا كما كنتم فهذه موالية للشرق وهذه موالية للغرب.

قلت: السلامة مطلب، والمدارة خير من النكبات.

قال العملاق: ليتهم اكتفوا بذلك فقد أشعلوا العداء بين الملوك العرب وتوارثوه وأضحوا كالديكة تهرش بعضها، فقد دارت الحروب الكبرى بين تلك الدويلات الصغرى.

قلت: لكنهم بنوا تلك المدن وعمروها وما زالت آثار تدمر باقية.

قال: إنهم يملكون القدرة والمال وتدريب أعمال الصناعة والبناء مثلهم مثل مملكة الأنباط، ولكنهم دمروا أنفسهم بأنفسهم فسلطهم الله على بعضهم لطغيانهم وعدم تعقلهم واستبدادهم.

فقلت: وهل من حكايات تسربت إليكم عن دهائهم وفروسيتهم وسائر أعمالهم؟

قال: اشتهر الملك جذيمة الأبرش، بأنه أقدر ملوك العرب، وأبعدهم همة وطموحاً، وأفتكهم بالأعداء وأول من أجتمع حوله العرب وكان يسمى الوضاح والأبرش لبرص في وجهه.

قلت لعله: جمع شتات عرب الجزيرة العربية.

قال: بل غزاهم وحارب طسم وجديس، ثم جمع حوله كثيراً من أبناء القبائل الأذكياء والمحدثين البارعين من حفظة التاريخ، ومنهم عديّ بن نصر بن ربيعة وكان جميلاً وسيما، فرأته الرقاش أخت جذيمة، فأحبت عدياً فرفض ولكنها.

قالت له: اسقه شراباً صرفاً قوياً، واسق جلساءه شراباً مخلوطاً فهو يفقد الوعي، وهم يعقلون، ثم أخطب منه، فنفذ خطتها وأشهد القوم على ذلك وتزوجها في ليلتها، فلما أصبح جذيمة سأل عنه فحضر، وقد ظهرت عليه معالم الزينة.

فقال: إني في ليلة عرس.

قال: على من؟

قال: على الرقاش.

قال: كيف؟

قال: إنك زوجتني بها البارحة، وأدرك عدي غضب جذيمة وولي هارباً، وأستدعي جذيمة أخته الرقاش ولأمها.

فقالت: أنت زوجتنيه ولا أرفض لك طلباً؛ فأعرض عنها، وقد حملت، فلما ولدته أخـبرت أخاهـا وخشيت على ابنها فأخفت الغلام الذي سمته عمراً حتى ترعرع وكان جميلاً ذكياً، فلما بلغ، دفعته إلي خاله، فأعجب به جذيمة وقربه، وأوصي بتدريبه على الفروسية وتعليمه، وقد فاق أولاد جذيمة في القوة والذكاء وحباً وأثارا لجذيمة، فأولاد جذيمة يجنون الثمار ويأكلونها وهو يختار الأجمل ويوصله إلي جذيمة فأحبه وقربه.

ولم يلبث أن أختفي عمراً عن الوجود ويزعمون أن الجن اختطفه وكان لجذيمة قرينان محدثان يجالسانه ولم يكررا حديثاً عليه لسنوات عديدة وبينما هما ذات يومٍ في رحلة صيد، وإذا فتيا عريان، قد تلبـد شـعره وطالت أظافره، وساءت حالته فجلس ناحية عنهما، ومد يده يطلب طعاماً، فناولته الجارية، فأكلها ثم مدّ يده ثانية.

فقالت:" لا تعط العبد كراعاً، فيطمع في الذراع".

ثم سقتهما شرابا وأوكت قربة الشراب (الزق) **فقال:**

صددتِ الكأس عنا أم عمرو وكأن الكأس مجراه اليمينـا

فسألاه عن نفسه؟

فقال: إني عمرو بن عدي بن تنوخية اللخمي، فنهضا وغسلا رأسه وأصلحا شأنه، وألبسـاه ثيابـا واهدياه لخاله الملك جذيمة الأبرش فسر به وابتهج بعودته.

قلت للعملاق: هل بخت نصر وإبراهيم عليه السلام وجذيمة من العماليق المعمرين؟

قال: الواقع أن العماليق لهم كيانهم وتزاوجهم مع الآخرين، أما أكثر الناس في ذلك الزمن، فإنا نراهم أقصر منا ونراكم أقزام وهم يرونكم أقصر منهم.

وقال: والعماليق كانت مملكتهم في يثرب وكذلك على مشارف الشام في اذرعـات، حـوران، وفي تدمر ومنهم الزباء ملكه تدمر وكان أبوها عمرو بن الظرب وهو من العماليق فقد حارب جذيمة وقتله جـيش جذيمة الأبرش فتولت ابنته الزباء الملك على حوران، وعاصمتها تدمر.

وأردف يقول: إنها اختارت رجالها من العماليق فهم الذين بنو تدمر هذا البناء الخالد، وكذلك جعلت جندها من العماليق.

قلت: أنتم أيها العماليق وراء كل عمران حجري.

قال: نحن بنينا المدن والمعالم والقصور والأنفاق تحت الأرض وعلمناها لكم.

قلت: وهل تخلت الزباء عن ثأر أبيها؟

قال: إنها امرأة ذات تدبير، فأصلحت شأن دولتها وبنت الأسوار، والأنفاق والقصور في تدمر وكونت جيشا قويا.

قلت: وعندما بنت مدينتها وجيشها ألم يصبها داء العظمة وتفكر بالغزو؟

قال: أرادت ذلك ولكن أختها وكانت حكيمة مدبرة شاركتها في تدبير المُلك أشارت على الزباء بترك الحرب وأعمال الحيلة.

فقلت: هذا يرونه كيدا، ونراه تدبيرا، بل نراه اليوم تعقلا وبعد عن الجاهلية، فالاستشارة والمدارة مع الإدارة هي التي تصنع الدول، أمّا الحرب فهي مدمرة للطرفين معا.

قلت: وهل عملت على المكيدة والحيلة؟

قال العملاق: إن ملوك العرب والأمراء يتداولون سيرتها وسيرة جذيمة؟

قلت: إن العرب أقوياء على بعضهم.

قال: إن الزباء أرسلت إلي جذيمة الأبرش قاتل أبيها ترى إنها بعد تجاربها في الحكم ضعف النساء وعدم قدرتهن وان سلطانهن ضعيفا، وأشارت عليه بالاتحاد بين الدولتين ليقفا في وجه الأعداء كمثل إتحاد الفرس، ومثل إتحاد الرومان واليونان.

وقالت: إنها تتنازل عن الحكم وأنها ستسلمه مفاتيح تدمر وشرطت عليه الزواج منها، فاستجاب لها وأيده مستشاروه وأقاربه ما عدا (قصير بن جارية لجذيمة).

فقال قصير: **"لا يطاع لقصير أمر"**

قلت: النساء مغريات ذات مكائد عجيبة.

قال العملاق: فلما أقترب جذيمة من تدمر استقبلته الوفود بالهدايا وبمعالم الاحتفاء.

فقال لقصير: ماذا تري؟

قال: خطر يسير، وخطب كبير.

وقال قصير: إن أحاطت بك الخيول، فاركب الفرس العصا وإن ساروا أمامك، فلا خوف عليك، وقد أحاطت الخيول بجذيمة ولم يستطع ركوب العصا، فركب قصير العصا وولى هاربا ودخل جذيمة على الزباء فرآها غير متجملة.

فقال:" **بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى**".

ثم أجلسته على نطع من ذهب وقطعته أربا أربا.

قلت: وهل انتهت الحرب بين الدولتين العربيتين أم طال الأمد وأضعفتها وشغلتها عن البناء والتوسع؟

قال العملاق: هكذا العرب العاربة والعرب المستعربة يقاتل بعضهم بعضا، وقد اشتعلت المكائد بينهما وتواصلت فهذا قصير الهارب، قد التحق بملك الحيرة وطلب الثأر لجذيمة الأبرش لكن الملك الجديد عمرو بن عديّ.

قال: كيف لي بها؟ **"وهي امنع من عُقاب الجو"**؛ فسارت مثلا.

فقال: قصير للملك أجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها.

فقال الملك: لست بفاعل فجدع قصير انفه ودق ظهره وركب فرسه هاربا وولى هاربا إلي الزباء.

وقالت: ما الذي أرى بك يا قصير؟

فقال: زعم الملك أني غدرت بخاله ففعل ما ترين؛ فأكرمته وكان مخلصا لها بالرأي السديد والحزم، وعنده تجارب وحكمة، فلما وثقت به.

قال: إن لي أموالاً كثيرة بالعراق فساعدته على المسير للعراق واقنع الملك عمرو بن عدي بإرسال جيش على ظهور الإبل بدلا من الأموال والهدايا فحمل كل رجلين على بعير، فلما رأت الزباء القافلة رأبها وشكت في الأحمال.

فقالت:

ما للجمال مشيئا وئيدا أجبندلا يحملن أم حديد

أم الرجال جُثما قعود

فلما دخلت الإبل الحصن خرج الجيش من محاملهم وأشهروا السيوف، فلما رأتهم الزباء شربت السم فماتت، وضعفت دولة العرب في حوارن وتدمر حتى انقضت، وأضحى بدلا منهم دولة الغساسنة.

العملاق

(٤٢)

التقيت بصاحبي العملاق بعد أيام معدودات.

قلت: لعلك استرحت أو استفدت؟

قال: بل تألمت.

فقلت: أين قضيت تلك الأيام؟

قال: قي أرض بابل.

قلت: أرئيت تلك الصراعات مولدات الحروب؟

قال: الأمر أكبر مما تسمع في الأخبار.

قلت: فما سمعت وماذا رأيت فأنت قادر على أن تحصد الأخبار؟

قال: لو سمعت الاجتماعات، ومكائد التخطيط، وتنفيذ الانفجارات؟

قلت: هذه من شرائح معدودة.

قال: ليت الأمر كذلك بل هي من علية القوم، وقادة العلماء والفكر، فهم الذين يديرون المعارك ويقذفون بأبناء العراق ليقتلوا ويفتكوا ويدمروا والمدمرون يهلكون وفي سبيل رضا المنعمين يدمرون.

قلت: هذه البلاد العريقة مركز دولة الأشوريين، ودولة الفرس، ودول العرب، ألم تتعلم الحكمة، والعقلانية.

قال: بل الحروب في القلوب وفي الأحياء وفي المدن وكل يدعى البراءة وهم الفاتكون.

قلت: ذكرتني (ببخت نصر) الفاتك القاتل الذي دمر فلسطين وبيت المقدس وقتل كثيرا من أهل الشام، فلما عاد إلي بلاده بكثير من الأسرى، خرج له أنبياء، وقد سخره الله لهم يطيعهم في كثير من الأمر فأراد أن يعود إلي الشام، لكن أحد المستشارين أشار عليه بحرب العرب لكفرهم فيسلم اليهود من التدمير للمرة الثانية، فبعث إليهم الجيوش، واحتلوا نجد وهجر فبعث الله أحد الأنبياء وأمره أن يُخرج معد بن عدنان ويذهب به إلي الشام حتى لا يقتله لأن الله أوحى إلي ذلك النبي خروج نبي من أحفاد معد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم، فلما انتهت الحرب عاد معد بن عدنان وتزوج فتاه من جرهم.

قلت: أنت اقتربت من أحوالنا وجاهليتنا الأولى.

قال: إن الله بارك في أبناء معد بن عدنان، ونقص عمرهم حتى بلغ أربعمائة عام وتناقصت أجسامهم، وتكاثروا فتفرقوا في أرض الجزيرة، وقل عدد العماليق.

قلت: حتى بلاد الشرق تعرف تاريخها؟

قال: إن بخت نصر هذا دمر الشام ودمر العرب وانتصر على كثير من ممالك الشرق فأخباره يتناقلها الناس وتدور في مجالسهم ومنتدياتهم ويتوارثها الأجيال فأخباره تدور على السواحل مع السفن والقوارب وكانت تحمل المآسي وقتل النبي يحيي بن زكريا وقتل زكريا أيضا.

قلت: كيف كانت نهاية القاتل الفاتك قاتل الأمم والشعوب، هل تعرف عنها شيئا؟

قال: إنها حكاية مشهورة، ففي ليلة من الليالي رأي رؤيا ففرح بها لكن في آخره فزع فنسي الجميع، فأمر بإحضار دانيال وحنانيا، وعزاريا وهم صالحون وأنبياء، يدعون الناس إلي توحيد الله.

وقال لهم: أنا حلمت حلما ونسيته وإذا لم تخبروني به قتلتكم، فدعوا الله وأوحى الله إليهم.

فقالوا: رأيت تمثالا؛ فتذكر.

وقال: صدقتم.

وقالوا: قدماه، وساقاه من فخار، وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة، وصدره من ذهب، وعنقه من حديد، فبينما أنت تنظر إليه أعجبك، فأرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته.

قال: صدقتم؛ فما تأويلها.

قالوا: أرئيت ملك الملوك وبعضهم أقوى من بعض فأنت الحديد أقواهم وأشدهم، ثم يأتي نبي يصير الأمر إليه، فقرب أولئك الصالحين لكن أعوانه حسدوهم ودسوا لهم المرة تلو الأخرى فجمع أولئك الصالحين وأراد قتلهم وجمع معهم أعوانه على مائدة من الطعام.

وقال لحراسه: لا يخرج أحد من هذا المكان.

ولو قال لكم: بخت نصر فهو يدلس عليكم، فطال المجلس، وقد خرج بخت نصر للحاجة، فمنعوه وأراد الخروج.

فقال: أنا بخت نصر.

قالوا: أمرنا بخت نصر بقتل كل واحد ولو؛ قال مثل قولك فقتلوه فكانت نهايته بيد أعوانه وبأمره.

قلت: إن موته جاء بعد أن أهلك العباد والبلاد ولله في ذلك حكم وعبر.

قال: أهلك الله به أقواما خرجت عن التوحيد وعبادة الله وبارك الله بالأقوام الوارثة لهم فعاد الملك لبني إسرائيل في الشام وتكاثر العرب في الحجاز وتهامة، ثم تفرقت قبائلهم في الجزيرة وكان بنو حنيفة في اليمامة، وقد وجد أبوهم القرى خالية، والمباني ما زالت قائمة، فامتلك اليمامة، وحاول أقربائه أن يجاوروه فاقسم أن لا يسكنها إلا من يخرج من هذا وقبض على قضيبه فسرعان ما تكونت بنو حنيفة قبيلة كبيرة.

قلت: كيف عادت بلاد الشام إلي عمرانها؟

قال: كان فيها خيرات كثيرة لكن هلك ثلثهم وثلثهم الأخرى سباهم بخت نصر إلي العراق، وكثير من المدن والقرى، قد خربت وتدمر بناؤها وأضحت خاوية على عروشها وفي تلك الفترة ظهر عزاريا ورأى القرية الخاوية المتدمرة.

فقال: أنى يحيى الله هذه فأماته الله مائة سنة، ثم بعثه فلم يتعرف عليه إلا عجوزا هي التي بقيت من قومه الأقدمين، وقد أخبر الله تعالي به في قوله: **{ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٥٩]**.

قلت: إن الله كريم لأقوامك الأوائل فإن الله يمنحهم معجزات كما منح نوح، وإبراهيم وموسي وعيسي والأنبياء والرسل الذين يحيون الموتى، بإذن الله ومنهم من يموت فيحيي مثل عزيز، وكمثل داود الذي تتكلم معه الجبال وتسبح الطير تهبط عليه وتسبح معه.

قال: إن المعجزات والكرامات كثيرة جدا ولكن البشر لم يعتبروا.

قلت: فهل هذه المعجزات وحكاية الكرامات يتداولها الناس وتؤثر فيهم؟

قال: الكثير من الشعوب إذا سمعها اعتبر بها ولكن هؤلاء لا سلطان لهم.

قلت: ألم يكن لهم تأثير على المجتمع من حولهم؟

قال: **بلى**، هم مصدر الحكمة والتجارب وتوحيد الله ولكنها بلا سلطان ولا قوة ويجتمع الشعب حول السلاطين للرهبة وللقوة ولأمر آخر وهو المال والرغبة في الشهوات الغرائزية، وذات الجاه.

قلت: إن الجاه مولدّ الطمع الخفي، فالصراع على الجاه هو الذي يولد الصراع بين الأخوان والأقارب، ثم الأمراء والسلاطين فإذا ما امتلكوا الجاه كثر الطغيان والظلم وهو الذي يولدّ الحسد والأحقاد والقتل، ثم يتولد الانتقام وطلب الثأر.

قلت: وهل طلب الثأر مناط بالفرد ذاته؟

قال: طلب الثأر يعود على السلاطين إن وجدوا، ثم يعود إلي الاحتكام في القبائل فإن انعدم يعود إلي الفرد فإذا تجاوز الأمر فإنه يعود إلي القبيلة فيتناصرون ويتحاربون.

قلت: ما أفتك البشر للبشر؟

قال: وكل حيوان فأنت تري الجمال البزل لا ترحم بعضا وتري كل جنس أكثر سطوه على جنسه.

العملاق

(٤٣)

حدثت نفسي قبل أن التقي بالعملاق للتحول الكبير من العماليق وهيمنتهم على الجزيرة وتكاثر أبناء إبراهيم في الجزيرة، وقد مهد الله لأبناء إبراهيم بالقتل على يد بخت نصر فتكاثر أبناء إبراهيم في جزيرة العرب فزاحمت تلك الخواطر، فإذا بالعملاق يقبل وسلم باسماً مشرق الوجه.

فقلت له: لم اسمع منك حديثا حول التحول الكبير في الجزيرة حيث قل عدد العماليق، وكثر عدد أبناء إبراهيم عليه السلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فهل أنت تحمل عنصرية وتجدّ على عقب إبراهيم؟

قال العملاق: نحن أمام إرادة الله لهذا التحول البشري فالله بارك هذه الذرية لنبي من الأنبياء والرسل، لعل الخير يغلب على البشر ويكثر الموحدون، وقد تكاثر الأنبياء فصحب كل سلطان نبي يرشد السلطان ويرشد قومه.

قلت: فهل كنتم تتناقلون أخبار إبراهيم عليه السلام أو أخبار النمروذ؟

قال: أخبارهما مقترنة، والحكايات التي صحبت إبراهيم منذ ولادته كانت شائعة.

قلت: كيف؟

قال: أولا شيوع قصة النمروذ حين قتل أولاده وبعض حاشيته حين أخبره الكهنة أنه يهلك بولد في حاشيته، فقتل أبنه، ولكن حمى الله إبراهيم منه ومن أبيه: تارح وزير الأصنام بل إن أم إبراهيم حملت به في بيت الأصنام حين زارت زوجها تارح فيه وهي تحمل له الغذاء وكان تارح يخبر النمروذ بتطور هذا المولود إبراهيم وكان إبراهيم يتحدث بلسان فصيح منذ العام الأول له، وقد استصحبه والده تارح إلي النمروذ.

وقال: له أقتله فإني أخشي أنه الذي يكون هلاكك على يديه، وقد دعا إبراهيم النمروذ للتوحيد، فاستغرب وأيقن أن إبراهيم هو المقصود ولكن عمره أربع سنوات فخشي النمروذ على سمعته فأمهله بنية القتل.

قلت: وهل سمعت حكايات أخرى عن إبراهيم؟

قال: حكاية قتل الأوثان فإنه قطع رؤوسهم، فاهتز الناس وخشوا أن يصابوا بانتقامهم لكنهم لم يسمعوا بحادثة واحدة فكانت اكبر حادثة خففت من اعتقاد الناس بالأوثان وتهاون الناس في تعظيماتهم وزياراتهم ومن الحكايات الكبرى، قذف إبراهيم عليه السلام في سرادق النار ونجاته منها فجعلها الله برداً وسلاماً على إبراهيم.

قلت: إن إبراهيم معه الله فبارك الله فيه حيا وميتا.

وقلت: أليس له حكايات أخرى مع العماليق؟

قال العملاق: أول الحكايات حين هاجر بهاجر إلى مكة المكرمة، وأستخرج الله الماء وسمي البئر(زمزم) فكان أن استوطنت عنده قبيلة جرهم من العماليق، وقد هاجرت من اليمن وتزوج إسماعيل أبنة سلطانهم (مضاض) وكان العماليق يفاخرون بمصاهرته، ولما طال الأمد تحول حكم مكة المكرمة إلي أبناء معد بن عدنان بن إسماعيل وتكاثر أبناء معد بن عدنان وتحولوا إلي قبائل متناحرة في تهامة فتحولوا إلي نجد واتجهوا إلي يثرب، ثم أعالي الحجاز.

قلت: لعلنا نمكث مع إبراهيم وحكاياته.

قال: من الحكايات التي تدل على عقول متأملة ولكن أهدافها تدل على عقول ضيقة مثل حكاية النمروذ مع النسور.

قلت: كيف؟

قال النمروذ: لما كان إبراهيم يكرر أن ربه في الأعلى، فقد قرر النمروذ أن يصعد إلي السماء.

فقلت: هل سبق فرعون وبني صرحا.

قال: بني صرحا ولكنه لم يشف صدره، فقد انقضى البناء وتهاوت أحجار الصرح والنمروذ فوقه فخرست الألسن بعض الوقت، ثم خرجت بلهجات متعددة في قومه فكل واحد له طريقه ينطق بها الحروف ويقولون إنها الأساس في تكوين اللهجات.

قلت: فماذا عن النسور؟

قال: أخذ يغذيها باللحوم والعسل حتى قويت، وثم أخذ يمنع الأكل عنهن فجوعهن، ثم ربط اللحم في حدائد أربع وجعل النسور تحت اللحم وربط التابوت بالنسور وقعد فيه مع وزيره فطارت النسور لتتناول اللحم وارتفعت حتى رأي الجبال كأنها النمل، ثم واصلت الارتفاع حتى رأي الأرض كأنها جزيرة صغيرة في محيط، ثم ارتفعت، فنظر فلم يري فوقه إلا الظل و لم يري تحته إلا الظلام، فلما تعبت النسور انقضت فسقطت في البحر، وقد حماه الله من الموت ليكون عبرة وعظة لكنه تغير شكله وأبيض شعره وخارت قواه، و لم يتعرف عليه حراسه إلا بكل مشقة.

وقلت: وما شأن إبراهيم عليه السلام؟

قال العملاق: لما يئس إبراهيم من إيمان النمروذ وقومه دعا الله عليهم فاخرج عليهم البعوض فقتل جمعا كثيرا وجندا كثيرا.

قلت: ألم يكن معهم النمروذ؟

قال: أمهله الله حتى يتعذب ويرى هلاك قومه، ويزداد خزيا، ثم بعث إليه بعوضة كبيرة دخلت في أنفه فأزداد ألماً وتعذيبا حتى هلك، فخرج إبراهيم واتجه إلي الشام واستوطن مراعى الأردن، وهناك أنجب، وقد استقبل الأضياف وأكرمهم، وقد أكرم الله إبراهيم فجعله يتنقل في البلاد فكون له أسرة في مكة، ثم بني

المسجد الحرام ومعه أبنه إسماعيل، ثم ابتلاه الله، بالرؤيا بقتل ابنه إسماعيل وأذعن كل من إبراهيم والابن إسماعيل لأمر الله، فلما صدقت الرؤيا واستسلم معه وفداه الله بذبحٍ عظيم وسمع كل قلب نداءه للبيت.

قلت: ما شاء الله-، ما زالت ذاكرتك تختزن تلك الأخبار التي تتوالى في جزيرتنا.

قال: إن تداول الأخبار من أهداف الرجال وغاياقم وهذا الشأن ورواية الأخبار هي علم أهل الجزيرة وتدعمها، والرحلات الشتوية والصيفية تنقل الأخبار وكل رجل من الرجال إذا صادف آخر فإنهما يجلسان ويحكي كل منهما ما يحمله عن حكايات إبراهيم عليه السلام.

قلت: أيها العملاق المؤرخ إنك عملاق المؤرخين.

قلت: هل هجر إبراهيم هاجر كما يذكر المؤرخون أن سارة تشترط عليه عدم النزول؟

قال: هذه أخبار لم نسمعها من قبل بل نحن نتعجب من فرس إبراهيم الذي يطير ويسير بسرعة مذهلة حتى يأتي مكة في يومه وينتقل بين زوجاته، وهو قد تزوج إحدى بنات العملاقة في بلاد الساحل التي سميت مدين باسم ابن إبراهيم.

قلت: إذن انتم شركاء في أبناء إبراهيم فانتم أصهارهم وأخوالهم ومناصريهم.

قال: نعم فأجسامنا متقاربة معهم وكنا مجتمع متحضر، وكانت نساؤنا جميلات، عفيفات، منجبات، ومربيات.

قلت: إن حكايات إبراهيم كثيرة.

قال: حتى وفاته فيها حكاية ذات عبر.

قلت: لعلنا نختم حديثنا في محادثتنا هذه بنهاية إبراهيم.

قال العملاق: لما دنت وفاته، بعث الله له شيخا طاعنا في السن، فوجده إبراهيم في الجبال التي يذهب إليها للصيد فوجد أن هذا الرجل لا يستطيع السير، فرجع إبراهيم لنزله وأتي بحمار وأركب الرجل عليه، ثم قدم الطعام له فأخذ الشيخ اللقمة فتارة يضعها في عينه وتارة في أذنه ولم يهتد إلي فهمه إلا بعد جهدً جهيد، ثم إذا بها تخرج مباشرة من أسفله.

فقال: إبراهيم أأنت مريض؟

قال: بل مرضي تقدم السن.

قال: إبراهيم وكم عمرك؟

قال: مائتي سنة.

قال: إبراهيم أو يفعل تقدم السن هكذا؟

قال: نعم فدعا إبراهيم ربه أن يميته، فقبض هذا الشيخ روح إبراهيم، فالشيخ هو ملك الموت.

قلت: إن إبراهيم نزلت عليه صحفا، فهل سرى إليكم منها شيء؟

قال العملاق: إننا نتداول أمثالا ينسبونها إلي صحف إبراهيم، **مثـــــل قوله:**

"أيها الملك المظلوم المبتلى بالغرور، إني لم أبعثك تجمع الدنيا بعضها إلي بعض، ولكن لترد عنى دعوة المظلوم فإني لا أردها ولو كانت من كافر "

قلت: لعلك تحفظ أخريات؟

قال العملاق:

"على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجى بها ربه، وساعة يفكـــر فيها في صنع الله، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب".

ومنها:

" وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبلا على شأنه، حافظا للسانه ".

وإبراهيم هو أول من أختتن، وسن هذه السنة الحسنة التي هي من معالم النظافة وتحمى من الأمــراض وأول من دعا الأضياف، وأول من اتخذ السراويل.

قلت: إن المتأمل لهذه الأقاويل، يتخذها منهجا لحياته.

العملاق

(٤٤)

قلت: أيها العملاق لعلنا نتجه إلي الطبيعة كالماء والشجر والغابات والجنات والخيرات.

قال العملاق: أنت سميت سيرتك تحولا، فلو قارنت التحول في زمني بالتحول في زمنك.

قلت: لو كان لقائي معك قبل كتابتها لأعرضت ورأيتها قزمة مثلي بالمقارنة معك في عمرك وجسمك وعقلك وتاريخك.

قال: إن الأمر تناسب ولا أنكر الحضارة العملاقة في عهدك.

قلت: الواقع من حكاياتك إني استنبطت التحول من تدفق المياه وكثافة الشجر وتكاثر الخيرات، إلي حفر الآبار والتصحر، والجدب، وقلة الأمطار.

قال: **نعم**، إن أول بئر حفر هو بئر زمزم، وتوالى حفر الآبار لكنها كانت كبيرة ومطوية وكثيرة المياه إلا في الجفاف فإنها تحتاج إلي مائح وأنت سمعت ببئر يوسف عليه السلام، وبئر هداج في تيماء، وآبار مدين التي وردها موسي عليه السلام.

قلت: إن زمن شعيب في مدين زمن خيرات وفيه تجفيف الفواكه.

قال العملاق: إنها حضارة ففيها البناء بالنحت وبجانبها البناء في وسط الغابات الكثيفة والمزارع الكثيرة الممتدة على الساحل، وكانوا يجنون الثمار ويبيعونها على أهل الرعي، والمدائن الأخرى وكانت التجارة عامرة على الساحل بل تكاثرت المدن الساحلية، كمدين، وحقل، والعقبة، وإيلات، والمويلح، وضبا.

قلت: كيف حالتها الاجتماعية؟

قال: يحدثوننا إنها أشبه ما تكون بسبأ، فالأنواع المثمرة كثيرة، والمزارع متوافرة، ويملكون من الإبل أعدادا كثيرة، ويصنفونها بألوانها، والأبقار تجوب المراعي، والأغنام كثيرة، والمباني متقاربة، والرفاه والنعيم، حتى تفاخروا على الأقوام الأخرى، فزاد تكبرهم وطغيانهم، وظلمهم للآخرين ومكرهم، وبخس الموازين، فهم يتحكمون بتجارة مصر وتجارة الجزيرة، والهند وتجار الشام واليونان ورزقهم الله بالبركة وكثرة الأمطار.

قلت: حتى زمن قريب ومدائن البحر أفضل حالا من أحوال أهل الرعي والمراعي، فقد كانت العقبة مزدهرة، ومقنا مشهورة بزراعتها، وعيونه، وضبا، وكذلك الوجه ومزارع أملج مشهورة بثمارها وجمال أرضها، ولكنها تأثرت بالتحول للرعي.

قال العملاق: إن مدائن مدينة وساحلها وسهولها كانت مروجا خضراء، ولكن حين دعاهم شعيب إلي الهدي أبوا واعرضوا وكرهوا شعيبا وحاولوا اغتياله.

قلت: ألم يؤمن معه بعض أقوامه؟

قال: **بلى**، كانوا يسموهم الموحدين وكانوا يحتقروهم فحدث صراع، وأخرجوا أنصار شعيب من ديارهم، وانحاز أنصار شعيب إلي الجبال وأحضان الجبال.

فقلت: لمن الغلبة؟

قال: أعداد متقاربة، ولكن القوة مع العاصين المتمردين.

قلت: هل عمّ الهلاك؟

قال: لم يصب الموحدين أي أذى فهم، قد لجئوا إلي الجبال الضخمة في غربهم وإلي الشعاب وهي في تلك الأيام جداول وعيون وغابات فأنت لا ترى هذه الجبيلات المغبرة من الأشجار السامقة حولها وهذه الشعاب التي لا مراعي فيها كانت رياضا جميلة.

قلت: إن أحد زملائي من الجنوب الدكتور/ صالح الزهراني.

قال: إن جبالكم لا شجر فيها بينما جبال الجنوب مازالت الأشجار الكبيرة تغطيها.

قال العملاق: لو شهدت أنت وصاحبك هذه الجبال وسرتا على امتدادها لرأيتموها سوداء من شدة الخضرة، لكنها تغيرت أحوالها بعد يوم الظلام الذين يظنونه سحابا وهو عذاب تهطل منه النار كهطل المطر، وجدبت الأرض، وتساقط الشجر وبدأت بالتحول كما تراها اليوم في هذا السهل الممتد لما يقارب ألف كيلا فلا شجر ولا بشر.

قلت: إنها مرحلة تحول؟

قال: **نعم**، منذ عهد إبراهيم عليه السلام، تباعدت المسافات الزمنية للسفر، وتباعدت القرى، وغاضت المياه، وأشتد الطلب للمطاعم والمشارب، مع تقاصر الأعمار وتناقص الخطوات، والقدرات الجسمية، إنها قرون التحول من التنعيم إلي المعاناة والمكابدة.

قلت: لعل في ذلك خيرا للأجر والمثوبة ومعاناة الحرمان وفرحة اللذة، والصبر على الفراق، والابتهاج باللقاء، والحاجة إلي الأغذية والصبر عنها، ثم لذة وجودها ولذة الشبع.

قلت أيها العملاق الفيلسوف: أنت طوفت بنا في الأسباب والمسببات كأنك سقراط الحكيم.

قال: إن من يقرأ سير الأقدمين ويشاهدها ويعلم حقيقتها ليتفجر علما وتجارباً وحكمة.

قلت مهلا: هلا حدثتنا عن شعيب الذي كنت تسير في مواطنه كثيرا وسمعت من خلال حكاياته من خلال الأجيال في هذه المناطق؟

قال: إنهم يروون أنه من أسرة عريقة لها كيانها، وقد كان أعمى البصر لكنه كان ذو الرأي السديد والقول الجميل، والحكمة تتدفق من لسانه منذ كان طفلا، وهو كان رحيما بالناس يخالط الفقراء والغرباء ويعينهم على المطففين للموازين، والجاحدين لأموال الغرباء، فالناس يخشون سطوة أسرته وله هيبة، فلما علا شأنه ورباه الله على الخير، أخذ يدعو أهل مدين ويجوب أسواقهم ويحادثهم بالدعوة إلي الله، واجتناب الظلم

ويدعوهم إلي العدل بالميزان، والوزن في الحبوب والفواكه بل حتى المساواة بين الطبقات وبين الفقراء، ونصحهم ألا يسخروا من الآخرين.

قلت: إن مدينة مدين وما جاورها تجمع بين الرعي وما يعتريه من الجهل والجهالة وبين المتحضرين وما ينجمون وما يمكرون.

قال العملاق: تلك الخصال اتضحت من خلال انشطار المجتمع إلي مؤيدين وراغبين في القيم الخيرية، وآخرين رافضين متعالين حتى أهم طلبوا من شعيب الاعتزال عنهم.

قلت: هذه القيم التي يحملها شعيب تذكرني بسيرة إبراهيم عليهما السلام؛ فهل كان شعيب من نسل إبراهيم؟

قال: بل هو من نسل العماليق وهم من قوم عاد وثمود من أولئك الذين هاجروا إلي أعالي الحجاز واستوطنوها.

قلت: إن اليهود ينسبونه إلي إبراهيم ويخصونه من أولاد سارة.

قال: ابتلي العرب بتحريف التاريخ، فنحن توارثنا أنه من نسل العرب الأقدمين و لم نسمع انه من نسل إبراهيم إلا متأخرا.

قلت: هل هذه الروايات عنصرية؟

قال العملاق: لم نكن نعطي النسب أهمية بل نتمنى القرب من إبراهيم لشرفه لا للعنصر و لم أعرف العنصرية إلي حين آتي المستشرقون يجبون الجزيرة، وقد رأيت منهم عجبا، يتركون الآثار القديمة ويبحثون عن آثار اليهود، وكل عمل عمراني فإنه من عمل الرومان، وأنتم أيها المؤرخون ، أتبعتموها و لم تمحصوا.

قلت: والله إني أحب القلوب اللينة الرحيمة، التي تألف الناس ويألفونها وشعيب من تلك الفئة ولكن حاربه قومه وأخرجوه.

قال العملاق: ما لبثوا حتى حل عليهم العذاب المقيم.

قلت: يتجلي لي معرفتك بتاريخ أعالي الحجاز؟

قال العملاق: إنها موطني أسير فيها وأنتقل من مكان إلي مكان.

قلت: حار العلماء هل أصحاب الأيكة هم أصحاب مدين؟

قال: لست قاطعا في الأمر لكن سهول تبوك يكثر فيها الشجر الكبير الظليل، وأنت رأيت الشجرة الكبرى عند القلعة.

قلت: **نعم**، إننا نراها قبل عشرين كيلا.

قال: أنهم يقولون إن شعيب أتجه إلي واحات تبوك وحسمي بعد عذاب قومه ودعاهم إلي التوحيد ولكنهم كانوا في عتو ونفور.

قلت: هذه الحجرات المنحوتة منذ عهد شعيب؟

قال: **نعم**، إنهم كانوا يستوطنوها ولما تأتيهم الخمسينات تلك الرياح الهائجة فإنهم يخشون أن تكـون رياح مثل رياح عاد وثمود، ألم تر هذه الحجرات متجه إلي الشرق في حاجز كبير عن اتجاه الرياح الآتية مـن البحر فسلسلة الجبال بين وادي مدين ومدائنه وبين البحر.

قلت: إذن كيف توارثتم حكاية العذاب؟

قال: كانت موجات الحر تنبعث إليهم المرة تلو الأخرى، ثم تزداد شدتها، فلما أراد الله هلاكهم بعث إليهم موجة حرارة شديدة هجروا منازلهم وبيوتهم واتجهوا إلي ظلال الشجر لعل تهب عليهم الرياح، فأدركوا أنها أهون من البيوت، فخرجوا إلي الشجر، وجاءتهم سحابة تبث نوعا من الهواء الحار، ثم ظلتـهم بظلالهـا فاستبشروا خيرا و لم يعيدوا الأمر إلي الله بل تمادوا بالسخرية من شعيب، فخرج عنهم شعيب والذين أمنوا معه إلي جبل اللوز والشعاب من حوله، ثم أخذت الظلة السوداء تقدح شررا شررا، ثم أخذت تقـذف بـالنيران فتحرق البشر والشجر، ثم ازدادت فأحرقت القوم قاطبة، وكان آثر النار داخل التلال، فأضحت كالرماد بعد أن كانت حمراء قابلة للزراعة.

العملاق

(٤٥)

كان الموعد أن نلتقي في أحضان جبل اللوز لنطل من خلاله على البحر والبر فوجدته جالسا على رأس جبل ينتظرني فرحب بي.

وقلت له: لعلك تموج بالذكريات عن الحياة بعد هلاك الظالمين من قوم شعيب وأهل الأيكة.

قال: كنت استمعت بالأحاديث من حول شعيب، فقد هاجر من الديار بعد هلاك قومه وأتجه إلي مكة المكرمة أسوة بالأنبياء، فأنهم دني اجلهم وهلك قومهم اتجهوا إلي مكة للاقتراب من آدم عليه السلام ولأن البيت الحرام في قلوب الناس.

قلت: وكيف كانت أحوال الناس بعد انقضاء عهد شعيب؟

قال: أكثرهم أهتم بالرعي، لأن الأرض لم تكن صالحة للزراعة، ولأن المياه أخذت تتناقص، وقد بدأت الهجرة للشام من أجل الحياة الأكثر خيرا، وتناقص الناس في أعالي الحجاز، وأعتمد الناس على الرعي وحفروا الآبار وهجروا المباني خشية من العذاب وقلة المياه، وتوالت سنين الجدب، وغارت المياه فكأن الناس يعيشون حياة جديدة فالأجيال التالية لم يحتاجوا إلي مكونات الحياة الزراعية والحضرية الأولي، فليسوا بحاجة إلي مباني الحجارة والنحت، لعدم استقرارهم طويلا، فأخذوا يبنون الحوائط، ويبنون المباني من الطين على السواحل والواحات ويبنون الغرف حول حوائط مزارعهم الصغيرة.

قلت: أن أمر هذا التحول الرهيب: هل كنتم تشعرون به؟

قال: **نعم**، وأتذكر أنني رأيت الزحف القبلي من اليمن بعد الدمار المائي لسدّ مأرب.

قلت: هل السدّ محصور المكان؟

قال: إن حوله بشر كثير، فهو مدينة زراعية حضرية.

قلت: وكل هذه القبائل الزاحفة إلي وسط الجزيرة وشرقها وشمالها من المستفيدين من السدّ.

قال: الأمر أكبر فإن الأمطار تتابعت، وتدفقت السيول من أعالي جبال اليمن، وأخذت تجرف القرى والمزارع، وتواصلت سنين؛ فهاجر الكثير منهم وبقي بعضهم، ثم جاءتهم سنين جدب فهاجروا إلي الشمال والشرق.

قلت: يعني أنت شهد نضوب الأنهار والجداول؟

قال: بل شهد نضوب البحيرات، وفي البداية كنا نحفر فنجد عين ماء تنبع من الجبال، وكنا نحفر في الأودية، فنجد الماء قريبا وكنا نعرف المواقع التي ماؤها قريب، فيحفرها الفرد ويشرب منها ويسقي مواشيه.

قلت: كيف تعرفون مواقع المياه؟

قال: ماء الثمايل السطحية فهي في أحضان الجبال التي تستقر فيها الغدران فإذا جف الغدير، فنحفر الثمايل فنمكث وقتا طويلا.

قلت: كيف تعرفونها في الجبال؟

قال: نحن نجد معالم في الجبال مرصوصة بالحجارة كأنها شريط حجري، فنجد الماء بين تلك الأشرطة.

وقال: ذلك لأن خبرتنا أورثناها لكم، فنحن نعرف اتجاه سطح الجبل فنضع عليه العلامة، والماء يكون من عيون متدفقة.

قلت: وكيف تعرفون أماكن الآبار؟

قال: ننظر في الأرض هل يستقر الماء فيها أو تكون على منحدر مائي من الجبال وأهم من ذلك كثرت الأشجار في المكان مثل شجر الرمث فهناك مضان المياه.

قلت: جاءت اليوم آلة ترصد الماء وكثافته، واكتشاف مجارى المياه التي تحت الأرض وكأنها أنهار.

قال العملاق: سبحان الله مقسم الأرزاق منحكم إياها وأنتم في حاجتها وحجبها عنا حين لا حاجة لنا بها.

قلت: فهل تناقص التهام الطعام؟

فقال: أحمد الله إنك لم تر التحول: فالمطر غير المطر، والشجر غير الشجر، والبشر غير البشر، حتى الطير غير الطير، حتى الحجر غير الحجر.

قلت: أماّ الحجر فهذا أمر مشكوك فيه.

قال: لو رأيت الحجر في الزمن الأول فهو مصقول أعلاه صلد أماّ اليوم فقد اعترته الغبرة وتآكل أعلاه بسبب عوامل التعرية من الشمس والهواء والماء، والاستخدام الحيواني.

قلت: إن التصحر بعد شعيب في أرض محصورة.

قال: بل أن غضب الله يؤدي إلي منعهم من المطر ويهلك الحرث والنسل استدلالاً بقوله تعالي: **{وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [البقرة: ٢٠٣ - ٢٠٨]**.

وقد أرسل الله إلياس إلي قوم من بني إبراهيم، فلم يتبعوه وأعرضوا عنه فامسك عنهم المطر، وجف الماء، وييس الشجر، فهلكت الماشية والطيور، والهوام والوحوش وكثير من بني الإنسان، فهلك الكثير من البشر، فلما رأي إلياس ذلك، دعا إلياس ربه.

وقال: ربي أجعله على يدي حتى يشكو في أصنامهم فاستجاب له ربه.

فقال لهم: أنتم تخرجون أصنامكم إلي مكان اجتماع الناس فتدعونها فإن نزل الغيث فابقوا على عبادتها وإن لم يستجيب لها الله أدعو الله فإن نزل الغيث تعبدون الله وتتركون أصنامكم، فعاهدوه على ذلك فدعوا أصنامهم فلم ينزل الغيث ودعا إلياس الله فأُنزل الغيث، ولكنهم لم يوحدوا الله، وسلط الله عليهم ملكا آخر فقتلهم ودمر ديارهم.

قلت: معنى هذا إن الجفاف والقحط والتصحر هو ناجم عن أعمال البشر الظاهرة والباطنة.

قال العملاق: كل نكران للتوحيد وعصيان الأنبياء يعقبه جفاف وضعف ونقصان في الغرب والشرق.

قلت: إن هذه عوامل التحول من النعيم والرفاه، إلي المعاناة والمكابد وشظف العيش فهذا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام يرعي الغنم لخاله أربع عشرة سنة، فقد أحب يعقوب أبنة خاله (راحيل) فشرط أن يرعي عنده سبع سنين، فلما أتمهن أعد يعقوب خيمة الزواج، فأدخلوا عليه (ليا) الأخت الكبرى لراحيل ليلاً، فلما عرفها غضب وقابل خاله.

وقال: غررتني وخدعتني.

فقال خاله: أنت تعرف أنه من العار تزويج الصغرى قبل الكبرى فلا تفضح خالك.

وقال يا يعقوب: إذا كنت تريد (راحيل) أرعى معي سبع سنين وأزوجك راحيل فرعي معه وتزوجها وهي أم يوسف عليه السلام، وبنامين، وأمّا(ليا) فولدت معه سائر الأبناء.

قلت: وهل عندكم علم من الأماكن التي استوطنها يعقوب عليه السلام وأقربائه؟

قال: يذكرون أنه في بداية حياته في العراق ويذكرون عنه أنه كان في (بدا) المدينة جنوب تبوك وهذه الأماكن كلها يرتادها صاحب الرعي في سنين عديدة فهو ينتقل وراء الكلأ والماء.

قلت: أنت رأيت الإبل والأغنام والبقر عند الأوائل فهي تملأ الأودية، وتنتشر في الجبال، فكيف بالحالة زمن يعقوب.

قال العملاق: إن تكاثر الإبل أقل من الأوائل لكنها ما زالت تتكاثر فهم يغتنون مئات الإبل وآلاف الأغنام، وأعداداً من البقر، فهذا يعقوب تجوب مواشيه من تيماء حتى مشارف الشام، وأولاد يعقوب عاشوا أمراء فهم مرفهين وهم يمارسون الصيد لكن تناقص الخير حين توالى عليهم الجدب فالله يهيئ الأسباب والمسببات لأمور يعلمها، فأهل الرعي في أعالي الحجاز احتاجوا إلي كسب العيش في الشام ومصر، وكذلك فإنها بداية لرحالة يعرفون عندكم بالعقيلات؛ فالقوافل تتجه إلي فلسطين ومصر ويعمل الناس في الزرع ويعودون بقوافلهم ذات الأحمال الثقيلة، فلما حل الجفاف العام على الجزيرة والشام ومصر وتوالى سنين

عديدة، وقد سخر الله يوسف عليه السلام ليقوم بتخزين الحبوب لهذه السنين وأقبل أخوة يوسف مـــع ســـائر أبناء الجزيرة إلي مصر ليمتاروا، وتمّ حفر الآبار في صحراء فلسطين وصحراء سيناء.

قلت: فهل صحبت تلك القوافل؟

قال العملاق: **نعم**، صحبتها أكثر من رحلة، وما أجمل تلك الرحلات، فالناس جماعات جماعـــات، وأكثرهم الأقوياء الأشداء والصحبة تولد المحبة وتحيى روح التعاون.

قلت: لكنها معاناة وجوع وظمأ وتعب.

قال: كل ذلك؛؛

قلت: فهل مجموع القوافل في زمنكم أكثر مما قبل مائة عام.

قال: كانت قوافلنا تحمل المؤن وعروض التجارة وهي أكثر لكنها أقل كثيرا من قوافل الحج الإسلامي فقوافل الحج الإسلامي تحيط بها الجيوش والفرسان وعددها مئات من الإبل وآلاف من البشر، فهي أمر عجيب ومذهل وهي تحمل المحامل التي تحمل أكسية الكعبة.

العملاق

(٤٦)

تقابلت مع العملاق عند الجبل الثلاثي حول قرية بجدة في شرق جبل اللوز، وكنا في الهضاب التي تشبه العماليق المتلاصقين.

فقلت له: نحن نسمي هذا المكان حسمي.

قال: إني أعرف منك بهذه الديار، فهي كانت بحيرات وكنا نجتنبها كثيرا خشية أن تخسف الأرض بنا وتميد من الماء.

قلت: ولماذا لم تخشون الأراضي الأخرى؟

قال: إن ماء الطوفان مكث فيها كثيرا لأن الحاجز الجبلي حال بين الماء والانحسار إلي البحر، ويروون إنهم يظنوها من بحر القلزم، فلما أنحسر الماء ورأينا الجبال، قلنا لعلها كانت بشرا فماتوا فتصلدت أجسامهم والأمر ظني وخيال فكري.

قلت: ولكننا عرفناها بفياضها الواسعة وهضابها الجميلة، وظلالها الوارفة وتربتها الحمراء الأنيقة.

قال: نحن عرفناها طريقا للقوافل، ومراتع للإبل، وواحة زراعية.

قلت: هل كانت الأرض هي الأرض الآن؟

قال: أنت ذكرتني فإن حسمي هذه كانت متواصلة مع سهول تبوك، وما تسمونها الطبيق وهي أرض متواصلة مع بسيطاء وكلها كانت مكان لدول قائمة بداية للثمودين واللحيانيين ومنها دومة الجندل والمدائن الأخرى التي انقرضت وطمرتها الرمال أكثر وأقدم من المدن الباقية، وأنا الآن أرى رمالا وجبال مغبرة وصحراء لا تنبت شجرا، ولا تجد فيها حجرا وكانت من قبل أرضا مغمورا وأنهارا جارية، وواحات كثيرة، وغابات كثيفة، وقرى عامرة إنها عوالم متغيرة، فكانت الزباء ودولتها تستحوذ على جل هذه الأماكن، ثم استولى أوائل ملوك الحيرة على تلك المناطق.

قلت: وهل الأشوريين: احتلوا المنطقة؟

قال العملاق: إن الأشوريين قبل العرب الجنوبية وكانت دولهم تمتد إلي تيماء.

قلت: إن التاريخ ذكر لنا قيام دولة أشورية في تيماء.

قال العملاق: هذا كان أمر مشهود وكان الناس كلهم عماليق، وكانت الديار هذه من العراق إلي تيماء وتبوك تسبح بالبشر والشجر والحياة، وما أظن المياه الجوفية إلا من المياه التي كانت تعلو الأرض من الأمطار الغزيرة، والسيول الجارفة والبحيرات الممتدة.

قلت: إني أسير في هذه الديار فأرى معالم كأنها أودية، وأرى آثار مباني، وقد رأيت في قمة جبل شرورى آثار عمل البشر ويذكر المتأخرون حولها آبار وأشجار.

قال العملاق: إن أعالي الحجاز هذه وأعالي نجد المحاذية لها كانت موطن دول ومجال غزوات من الشام، وكانت أشبه ما تكون بالشام.

قلت: أخشي أن التصحر يمتد إلي بلاد الشام فتكون مثل هذه الديار.

قال: أنا أدركت تصحر حوران، وجوانب من فلسطين، الدائرة تدور أو تعود إلي العهد القديم، فالله أعلم بالتحولات الجوية والزمنية والمكانية.

قلت: إنهم يذكرون إن إبراهيم عليه السلام تعددت منازله في هذه الديار.

قال العملاق: الله لو أنك أدركت مواشي أيوب عليه السلام.

قلت: نحن نتحدث عن مهنة الرعي وتشكلها في زمن إبراهيم عليه السلام، فهل عهد أيوب قريب من عهد إبراهيم.

قال العملاق: هو ليس بالبعيد وإن كان إبراهيم جده الخامس لأن أم أيوب من حفيدة لوط، وأيوب تزوج أبنه إبراهيم بن يوسف.

قلت: وهل أيوب من الأثرياء أم من الأنبياء والصالحين؟

قال العملاق: كنا نتحدث عن أموال أيوب الكثيرة التي ترعى ما بين الشام وتيماء، وكان يجمع بين الرعي والزراعة، فله خمسمائة فدان، يقوم على زراعتها أعداد كبيرة من الموالى، وله إبل كثيرة وأبقار كثيرة، وأغنام مكونة من الضأن والماعز.

قلت: فالرجل رجل مال.

قال العملاق: ذلك مركز الغرابة في زمنه وما بعده، فتجارب الناس أن المال يؤدي إلي التعالي والطغيان لكنهم كانوا يتوافدون على نزله، فيجدون الكرم والخلق، والدعوة الصالحة، فآمن به أكثر الذين شاهدوه وسمعوا منه، وكان عابدا لله يقوم ليله ونهاره، وكانت الملائكة، وكثير من الجن يستمعون له، يتابعونه في عبادته.

قلت: هل سمعتم بألوان الابتلاء له ومعاناته مع الأمراض.

قال العملاق: إن الابتلاء أنتصر على هلاك الأموال في بداية الأمر ونفوق المواشي ليس بالمستغرب فإن الأمراض تفتك بالقطان من المواشي، وتفتك بالإبل فكثير ما يسرى المرض في الأغنام من الشام حتى الحجر فتجد أشلاء الحيوانات وتحدث المجاعات وتارة تموت الإبل بالمئات ويكون صاحب القطعان من الإبل فقيرا مقدما.

قلت: ولكنه يتألم ويتشكى.

قال: **نعم**، بل بعضهم يفقد صوابه ويترك الأرض وما فيها وبعضهم يهيم على وجهه في الصحراء.

قلت: وهل صبر أيوب؟

قال: ذلك الموقف النبيل من الابتلاء، فهو الصابر العابد ودعا الله أن يعافي قواه العقلية والنفسية ويحفظ له دينه.

قلت: ثم هل من ابتلاء أخر؟

قال: مات كل أولاده وأحفاده، ومواليهم فقد ابتلاهم الله بمرض لم يمهل إلا زوجته، ولم يتغير في عبادته، وصبره، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان، ويشكر الله على النعيم السابق ويدعو الله أن يزيده صبرا وأجرا، وتسلط عليه مرض الجسم فكانت امرأته تصبر وتعطف عليه وتقوم بإطعامه وعلاجه.

قلت: فلماذا غضب على زوجته؟

قال: إن الشيطان يوهمها بأفكار فيها مخالفات شرعية لعلاج أيوب فكان يغضب منها وأقسم يمينا أن يضربها مئة سوط.

قلت: هل تناقلت الأخبار أسباب الابتلاء؟

قال: يروون أنه كان عابدا لله، وقد ابتلاه الله بالمال فهو لم يشغله عن العبادة، وقد تكاثر من حوله الملائكة والجن، فحسده الشيطان، وكثير ما يحاول ثني أيوب عن العبادة وأعمال الخير واستقبال الأضياف، والدعوة إلي الله فلم يستجيب له أيوب فدعا الشيطان الله أن يسلطه على أيوب.

قلت: كيف يدعو الشيطان الله وهل الشيطان مستجاب الدعوة؟

قال: كانت الشياطين ترتفع في السماء وتسمع الأوامر الربانية للملائكة.

ويقال: إن الله يستجيب للشياطين مرة واحدة كل سنة فدعا الشيطان الله أن يترك ما بينه وبين أيوب فاستجاب الله له عدا قواه العقلية والقلبية.

قلت: لكن كتب التاريخ تورد أسبابا كثيرة.

قال العملاق: إن تناقل الأخبار يزيدها والروايات تتكاثر، حتى تبلغ الأساطير، وقد عايشت تلك الروايات وتراكمها.

قلت: إن مزارع أيوب تحتاج إلي مياه كثيرة؛ فهل هي على نهر من الأنهار؟

قال: إني أدركت معالمها في الصحراء لما دون حوران وتارة تقترب من دومة الجندل وكان معظمها في بسيطاء الصحراء الممتدة فقد كانت بحيرات وعيون تجرى.

قلت: ألم تر مزارع سليمان الراجحي، الممتدة في بسيطاء الآن وفيها أجمل المزارع وأكثر ثمرة لكل ألوان الفواكه، وتعددت أنواع التمور، والغابات من أشجار الزيتون وكثرة الأغنام ، وقد رأيت الأغنام ورعايتها الحديثة والعناية بها وبصحتها وتناسلها وبداية ولادتها حتى وفاتها، وتسجيل كل واحدة في الحاسب ومعرفة تاريخ كل شاه، وكذلك الإبل وألبانها والنعام.

قال: إن سليمان الراجحي يقتدي بأيوب فالله منحهما خيرات كـثيرات، ومـنحهم الله طاعـة الله وأعمال الخير، وإجراء الصدقات.

وقال العملاق: لقد عادت الحياة لهذه الأرض الجرداء بعد قرون كثيرة.

قلت: إن الراجحي له مزارع كثيرة في القصيم، وفي السودان ولم يبطر ولم يتكبر، فقد التقيـت بـه وجالسته، وأحاديثه، وأعماله سارية في الجزيرة فهو متواضع، كثير الصدقات، بارك الله له في أمواله، وقد بني أعداداً كبيرة من المساجد.

قلت: هل مات أيوب من مرضه في روايتكم وحكايتكم؟

قال: لم يمت وإنما عادت إليه الصحة وعافاه الله، وأنعم عليه فعاش بعده ثلاثين عاما، وقـد مـلأت مواشيه وإبله وبقره الأرض، وأضحى منزله مأوى الفقراء، ويتكاثر حوله الأضياف.

قلت: إن هذه الديار، توالى عليها أقوام كرماء يبنون نزلهم ويرتادهم الأضياف فمنهم أمراء بني علـى زمن صلاح الدين الأيوبي، وآل الشعلان قبل تكون الدولة الحديثة، السعودية وسوريا والأردن فقـد فقـدت مكانتها عند انتهاء القوافل واستغنى كل في وطنه.

العملاق

(٤٧)

قبل أن أودع صاحبي لهذا اليوم تحاورت مع العملاق العبقري حول كثافة التاريخ في أعالي الحجاز وضفاف بحر القلزم، والبحر الأحمر وتعاقب الحضارات فيه، فلما تقابلنا في اليوم التالي.

قلت له: أنت منحاز للجهة الغربية من الجزيرة.

وقال: كل جهة لها تاريخها الحافل وكأنك تعني شرق الجزيرة فأنت تنظر إلي الشرق.

قلت: **نعم**.

قال: إن هذه الأرض أرتادها الأنبياء والرسل فقد هاجر إليها أبوكم إبراهيم ولوط عليهما السلام فقد خرج إبراهيم من بلاد العراق بعد هلاك النمروذ وجيشه بهذا الحيوان الضعيف البعوض، فولى إبراهيم وجه نحو الشام ومعه نفر قليل من أقربائه الذين أمنوا معه، ومعه لوط ابن عمه، وأمر إبراهيم الذين معه أن يتفرقوا في البلاد مصلحين داعين لله، وأمرهم أن يعملوا في كسب المعيشة، فأستقر إبراهيم في بادية الأردن، وأستقر لوط في سدوم وهي أرض زراعية تتدفق أنهارها، وتجرى عيونها فأتخذ أرضا يعمرها حرثا وزارعة وتزوج، وأنجب بناتا، وكان يدعو مجاوريه لتوحيد الله واجتناب الآثام، وقد تكاثر أهل سدوم وتكاثر عليهم الخير، وكانوا غير موحدين، و لم يأتهم رسول ولا نبي، فازدادوا طغيانا وظلما، وارتكبوا الفاحشة التي ذكرها الله في كتابه:

{وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} [العنكبوت: ٢٨ - ٣١]

وكانوا يقطعون السبيل على المسافرين فيعملون فيهم الفاحشة.

قلت: فهل كنتم تسمعون بهذه؟

قال: معاذ الله حتى الموحدين يمقتونها فكيف بالموحدين، ونحن نتلثم ونتلطم عنها فكيف ندخل في جحرها.

قلت: فهل شاع أمرها حتى تجاوزت ديارهم.

قال العملاق: إن سدوم كانت مركزا تجاريا تصلها القوافل من اليمن والحجاز، وهي معبر إلي فلسطين ومصر وكانت أعمالهم في المسافرين أمر أغضب عليهم البشر، وقد انتحر عدد من الذين فعلوا فيهم الفاحشة وبعضهم ولى هاربا عن قافلته وأقوامه، ولما شاع أمرها اتجه الناس إلي طرق أخرى، وشاع التحذير

منهم وكانت مزارع لوط على الطريق، فالأضياف يمرون به وبعضهم لم يصل إليه أخبار الفاحشة، فكان لوط يعتذر إليهم فلا يستقبلهم ويخبرهم بأمر هؤلاء القوم فيعود أكثرهم وقليل منهم يقع في المأساة.

وقد بعث الله لوطا نبيا رسولا لهم، فأخذ يدعوهم، ويذكرهم بقدرة الله ويكشف لهم عن سوء هذا الانحراف، فتمادوا في منكرهم وكونوا منتديات لهم يشربون، ويفجرون، ويسخرون، ومكث لوط زمننا طويلا حتى كبرت بناته وبلغن وأخذن يعتمدن على أنفسهن وصدقن أبيهن برسالته وكنَ عونا له.

قلت: لم تذكر زوجته؟

قال: إنها امرأة سوء فهي تخبر قومها عن لوط.

قلت: فهل هجرهم لوط؟

قال: بل رابط وصابر ودعاهم بالرقة واللين، وهم يمكرون ويسخرون، حتى مجالسهم لأحياء فيها فهم يجاهرون بهذه المعصية وبهذا الانحراف عن السنن فهم أول الأقوام الذين أعرضوا عن النساء ورغبوا في الرجال.

قلت: كيف كنتم تنظرون إليهم؟

قال: لو لم يكن لهم جزاء إلا حديث الناس ودعائهم عليهم، ومقتهم ولو طال بهم الزمان لا نقطع نسلهم.

قلت: فهل شاعت الفاحشة؟

قال: أبدا لم أسمع بهم قرونا عديدة.

قلت: فماذا شاع عنهم؟

قال: شاع عنهم حادثة هلاكهم.

قلت: فما هي حكاية دمارهم؟

قال: رأى الناس رجالا يطوفون بالنزل تلو النزل، ولكنهم لا يضيفون أحدا حتى جاءوا إلي بيت إبراهيم عليه السلام فجاء بعجل حنيذ، فلما قدمه إليهم لم يتقدموا إلي الأكل فأوجس منهم خيفة وأرتعد واضطرب.

فقالوا: لا تخف نحن ملائكة أرسلنا الله إلي قوم لوط وكانت سارة واقفة فابتسمت حين رأت الرعب يعترى إبراهيم فبشروها بغلام، فصكت وجهها عجبا وفرحا.

وقالت: أألد وأنا عجوز عقيم؟

فقالوا: هذا أمر الله إن الله على كل شيءِ قدير، ثم غادروا النزل وصحبهم إبراهيم قبل أن يختفوا عن الأنظار وأخذ يشفع في قوم لوط فإبراهيم أواه حليم ولم يفارقهم حتى أطمأن على سلامة لوط وأسرته.

وقال لهم: لعلكم تحادثون لوطا لعلهم يرهبون ويوحدون.

قلت: فهل كان الدمار مباشرا؟

قال العملاق: بل جاءوا إلي لوط وهو يحرث أرضه، فحاول الاعتذار لهم ولكنهم ألحوا إلي ضيافته، وقد خشي على أضيافة من فعل الفاحشة لما رأي جمالهم وحسن منظرهم وأخبرهم بأعمال قومه و لم يستطع إقناعهم.

فقال: أين أذهب بكم إلي قومي وهم شر خلق الله، فالتقت جبريل إلي الملائكة.

فقال: أحفظوا هذه واحدة من الشهادات الثلاثة من لوط على قومه فمضى أمامهم ساعة متجها إلي القرية الكبرى سدوم، ثم التقت عليهم.

فقال: أماّ تعلمون أنهم قوم سوء، وأماّ تعلمون أنهم يعملون الفاحشة فهم شر خلق الله.

قال جبريل: أحفظوا الثانية فمضى معهم حتى بلغ داره، فبكى لوط، وضاق ذرعا خشية على أضيافة.

وقال: أماّ تعلمون انحرافهم وأفعالهم الخبيثة، إن أقوامي شر خلق الله.

قال جبريل: سجلوا الثالثة فقد حق العذاب.

قلت: ماذا حدث بعد كل هذا؟

قال: دخلوا على لوط، فإذا بامرأته تصعد فوق السطح، وتؤمي إلي المارين، فتنادوا إلي دار لوط.

وقالت: أضياف وجوههم حسان ومناظرهم جميلة فتكاثروا وهم يقرعون الباب ويدفعونه ولوط يقول أنهم أضيافي وأضياف قريتكم وأنا أزوجكم بناتي، فتمادوا بخلع الباب فتمني لوط أن يكون له مناصرين من قومه فيأوي إلي ركن شديد، والركن الشديد معه وهو الله ولكن شدة الموقف حيرت لوط.

فقالوا الملائكة للوط: أطمئن فنحن رسل ربك لن يصلوا إلينا، هناك هدأت نفس لوط.

قلت: فهل حادثوا الملائكة؟

قال: أعماهم الله، وارتجت عقولهم، وكثرت جروحهم وسالت دماؤهم فهم يصدم بعضهم بعضا ويرتطمون على الجدران ويسقطون على الحجارة، فلما رآهم الناس سألوهم، ماذا دهاكم؟

قال: سحرنا لوط فغضب القوم على لوط، وعزموا على العودة له صباحا.

قلت: سبحان الله: ألم يعتبروا.

قال: إن الشيطان سول لهم أمرهم فباتوا يضمرون الشر والله أعلم بكيدهم فأخذوا يعدون العدة للأعمال الشريرة في الغد فهم يمكرون والله يدبر أمره ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

قلت: كيف كان عذابهم؟

قال: الذين شاهدوهم وسمعوا الحادثة رأوا أمرا لم يخطر على بالهم فاهتزت الأرض من تحتهم وأصابهم الرعب، فلم تلبث القرى أن ارتفعت رويدا رويدا إلي أعلي حتى غابت عن الوجود.

قلت: هل يسمع الناس ما يحدث في قرى لوط؟

قال: كانوا يحدثون عن أصوات الحيوانات ونباح الكلاب وصياح الأطفال، ونداء النساء.

قلت: وهل رأوا سقوطها؟

قال: هم يحدثون عن مكان القرى والعمق التي داخلها فهم لم يروا إلا الظلام، وأصوات المياه، ثم عادت الأرض المبعثرة كالصواعق، وبقايا الأنين والأصوات الخافتة حتى ارتطمت في مكانها وعلى جوانب كثيرة من الأرض حولها، وصعد الماء من الحفر كأنه شهب إلي السماء.

قلت: هل تأثر بها أولئك أهل القرى المجاورون؟

قال: إن حجارتها العائدة لم تصب إلا من خرج منها خارج القرى.

قلت: كيف كان منظر القرى وجبريل يصعد بها إلي السماء؟

قال: كأنها سحابة سوداء لولا الأصوات فيها من صياح الديكة وثغاء الشاه، وخوار الأبقار لم يتعرفوا عليها وظنوها سحابة.

قلت: هل شاهدها الكثير؟

قال: إنهم شاهدوها عن بعد وخير المشاهدين إبراهيم عليه السلام.

وكان يقول: سدوم يوم هالك فانحدر من الجبل واتخذ طريقا إلي جهتها لعله يقابل لوط وبناته، فكان اللقاء المشهود بين الرسولين الأخوين صلي الله عليهما وسلم، مؤثراً.

قلت: كيف كان حال لوط وبناته وزوجته؟

قال: من كان الله معه فلا خوف عليه، فقد خرجوا من القرية تحفظهم رعاية الله، وأمّا زوجته فقد كانت تنظر إلي الخلف وسمعت اهتزاز الأرض والرجفة.

فقالت: وقوماه فبعث الله لها حجرا فماتت.

قلت: لقد رأيت أنت ما رأيت من المعجزات ومناصرة أهل الخير ودمار المعارضين للأنبياء؛ فهل اعتبرت الأمة من حول سدوم؟

قال: أنهم يعتبرون فتذهب أجيال المشاهدين المعتبرين وتخرج أجيال جديدة تنسي الماضي.

قلت: وأنت يا كنز التاريخ؛ كيف بك وهذه الدروس التي سمعت بعضها وشاهدت الآخر؟

قال: ذلك من نعم الله فزاد إيماني وكان لي صحب طالت أعمارهم ورأوا ما رأيت، ولو صحبتهم وشاهدت عبادتهم وسمعت منهم، ورأيت طول قيامهم، وكثرة تسبيحهم، وطول سجودهم، لو رأيت كل ذلك لأدركت حكمة الله في إشهار هذه المعجزات، وإشهار هذه النكبات.

وقال: إنهم تركوا الدنيا واعرضوا، فهم العابدون حقا.

قلت: أضرب لي مثلا.

قال: أنهم أشبه بعباد الصوفية، والأولياء.

قلت: بفكرهم الفلسفي.

قال: بل بطبعهم الظاهري فهم عابدون زاهدون.

قلت: إن التاريخ لم يذكرهم؟؟ ؟

قال: إن ذكر الله خير لهم.

العملاق

(٤٨)

كنت على موعد مع صاحبي العملاق في قمة جبل مطل على قاع لألأ وقـاع ذي المجنـة وامتـدت أبصارنا نحو أغنام ترعى قريبا من التلال جنوب قاع لألأ.

فقلت لصاحبي: أني أرى راعية وأغنام هناك.

فقال: أو تحب الرعية أو الراعية؟

قلت: لا أنكر مداعبة الراعيات وملاطفتهن مع تحشمهن لكن سهام أحداقهن ضاربة في القلوب.

قال صاحبي: كلامك هذا له علوق شبابي في وجدانك.

قلت: هل أنتم تحبون الرعية أو الراعية؟

قال: ما زال قلبي وبصري يعشقان الراعية مع يأس منهما معا، ولكن تدب الراحة في كيـاني حـين أطوف بالبلاد وأمر على ذكريات المنازل والديار والالتقاء على الأنهار والجداول، ثم الآبار بعد التصحر، ومـا أحلى تجاذب مكتل الفواكه من رأسها وتمنعها عليه من أجل إطالة المكث وتوليد الحوار.

قلت: هل هناك نظرة فلقاء فقبلة بعد كل لقاء؟

قال: أنكم تظنون بنا الظنون.

قلت: لأنكم تعتريكم الحياة بلا توحيد ولا مخافة من الله.

قلت: الأمر يعود في جل أحواله إلي الضمير، وخشية الفضيحة، والرقابة الاجتماعية، وقد توالد عنـها العفاف وزاد العفاف مع التدين.

قلت: وهل اصطبغتم بصبغة العفاف؟

قال: لعلك تصدقني إن العفاف يكمن في ضمير أكثر البشر رجالا ونساء بداية من عهد آدم، فهذا ابنه شيث كان قوياً فتياً، فالتقي بفتاة، فأقبل إليها مسلما، فرأى جمالا رائعا، ورشاقة جسم، وفتـوة في الفتـاة، فداعبها.

فقال: وكم بلغت من العمر؟

قالت: مائة عام والفتاة لم يحن زواجها في عرفهم قبل مائة وعشرين عاما، فأنحرف.

وهو يقول: كنت أظن أنك بلغت مرحلة الزواج.

قالت: لماذا؟

قال: أريد أن أتزوجك.

فقالت: والله أني بلغتها ولكني خشيت الحرام منك فقلت لك هذا العمر.

فقال: معاذ الله، وخطبها وأنجبت له الفريق الصالح من بني آدم.

وقلت: أليس هناك انفلات في الأخلاق؟

قال: إنه النادر الشاذ.

وأنت: لو رأيت الشباب يفرون من البنات وإغرائهن، بل يبتعدون عن صحبتهن ومجالستهن؛ وكم من فتي عصمه الله من الفتنة!!!

قلت: وهل العفاف مقصورا على الشباب؟

قال: بل إن تمنع النساء وخشيتهن أكثر وأكثر.

قلت: ما الدليل على ذلك؟

قال: ندرة الفضائح وندرة السفاح فلا حبوب لمنع الحمل.

قلت: كم كنتم تواعدون وتعبثون وتمازحون النساء في الخلوات، فأنتم أقدر على السير ليلا وبعيدا عن الأعين.

قال: ذلك لم يكن إلا للعاشقين.

والعاشقون هم أعف الناس، أمآ الموسات العاهرات؛ فهن يجاهرن بذلك ولا يخشين من أحد لمعرفة تمردهن وبراءة الآهلين منهن.

قلت: إن علوق النفوس ليس بالمجاهرات؟

قال: أكثر الشباب عفيف حتى عن العاهرات.

قلت: وهل قصص الغرام والحرمان كثيرة؟

قال: أكثر من بني عذرة الذين اشتهروا بالعشق والغرام وتعاصر أكثر من ثلاثين عاشقا، والهائمون لها، وكلهم عفيف؟

وقال: عن أكثر العشق في بادية يعتر به الجوع والتدين، أمّا العماليق فهم في رفاه ونعيم وتنعم وهذا لم يفقدهم العفاف والحياء.

قال العملاق: أنت تدون هذه المحادثة ألا تخشى من عاقبة المجتمع والملتزمين؟

قلت: إننا نتحدث عما تحدث عنه رب العالمين.

قال: أتهدف إلي قصة يوسف عليه السلام.

قلت: **نعم**، صاحب القصة المشهورة.

قال: وقبل يوسف أبوه يعقوب رعى في بيت زوجته سبع سنين ولم يكن هناك ما يخدش الحياء، ثم تزوجها فإذا هي غير التي يريدها، وأنجب منها الأسباط، وصحب زوجته الثانية راحيل سبع سنين راعيا عند والدها، ثم تزوجها أليس هذا هو العفاف.

قلت: والله أنها حكاية غفل عنها القص.

قال: إن حكاية يوسف الشاب الجميل الأنيق صاحب الذوق الرفيع والنطق السليم والصوت الرخيم إنها بحق مثلاً للعفاف مع الجمال والرفاه وخضوع ذات المنصب والجمال.

قلت: حدثني عما خفي من القصة فقد جاءت موحية مؤثرة في آيات معدودات؟

قال: لما رأى عظيم مصر يوسف أعجب به وهو في أسماله، وضعف جسمه، فاشتراه وأمر زوجته بإكرامه وأوصي به الخدم والحشم، فنشأ يوسف بين الجواري المنعمات، واحتضنته الزوجة الأنيقة المنعمة التي لا يُرد لها أمر وكل يتمني قربها، وأحبت يوسف، وجعلته أبنا لها، حتى طال المكث وطالت المودة وانغرس الحب، فهو يحب حبا أموميا وهي كذلك ولكن الشيطان أخذ يلج في وجدان الملكة، وجمال يوسف يغري، وكلامه أحلى وأجمل، وقربه يدفع إلي ثورة الأحاسيس ولكنه في تمنع عن كل إغراء لها ومنها.

قلت: فهل كرهته وجفته لما رأت الابتعاد عنه؟

قال: بل زادها شغفا وحبا، وذات يوم أحكمت تدبير أمرها؛ فسرحت الخدم والجواري، وكان زوجها في سفر بعيد، فلما خلا البيت تزينت واقتربت منه وحادثته وهو وجل وخائف، حتى اقتربت منه وبدأت تذكر محاسنه وتشوقه إلي نفسها وهو يمنح الكلمات ذات العبر والعظات.

فقالت ليوسف: ما أحسن شعرك وهي تلامسه.

فقال: هو أول ما ينثر من جسدي.

قالت: يا يوسف ما أحسن عينيك.

قال: هما أوّل ما يسيل من جسدي، وما زال الشيطان يدفعها.

فقالت: ما أحسن وجهك.

قال: هو للتراب صائر.

قلت للعملاق: وكل ذلك لم يثنها عما أرادت.

قال العملاق: بل همت به وهم بها ولكن تراءى له يعقوب، وقد عض على أصبعه.

وهو يقول: لا توقعها، فإنما مثلك إذا واقعتها مثل الطير إذا مات وسقط في الأرض فهرب منها فحاولت اللحاق به وقدت ثوبه، وإذا بالعزيز يفتح الباب ويشهد المشهد المريب.

فقالت: إنه هو الذي يراودني، فشهد الطفل الصغير الذي لا يعي شيئا.

فقال: إذا قد ثوبه من قُبل فصدقت هي وإذا قد ثوبه من دبر فكذبت وهو من الصادقين استدلالاً بقوله تعالي في قصة يوسف: **{وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) } [يوسف: ٢٠-٣٠]**

وقال العملاق: إن الزاهدين في الرجال عدد قليل ويروون أن بلقيسا أزهد النساء في الرجال، وجمعت حولها عدداً من النساء اللائي يستطعن مباعدة الرجال ويتغلبن على شهوتهن وهذه الفتاه التي يأتيها رزقها رغدا تعف عن الرجال أنها مريم ابنه عمران التي أحصنت فرجها.

قلت: ونحن في زمننا هذا كثرت العنوسة وتفوقت كثير من العانسات في العمل الإداري والتربوي، وكثير منهن عضوات تدريس وهن عفيفات صاحبت تقي وعفاف كتب الله لهن الأجر والمثوبة وهن من الصابرات ذوات اليقين والتقي فالخير مصاحب للبشر.

قال العملاق: ذكرتني بنساء تعرضن للحروب، ففقدن أزواجهن، وأضحن أسيرات خادمات وعُرفن بعفافهن واستمر ذلك من الشباب حتى نهاية العمر وهناك فئة كبيرة من أمهات الأولاد آثرن تربية الأولاد على الزواج.

قلت: إني أعرف ذلك في النساء المتقدمات وحتى المعاصرات.

قال العملاق: بل وقفت النساء ضد الإباحية.

قلت: فهل ذلك في زمن العماليق الأوائل؟

قال: إنه عند السلاطين المستبدين وحصره على السلاطين، فهم يختارون الجميلات ويجبروهن ويجبروا أوليائهن ويكون الأمر فيه نوع من إخفاء الأمر لكن الأشد والأكثر هو أن بعض السلاطين في القرى يأمر بإحضار العروس إليه أولاً.

قلت: حدثني عن هذا الطغيان والظلم وانتهاك الأعراض؟

قال: إن أحد حكام العماليق، قد أجبر أهل قريته على أن يعرضوا فتياتهم بعد تجهيز العروس عليه فيفض بكارتها وكان المجتمع يغضب من ذلك، كان النساء ليشتد غضبهن، ويعلن تمردهن، ولكن مصيرهن القتل من هذا الفاتك الذي قتل الآباء والأخوان حتى دفعوا إليه أحد العرائس فحاولت الامتناع وضربها حتى سالت دماؤها وفض بكارتها، فخرجت من عنده، وقد شقت ثيابها من الأمام والخلف وسارت ودماؤها تسيل وتصرخ **فقالت**:

لا أحَد أذَلّ مِن جَديس أهكَذا يُفعَلُ بالعَرُوس

يَرضَي بذا يا قومِ بَعلُ حُرّ أهدى وقد أعطي وَسيق المهر

وقالت أيضا لتحرّض قومها:

أيجمُلُ ما يُؤتَي إلي فَتياتِكم، وأنتم رِجال فيكُمُ عدَدُ النّملِ

وتُصبحُ تمشي في الدِّماء عَفِيرةٌ جِهاراً وزُفّت في النّساء إلي بَعلِ

وَلَو أنّنا كُنّا رِجالاً وكنتم نساءً لكُنّا لا نقّر بذا الفِعلِ

فموتوا كرامًا أو أميتو عدوكُم ودبّوا لنارِ الحربِ بالحطب الجزلِ

وَإلا فخَلوا بطنَها وتحمّلُوا إلي بلَد فقرٍ وموتوا منَ الَهزلِ

فلَلبَينُ خيُر من مقُامٍ على الأذى وَللموتُ خيرٌ من مُقامٍ على الذلّ

وإن أنتمُ لم تغضَبوا بعدَ هَذهِ فكونوا نساء لا تُعابُ من الكحلِ

ودونَكُــمُ طِيــبَ النّســاء فإنّمــا خُلقتم لأثوَابِ العــرُوس وللنســل

فبُعدًا وسُــحقًا للــذي لــيس دافعــاً ويختالُ يمشي بينَنــا مِشــيةَ الفحــلِ

قلت: ما مصير ذلك الطاغية؟

قال: دبروا له مكيدة وجردوه من سلاحه في حفل أعد له ووليمة كبيرة فقد أخفي القوم سيوفهم في التراب، فجاء الملك يرفل في النعيم والثياب الجميلة هو وأعوانه، فلما تكاثفوا على الأكل، استخرج القوم سيوفهم من باطن الأرض وقتلوا الملك والقوم جميعا.

قلت: إن التاريخ دون لنا حكايات لنهايات مأساوية كثيرة.

قال: وهناك حكاية ليست من الطغاة والحكام، وإنما من أصحاب الفكر والثقافة.

قلت: إن منزلقات الفكر أكثر دمارا وأشمل للشعوب.

قال العملاق: إننا سمعنا دعوة عند الفرس أيام الملك قباذ، فقد دعا مزدك إلي شيوع المال، والنساء.

وقال: من عنده فضل من المال يعطيه المستحق، ومن عنده نساء يحق للآخرين أخذهن، وقد شايع هذا الفكر الضليل كثير من السفلة والمتمردين، فشاع وشايعهم الملك قباذ، فأنتشر الأمر واختلطت الأنساب، وكثر الاغتصاب، فاستباحوا المنازل والأعراض فاجتمع العلماء والمفكرون والشعب وثاروا ضد الملك وسلموا السلطة لكسرى وهو: رجل عاقل عالم حكيم فقتل من دعا ويدعو إلي ذلك، ورد الأموال إلي أصحابها، وكذلك النساء إلي أزواجهن، وقتل أعداداً كبيرة من أصحاب هذا المذهب فكل من اعتدى يحاسب على سطوه.

قلت: هذا الانحراف الفكري هو أصل المذهب الشيوعي الذي يجعل المال مشاعا.

قال: تواصل فكركم ليجعلكم تفترعون بعضكم بعضا، فالرجال لهم حريتهم وللنساء حريتهن والهدف هو الرغبة الشهوانية، وقد وضعتم الأنظمة التي جوهرها الإباحية وهذا في المذهب الشيوعي والرأسمالية جل الدول والأنظمة تبنت هذه الأفكار، فالرجل يلتقي بمن يريد والمرأة تصاحب من تريد، وقد تجاوزهم الحدود فالمرأة تشاهر، وتستضيف الفرند في بيت أبيها فإلي أين تذهب حضاراتكم.

قلت: أن ٦٠% من مواليد بعض الدول بلا أب معروف.

قال: إذن لا ولاء من الرجل لزوجته ولا يقين في أولاده حتى الأسرة مضطربة تداهمها الشكوك.

قال: إن الأمر خطير على الحياة البشرية والتحول الجمعي للإباحية.

وأردف يقول: عــسي الله أن يحمي كيان الأسرة المسلمة.

وقال: إن ذلك وبالا على المرأة أولا فيما بعد الأربعين وتتحمل أطفالها، ثم هم يلمونها حين يطرح السؤال أين الأب وحظكم أن النساء لم يفكرن في العاقبة.

قلت: لا بدّ وأن تشكل القاضية القاصمة.

العملاق

(٤٩)

التقيت بصاحبي العملاق فإذا بالهاتف الجوال يقرع مسامعي ومسامعه ولما انتهت المحادثة.

قال: أنكم أمة تأتيكم المعلومات من جداول متعددة من السماء ومن والأرض، ومن الفضائيات، والهواتف، والمكتبات، والشبكات العنكبوتية.

قلت: لا تستطيع الإحصاء، فهذه نعمة الله استهدى إليها البشر بفضل الله ولكن أنتم ما هي موارد العلم عندكم؟

قال: تناقل الأخبار فكل من يقابلك تعطيه الأخبار، ويأخذ منك الأخبار، وكل ما يسمعه الفرد ينقله لأسرته ولمن حوله.

قلت: وما هي الوسيلة الأخرى؟

قال: إنها المجالس الليلية وغير الليلية، ففيها القصص، وفيها سرد الحكايات الحربية، وفيها حكايات العقلانية، وفيها الحكايات الظريفة، وفيها التداول لما يهتم به هذا الجمع من الناس.

قلت: وهل لديكم تدوين؟

قال: إننا في الجزيرة نعتمد على المشافهة، وهناك من الرجال والنساء يحفظون الأخبار ويسردونها.

قلت: كيف تبقي على كر الأيام ومرّ السنين، وتتابع القرون؟

قال: إننا نسمع ونعي بكل جوارحنا ونحفظ ونُحدث، وهل أنتم تختارون وتنتقون.

قال: إننا نحفظ كل ما نسمع.

قلت: ما الذي تفضلونه وتحفظونه؟

قال: نحفظ الشعر حفظاً نصيا، ونحفظ الأمثال والحكم حفظاً مماثلا.

قلت: وإن روايات التاريخ كانت هي علمنا ومعارفنا وفيها بناء الشجاعة، والعزيمة، وبناء الأخلاق والقيم.

وقلت: هذه كثيرة.

قال: تأتيني الأخبار الحربية وقيام الدول وسقوطها من الشرق والغرب والشمال والجنوب.

قلت: حتى من أطراف الدنيا؟

قال: نعم كنا نستمع إلي أخبار ذي القرنين، فإذا تليت علينا كأن أهل المجلس على رؤوسهم الطير فأتذكر إن أحد الأضياف جاء ومعه أخبار كثيرة، وقد روى لنا أن ذي القرنين كان في موكبه الحربي وإذا

بشيخ يعبد ربه، فوقف عنده ذو القرنين وأحاطت بالشيخ الخيل والجند، وإذا بالشيخ يواصل تعبده و لم يبال، فلما أنصرف الشيخ من عبادته.

قال له ذو القرنين: ألم يرعك ويفزعك ما أحاط بك من الجنود.

قال: كنت أناجي من جنوده أكثر من جنودك، وسلطانه أعز من سلطانك، وقوته أشد من قوتك.

قال ذو القرنين: هل لك أن تنطلق معي وأواسيك بنفسي وأستعين بك على بعض أمري.

قال الشيخ: نعم، إن ضمنت لي أربع خصال:ـ نعيم لا يزول، وصحة لا سقم فيها، وشباب لا كبر فيه، وحياة لا موت فيها.

قال ذو القرنين: وأي مخلوق يقدر على هذه الخصال.

فقال الشيخ: أنا مع من يقدر عليها ويملكها.

قلت: كلها عبر وعظات فهل يحفظها غيرك.

قال: كل المستمعين والمستمعات يحفظونها، وقد تناقلها الأجيال ولها تأثير في قبول دعوات الخير من الأنبياء والمصلحين.

قلت: إذن أنتم تحفظون القص كما تحفظون الأشعار؟

قال العملاق: إننا نحفظ سيرة ملك كاملة فكيف بأحداث، وقد حفظت قصة أقوام يعيشون بلا سلطة ولا ملك.

قلت: ذلك أمر غريب.

قال: إن ذا القرنين مرّ على ناس كثر وطلب منهم إحضار سلطانهم.

قالوا: لا سلطان لنا.

قال: فليحدثني هذا الشيخ عن أحوالكم.

قال: نحن نقسم بالسوية، ونحكم بالعدل، ونتواسى، كلمتنا واحدة ، وقلوبنا مؤتلفة مستقيمة، وسيرتنا نقية، وقبورنا في أفنية منازلنا، وأنت ترى عدم وجود الأبواب على منازلنا، ولذلك استغنينا عن الأمراء، فالأمراء يورثون الطبقية وليس عندنا قضاة ولا أشراف يتفاوتون ولا يتفاضلون، ولا يختلفون، ولا يتنازعون ولا يتقاتلون.

قال: ذو القرنين فما عاقبة ذلك عليكم؟

قال: لا يمر بنا قحط، و لم تصبنا آفات ولا نكبات.

قلت: إن ذا القرنين جاء إلي المدينة الفاضلة التي تمناها الفلاسفة.

قال العملاق: لعل الفلاسفة استنبطوا فلسفته من أخبار هذه الجزيرة.

وقال العملاق: فلما سمع ما سمع ذو القرنين أمر جنده بالخروج ونصب سرادقه، وتحلق عليه بعض كبار السن والشباب والنساء.

وقال ذو القرنين: إني طفت بالأرض شرقها وغربها وسهلها وجبلها، وبرها وبحرها ،ونورها وظلمتها، فلم أر مثلكم.

وقال ذي القرنين: خبروني أخباركم؟

قالوا: أسأل عما بدأ لك نخبرك.

قال: ما بال قبوركم في أفنيتكم وعلى أبواب بيوتكم؟

قال أحدهم: لئلا ننسي الموت، ولا يخرج ذكره من قلوبنا.

قال: فما بال بيوتكم لا أبواب عليها؟

قال أخر: منهم ليس فينا متهم ولا ظنيين وليس فينا إلا مؤتمن أمين.

قال الأسكندر: فما بالكم ليس عليكم أمراء؟

قال أحدهم: لأننا لا نتظالم.

قال: فما بالكم ليس فيكم أغنياء؟

قال أحد الجالسين: لأننا لا نتكاثر في الأموال.

قال: فما بالكم لا تتفاوتون ولا تتفاضلون.

قالوا: إننا متواسون متراحمون.

قال: فما بالكم ليس فيكم أشراف؟

قالوا: لأننا لا نتنافس.

قال: فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون؟

قال بعضهم: من ألفة قلوبنا، وصلاح ذات بيننا.

قال: فما بالكم ليس بينكم حكام؟

قالوا: إننا لا نختصم.

قال: فما بال كلمتكم واحدة؟

قالوا: لأننا لا نتكاذب ولا نتخادع، ولا يغتاب بعضنا بعضا.

قال: فأخبروني عن أسباب تشابه قلوبكم، واعتدال سيرتكم؟

قالوا: من صحة صدرونا، فنزع الله بذلك الغل والحسد من قلوبنا.

قال: فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير؟

قالوا: لأننا نقتسم بالسوية.

قال: فما بالكم ليس فيكم فظا ولا غليظ.

قالوا: لأننا ندرك أننا أقل من القليل وأذل من الذليل.

قال: لماذا أنتم أطول الناس أعماراً.

قال أحدهم: لأننا نتعاطي الحق ونحكم بالعدل.

قال: فما بالكم لا تقحطون ولا تجدبون؟

قالوا: لأننا لا نغفل عن الاستغفار.

قال: فما بالكم لا تصيبكم الآفات؟

قالوا: لأننا نتوكل على الله ولا نستمطر الأنواء ولا النجوم.

قال ذي القرنين: كيف وجدتم آباءكم؟

قالوا: وجدنا آباءنا، يعطون مساكينهم، ويواسون فقيرهم، ويوقرون غنيهم، ويعفون عمن ظلمهم، ويحسنون إلي من أساء إليهم، ويحلمون عمن جهل عليهم، ويستغفرون لمن سبهم، ويصلون أرحامهم، ويؤدون أمانتهم، ويحفظون وفائهم لصلاحهم، ويوفون بعهدهم، ويصدقون في مواعيدهم، ولا يستنكفون عن أقاربهم فأصلح الله تعالى بذلك أمرهم، وحفظهم ما كانوا أحياء.

قلت للعملاق: وماذا فعل لهم ذو القرنين؟

قال: مكث عندهم حتى توفاه الله.

قلت: إن مثل هذه الحكاية، يجب أن يحفظها الكبير والصغير والرجل والمرأة والفتى والفتاة في كل زمان ومكان في الزمن القديم والزمن الحديث لعلنا نتسم ببعض منها.

قال العملاق: ونحن كنا نحفظها ونحفظها أولادنا.

قلت: إن ذا القرنين عاش أكثر من خمسمائة عام طاف بالدنيا وسبر أغوارها، وعرف أشجارها، وخاض مع حكمائها، وأرتقي جبالها، وكشف الله له أستارها الخفي منها، وتكلم مع لغات البشر وتكلم له الطير، كلها حياة حافلة بالمعرفة والتجارب، والإحاطة بمكونات الطبيعة والإنسان.

قال: إن الذين صحبوه أضحوا فلاسفة الكون.

قلت: هو اصطحب، اليوناني، والفارسي، والعربي والهندي لينشروا علمه وأخباره، ويكون صدي حياته في أرجاء الأرض.

قال: كانت أخبار غزواته، وأخبار حوادثه الخارقة، وكرامته وغوصه في الظلمات المجهولة في أقاصي الدنيا والبحار، كانت كلها تجرى على ألسنة الناس في تلك الأزمان، ثم تناقصت.

قلت: هل ما زال عند الكثير منها؟

قال: لا أستطيع إن استذكرها إلا بالمحاورات والمتشابهات.

قلت: ذكرت النهايات في الأرض والظلمات؛ فهل في الذاكرة شيء من هذه الحكايات؟

قال: حكايته مع صورة ضخمة لإنسان مستلقي فوق سطح ممتد طولا، فلما سمع صاحب الصورة خشخشة ذي القرنين.

قال: من هذا؟

قال: أنا ذو القرنين.

قال: ياذا القرنين إن الساعة اقتربت، وأنا انتظر أمر ربي يأمرني أن أنفخ فأنفخ، ثم أخذ صاحب الصورة شيء بين يده كأنه حجر.

وقال: خذه يا ذا القرنين فإن شبعت شبعتَ، وإن جاع جعتَ، فأخذه ونزل إلي أصحابه، ثم جمعهم.

وقال: أخبروني عن هذا الحجر فما أمره؟

فقالوا: أخبرنا عما قال لك صاحب الصورة؟

فقال: ذو القرنين.

إنه قال لي: إن شبع هذا شبعت، وإن جاع جعت، فوضعوا الحجر في إحدى كفتي ميزان، وأخذوا حجرا حجرا في الكفة الأخرى، فلم يميل الحجر بكثرته مع هذا الشيء حتى بلغ ألف حجر، فلم يزل الشيء يميل بسائر الحجر.

ثم قال: الفلاسفة والمفكرون بعد تداول الأمر، أنقطع علمنا، فتقدم الخضر.

فقال: أنا أعلمه، ثم اخذ الميزان بيده ووضع الحجر(الشيء)في كفتها وأخذ كفا من تراب فجعله في الكفة الأخرى، ثم رفع الميزان فاستوي الميزان مع الحجر، فخر العلماء وذو القرنين سجدا لله.

فقالوا: هذا علم لم يبلغه علمنا.

قلت: ما زال الأمر مجهولا.

قال العملاق: إن للقصة بقية فقد سأل ذو القرنين الخضر عما وراء ذلك.

قال الخضر عليه السلام: أيها الملك إن سلطان الله عز وجل قاهر لخلقه، وأمره نافذ فيهم، وحكمه جار عليهم.

قلت: إن ذلك يؤمن به ذو القرنين وجل العلماء من حوله.

قال العملاق: ذلك تمهيدا لمقوله كبرى.

فقد قال الخضر: إن الله ابتلى خلقه بعضهم ببعض، فابتلى العالم بالعالم، والجاهل بالجاهل، والعالم بالجاهل، والجاهل بالعالم، وأنه ابتلاني بك، وابتلاك بي.

قال ذو القرنين: صدقت، فأخبرني ما هذا؟

قال الخضر: هذا مثل ضرب لك صاحب الصورة وإن الله مكن لك في البلاد وأعطاك ما لم يعط أحدا، وأوطئك منها ما لم يوطئ أحدا، فلم تشبع، وأتيت نفسك شرها، حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطأه أنس ولا جان، فهذا مثل ضربه الله لك فابن آدم لا يشبع أبدا حتى يحثى عليه التراب، ولا يملأ جوفه إلا التراب، فبكي ذو القرنين.

وقال: لن أطلب أثرا في البلاد بعد مسيري هذا.

العملاق

(٥٠)

استقبلني العملاق في قمة جبل فوق تل مشارف على الأردن وكان يطيل النظر إلى تلك الجبال الممتدة على خليج العقبة.

فقلت: بماذا تفكر؟

قال: أظن أن هذه الجبال التي تسبح مع داود، وهذه الجبال التي كان إبراهيم يلاحق الصيد فيها.

قلت: إن هذه الأسرة المباركة، أنعم الله بها على الخلق في الشرق والغرب.

قال: كنا في رحلاتنا نتعرف على هذه الجبال ويشيرون إلي أصوات يتخيل للناس أنها أصوات تسبيح.

قلت: هل هي حقيقة؟

قال العملاق: أظنها أوهام نتيجة توارثها الناس لكثرة حديثهم عن تسبيح الجبال مع داود.

فقلت: كيف كان تسبيح الجبال؟

وهل يسمع الناس أصواتها وأصوات الطيور؟

قال: تختلف الروايات.

قلت: في زمنكم لم تصلوا إلي حقيقة.

قال: إن الناس يعشقون تلك الروايات ويزيدونها، ويحرفونها.

قلت: كيف نحن قد وصلتنا عبر السجل اليهودي ونحن نسمعها ولا نصدقها ولا نكذبها وتكون الاستفادة منها بعد طول تأمل وتدبر وحذر.

قلت: كيف رجحت أن هذه الجبال هي صاحبت إبراهيم وداود؟

قال: لأنها على مشارف الحجاز التي استوطنها إسماعيل بن إبراهيم وبني بها إبراهيم الكعبة وهي قريبة من بيت المقدس الذي ظهر بعد أربعين سنة من بناء الكعبة.

قلت: هل معنى ذلك إن بيت المقدس لأمة دون أمة أو أن الكعبة لأمة دون أمة؟

قال العملاق: بل هما للموحدين المؤمنين بالرسائل النبوية قاطبة.

وقال: إن الله إذا أراد أمرا أن يقول له: **كن فيكون** وهذا المضمون كنا نتداوله قبل نزول القرآن، لأن أخبار المعجزات كانت تدور في أحاديث الناس ومنتدياهم وأخبارهم فهذه أخبار داود ماجت بين الناس منذ طفولته.

فيرون: أن داود قال لأبيه وهو لم يتجاوز الثالثة عشر من عمره أني ما أرمي بقذافتي شيئا إلا صرعته.

قلت: نحن نسميها المقلاع.

قال: الأهم أنها نسيج يحمل حجرا ويربط من جانبيه بخيوط طويلة بعض الشيء، ثم توضع الحجر فيأخذها صاحبها بجمع طرف الخيوط حتى لا تسقط الحجر، ثم يشدها إلي أعلى بدورات، ثم يرسل الحجر، وهي وسيلة للرعيان للمدافعة وإبعاد الذئاب عن الغنم وتارة وسيلة صراع بين الشباب.

قلت: هناك تتجسد إرادة الله فبهذه الحجر يقتل داود أعظم حاكم في الأرض وأطغاه.

وقال العملاق: كذلك ظهرت معالم العناية الربانية فهو يرعى الأغنام ويسبح فتسبح الجبال معه، فأخبر أباه خشية.

فقال: أبوه أبشر فإن هذا خيراً أعطاكه الله.

وقال العملاق: إن الله يرسل نبيا يكون موجها للملك والمجتمع، فيأتمرون بأمره لأن الله يوحي إليه؛ وقد قال النبي لطالوت إنه يقتل جالوت من يوضع الزيت مغليا على رأسه فلا يسيل إلي خديه ومرت التجارب على شباب متعددين حتى جاء الدور على داود، فمكث الزيت على رأسه و لم يصب بأذى.

فقال طالوت: هكذا يقتل جالوت وأزوجه أبنتي وأشركه في الملك، فلما بدأت المعركة أخذ يرسل داود (مخلاته) مقذافته فمات كل من لامسه الحجر حتى بلغت إحدى الأحجار جالوت فنفذت من رأسه فمات، واتجه الناس إلي داود، فحسده طالوت وحاول قتله مرات.

قلت: إنها ظنون داعبت طالوت.

قال العملاق: اثبت داود ذلك بالدليل، فقد وضع زق خمر في منامه بجانب زوجته، فعدا عليه طالوت وضربه بالسيف فانتثرت الخمر وظنه دما وظن انه قتل داود لكن داود وضع عند رأس طالوت في الليلة المقبلة سهمين فأدرك طالوت أنه لم يمت، وندم طالوت وأدرك أن الله مع داود فتاب.

وقال له النبي بوحي من الله إنه لن تقبل توبته حتى يقاتل هو وأبناؤه العشرة فيقتلون واحدا واحدا، ثم هو يقتل وأرسل طالوت الفرق الواحدة تلو الأخرى وعلى كل فرقة أحد أبنائه، فيُقتل ويرسل الأخر وهكذا حتى قتلوا فأضحى قائدا لفرقة وحارب حتى قُتل.

قلت: إنه الابتلاء.

قال العملاق: كل ذلك يهون في سبيل الدار الآخرة والجنة ورضي الله.

وقال للعملاق: كان موضع غرابتنا في حكاية داود مع الجبال إن تحركت الجبال الثقال الراسيات مع داود ويسبحن معه ويسجدن وراءه.

قال: إنهم يروون أن الجبال تصدر أصواتا، وتتحرك أو يتراءى للناس مع داود أنها تتحرك وكأنها تقترب من داود والله أعلم.

قلت: ألا تنفر الطيور من الإنسان وداود إنسان.

قال: يقولون أنها تهفو إليه كما يلقى الحبيب حبيبه وأنها تحدق به من كل جانب ويلامسها.

وقال الرواة: إنها تتكاثر حتى تملأ الميادين، وأنه يسبح بينها وهى تتزاحم على القرب منه.

قلت: هل صوت داود مرتفعا فتسمع الطيور والجبال به؟

قال: إنه صوت عالٍ لكن يسمعه الطير في كل مكان، وتسمعه الجبال المجاورة وصوت داود في تسبيحه أجمل الأصوات له نبرات متقاربة وإيقاعات مع صوت ندى جميل، فالبشر يبتهجون بسماعة فيستمع له ما يقارب من أربعة آلاف يخرجون مع داود للاقتراب من الجبال.

قلت: هل سمعت أحدا من بعده يقلد هذا التكبير والتحميد والتسبيح؟

قال: إنهم انقرضوا وقد حل الطرب بدل ذلك.

قلت معنى ذلك: أن الغناء لم يعرف قبل داود.

قال: التغني والترنم غريزة بشرية ولكن الجديد: هو اكتشاف آلة الطرب ويروون أن الشياطين أخذوا يعزفون حتى قلدهم الأنس.

قلت: إن الله منح داود معجزة كبيرة.

قال العملاق: إن الله أكرم إبراهيم عليه السلام والأنبياء من بعده بمعجزات متعددة، وأن الله أكرم داود بالنبوة، وقتل جالوت وآته الله الملك والحكمة، وألان له الحديد، فهو يقلبه بيده كيف يشاء ويحوله إلي تجسيم أو جعله أسلاكا ممتدة.

قلت: إنها نعم كبيرة وكثيرة.

قال: إن داود لم يقنع ولكنه دعا وناجى ربه.

وقال: ياربي أكرمت أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب بمعجزات لها شأنها فطلب أن يكرمه الله، فأوحي إليه إن آباءك، قد ابتلاهم الله.

فإبراهيم ابتلاه بقتل ابنه، وإسحاق ابتلاه بالعمى، ويعقوب ابتلاه بفقد ابنه يوسف فطلب داود الابتلاء ويهبه الله المعجزات.

قال العملاق: عن داود أقبل على العبادة، ونقش في يده تحذيرا في الوقوع في الأخطاء، ولكي يبتعد عن المنكرات فإنه وزع أجزاء الدهر.

قلت: إن هذا أول منهج يتخذه الإنسان لتوزيع الزمن والعمل.

قال: إن داود كان مفكرا ومتأملا وكان له أولويات كثيرة لم نسمعها من قبل.

قلت: فما برنامجه اليومي؟

قال: يوما لنسائه، ويوما لعبادته، ويوما لقضاء بني إسرائيل يذاكرهم ويذاكرونه وهكذا يدور الأسبوع.

قلت: وهل ترك الرقابة وتدبير مملكته؟

قال: إنه وضع سياسة حكيمة لدولة محكمة الجوانب.

قلت: كيف تداخل إليه الأغراء؟

قال العملاق: إنه يغلق الأبواب في عبادته وأمر ألا يدخل عليه أحد، وأخذ يقرأ التوراة ويتأمل فيه، ويسبح الله عز وجل، فبينما وهو مستغرق في قرأته وإذا بحمامة جميلة متناسقة الألوان المتعددة.

وقد وقفت بين يديه، فأهوى إليها ومدّ يده ليأخذها، فطارت ووقعت قريبا منه وكل ما أهوى إليها ابتعدت عنه فلم ييئس وتابعها وهى تصعد السلم حتى أشرف على السطح.

فإذا بامرأة جميلة رشيقة القوام عارية تغتسل، فأعجبت داود وحدق النظر فيها وهو في غفلة من وعيه بالآثم، ثم رأت ظلاله في الماء فوضعت شعرها على جسمها المواجه لداود فزادت جمالا بشعرها الطويل الكثيف وزاد أعجابا بها، وكان قد بعث بزوجها على أحد جيوشه.

قلت: إنها متزوجة فأخذ اليأس يدب في داود.

قال: إن الشيطان انفرد بتدبير الأمر لأن الله استجاب له ورفع العصمة عن داود.

قلت: وماذا جرى؟

قال: إنه أرسل إلي (أهريا) زوج المرأة بفرقة إلي مواصلة الحرب في أقاصي البلاد؛ فكتب له القائد الأعلى: إننا أمام قوم أشداء ونخشى على الجند، قال يكون (أهريا) في مقدمة الجيش، فذهب فقُتل زوجها وتزوجها داود وكان داود في غفلة عن مغبة هذه المكيدة التي عملها، وأعتمد على ذاته.

فقال لله: إنه يقاوم المنكرات سنة كاملة.

فأوحي الله له إن داود: لا يستطيع.

فقال داود: ستة أشهر.

فأوحي الله: إنك لا تستطيع؛ فأوحي الله إليه أن لك يوما واحدا، فلما أستغرق في العبادة جاءته الحمامة.

قلت: كيف تنبه إلى ذلك؟

قال: أرسل الله له ملكين وهو في محرابه وتساور عليه الأسوار، ففزع داود.

وقال: كيف وصلتما؟

قالا: لا تخف خصمان بغي بعضهما على بعض.

قال: فما قضيتكم؟

قال أحدهما: إن أخي له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فأراد أن يأخذ نعجتي إلي نعاجه، وكان يوسف عنده تسع وتسعون امرأة وقائده عنده امرأة واحدة، فتنبه داود وخر راكعا وظل ساجدا باكيا أربعين يوما، فلما يقضي طعامه وشرابه، ثم يعود ساجدا يدعو الله أن يغفر له خطيئته فاستجاب الله له.

فقال: ياربي إنك عادل قادر ولكنك أخبرتنا أن حقوق البشر لهم وهم الذين يأخذونها.

فقال ياربي: أحيه لعلى أستسمحه؛ فأحياه الله.

فقال داود: للرجل أنا دفعتك للحرب المرة تلو الأخرى فاسمح لي.

فقال يا نبي الله: أنا شهيد وأنا في خير فأحمد الله على الشهادة ومات.

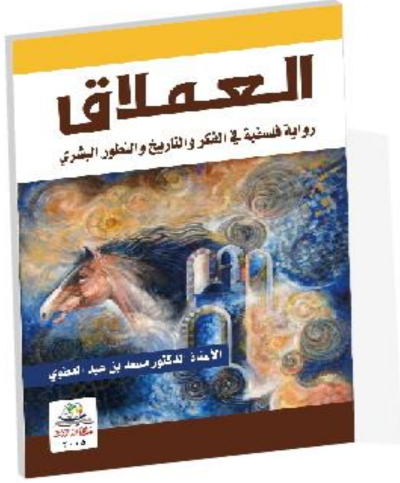
فقال الله: إنك لم تخبره بمكيدتك فأحياه الله مرة أخرى، فأخبره داود أنه يدفع به للحرب حتى يموت ويتزوج زوجته فمال الرجل ومات ولم يعفو عن داود فحزن داود وطال بكاءه ونحيبه وتبتل وترك أمر الدولة وانحرف الناس عنه إلى نحو أحد أبنائه فثار عليه، ثم أن الله غفر له.

فقال ياربي: كيف تعمل لهذا القائد؟

قال الله: سأنعم عليه حتى يرضى، فهدأت نفس داود وعاد لحكمة وأرسل قائدا ليقاتل أبنه وأوصي بألا يقتل أبنه إذا ظفر به، فلما انتصر القائد هرب ابن داود فلاحقه القائد حتى قتله فغضب داود وقرب أبنه سليمان.

The Giant

Philosophical novel In the history of human Thought and development



المؤلفات والبحوث

١- أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية.

٢- تبوك قديما وحديثا.

٣- المقطعات الشعرية في الجاهلية وصدر الإسلام.

٤- الرمز في الشعر السعودي.

٥- الاتجاهات الفنية للقصة القصيرة في المملكة العربية السعودية.

٦- الاتجاهات الفنية للشعر إبان الحروب الصليبية.

٧- الشعر والمجتمع في المملكة العربية السعودية.

٨- الشعر الوجداني في المملكة العربية السعودية.

٩- الغموض في الشعر العربي.

١٠- العاشق العفيف عروة بن حزام.

١١- البنات في شعر الآباء.

١٢- العتابي حياته وأدبه.

١٣- الاتجاه الفكري في شعر الخليج العربي الحديث.

١٤- الفكر والشكل في الشعر السعودي.

١٥- تبوك المعاصرة والآثار حولها.

١٦- بناء الفكر.

١٧- بناء الفكر التربوي.

١٨- بناء الفكر الإداري.

١٩- الأدب العربي الحديث.

٢٠- التحول (سيرة ذاتية).

٢١- النقد في أحضان الجامعات.

٢٢- وطنيات الواقع والامل

٢٣- السرد فكراً وبناءً

٢٤- تأملات في الشعر المعاصر

٢٥- باقات من شعر المغرب العربي
دراسات تحليلية لأبنيتها الجمالية والدلالية

٢٦- العملاق رواية فلسفية في الفكر والتاريخ والتطور البشري

عالم الكتب الحديث
Modern Book's world
للنشر والتوزيع

الأردن – اربد – شارع الجامعة
تلفون: ٧٢٧٢٢٧٢ ٢ ٩٦٢+ / فاكس: ٧٢٦٩٩٠٩ ٢ ٩٦٢+
الرمز البريدي: (٢١١١٠) / صندوق البريد: (٣٤٦٩)
almalktob@yahoo.com
www.almalkotob.com

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع
الأردن - العبدلي مقابل عمارة جوهرة القدس

مطبعة حلاوة
Halawa
Printing Press
هاتف: ٧٢٧٥٥٢٥ ٢ ٩٦٢+
فاكس: ٧٢٤٠٥٢٥ ٢ ٩٦٢+